رواية

الطاهر بنجلون

أن ترحل

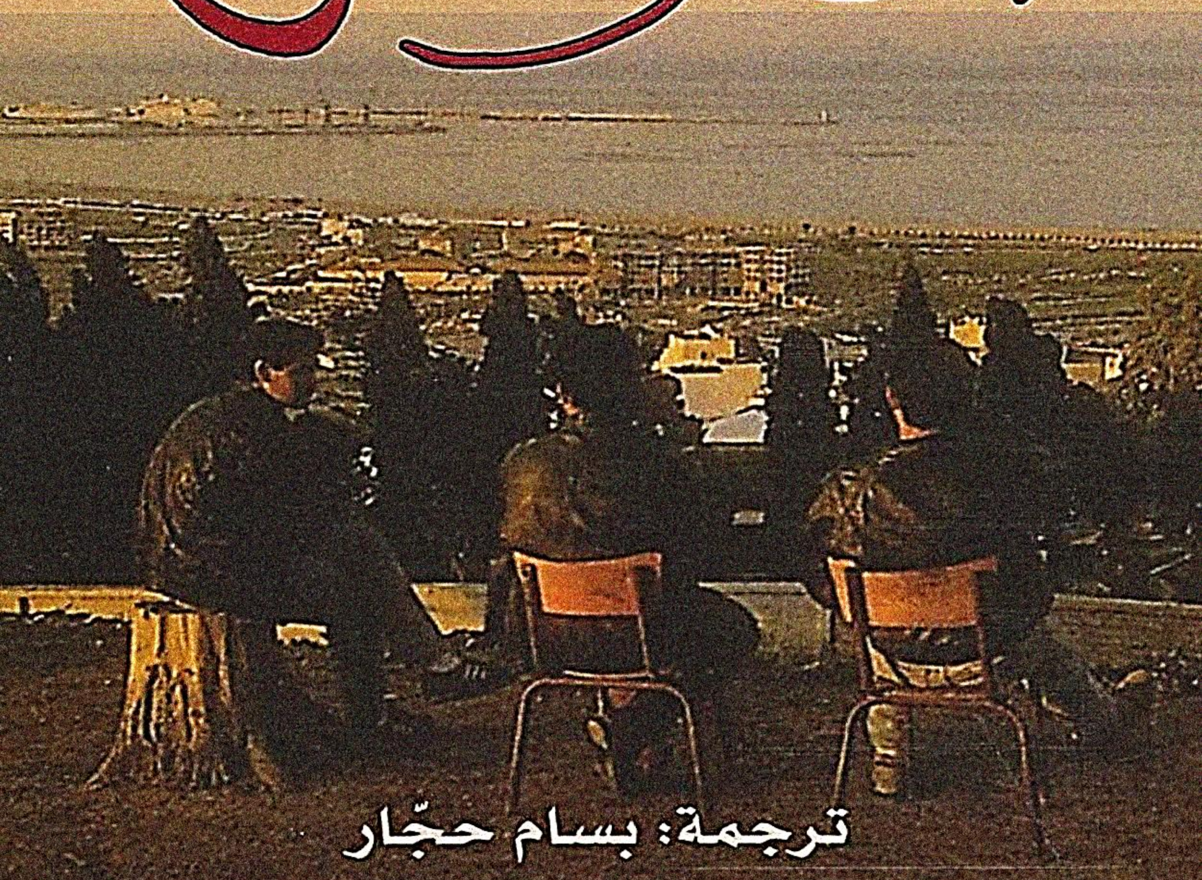

ترجمة: بسام حجّار

المركز الثقافي العربي

علي مولا

صديقي الكاميروني، فلوبير، يقول: إنّي قادمٌ إذا أراد أن يقول: إنّي راحِلٌ. ونحن باقون معاً إذا كان مودّعاً قبل ان يغادر. تلك كانت حيلتُه في تعزيم القَدَر. وفي هذه الرواية مَنْ يرحلون لا يفكرون في العودة، وإذا هَجَروا أحداً مغادرين فإنهم يهجرون الى الأبد.

❖❖❖

لم يُطبق لعازل جفن. ما سبب هذا الهوَس في مغادرة المغرب؟ ما سبب إلحاح هذه الفكرة وتردّدها في رأسه بعنف؟ كانت أفكاره تُخيفه، وكان أرَقه يضخّم حيرته تلك الى حدود مُفزِعة.

نهض من فراشه، وخرج الى الشّرفة المطلّة على جبّانة مرشان. نورٌ بهيٌ مفضّض كان يُنير البحر. راح يعدّ القبور لكي يهتدي، من بُعد، الى قبر نور الدين.لم يكن بمقدوره أن يتصوّر ما حلّ بهذا الجسد الرائع الذي شوّهته مياه البحر.

لقد أصرّ هو على العثور على جثّة ابن عمّه وصديقه. وبين الجثث المقطّعة الأوصال التي ربما التهمتها أسماك القرش، كانت جثّة نور الدين لا تزال سالمة، ولكن منتفخه.

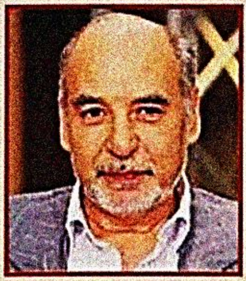

الطّاهر بنجلّون

- كاتب مغربي يكتب بالفرنسيّة، وقد تُرجمت معظم أعماله إلى العربية.
- حازت روايته "ليلة القدر" على جائزة غونكور الفرنسيّة. ويعتبر بنجلّون من أبرز الكتاب الذين ينتظر الفرنسيون صدور أعمالهم.
- ترجمت أعماله إلى عدد كبير من اللغات، وحازت على اهتمام واسع من القرّاء.
- من أعماله: حرودة – ليلة القدر- طفل الرمال- ليلة الغلطة- نزل الفقراء وهذه الرواية " أن ترحل" هي آخر أعماله.

الطاهر بنجلّون

أنْ تَرْحَلَ

رواية

ترجمة
بسّام حجّار

المركز الثقافي العربي

العنوان الأصلي للرواية:
Partir
Tahar Ben Jelloun
© Editions Gallimard 2006

الكتاب
أنْ تَرْحَلَ
تأليف
الطاهر بنجلّون
ترجمة
بسّام حجّار
الطبعة
الأولى، 2007
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-233-X
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء - المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 2303339 - 2307651
فاكس: 2305726 - 2 212+
Email: markaz@wanadoo.net.ma
بيروت - لبنان
ص.ب: 5158 - 113 الحمراء
شارع جاندارك - بناية المقدسي
هاتف: 01750507 - 01352826
فاكس: 01343701 - 961+
www.ccaedition.com
Email: cca@ccaedition.com

صديقي الكاميروني، فلوبير، يقول: إنّي قادِمٌ إذا أراد أن يقول: إنّي راحل؛ ونحن باقون معاً إذا كان مودِّعاً قبل أن يُغادر. تلك كانت حيلتُه في تعزيم القَدَر. وفي هذه الرواية الذين يرحلون لا يفكّرون في العودة، وإذا هَجَروا أحداً مُغادرين فإنّما يهجرون إلى الأبد. فلوبير الذي قرأ على مقاعد الدراسة بضع صفحاتٍ من «مَدام بوفاري» قطع لي عهداً بأنه سيقرأ الرواية كاملةً حين تبدأ عطلة الصيف، إذا قيض لعطلة الصيف أن تبدأ.

1

توتيا

في طنجة، يتحوّل مقهى الحافّة خلال فصل الشتاء إلى مرصَدٍ للأحلام وتَبِعاتِها. وكأنّ قطط المصاطبِ والمقبرة وفرن الخبز الكبير في مرشان تجتمع هناك لكي تشاهدَ العَرْضَ الجاري بصمتٍ ولا يخدعُ أحداً. شيشاتُ الكَيْف الطويلة تُنقَلُ من طاولةٍ إلى طاولة، وأقداح الشاي بالنعناع تبرد مطوّقةً بنَحلاتٍ تسقطُ، في آخر المطاف، فيها ولا يُحرّك الزبائنُ ساكناً لاستغراقهم، منذ بعض الوقتِ، في دُوارِ الحشيش حلمَ يقظةٍ رخيصاً. في مؤخّر إحدى الردهات، رجلان منكبّان على إعداد الوصفة التي تشرع أبواب الرحلة. أحدهما ينتقي الأوراق ويفرمها برشاقةٍ وعزم. لا يرفع أحدٌ منهما رأسه. آخرون يجلسون على حُصُرٍ ساندين ظهورهم إلى الجدار، وعيونهم شاخصة نحو الأفق كأنّهم يقلّبون الأفقَ بحثاً عن أقدارهم. يتطلّعون إلى البحر، إلى الغيوم التي تختلط بالجبال، منتظرين تلألؤ الأنوار الأولى من جهة أسبانيا. يتتبّعونها من دون أن يبصروها، وأحياناً يبصرونها مكتنفة بالضباب والطقسِ الغائم.

جميع من في المقهى يجلسون صامتين. جميعهم يُصغون. لعلّها تظهر هذا المساء، لعلّها تتحدّث إليهم، لعلّها تنشد لهم أغنية الغريق الذي أضحى نجمةً بحرٍ معلّقة فوق المضيق. ميثاقٌ غامض فيما بينهم يقضي بألاّ يسمّوها. فتسميتها هلاكٌ لها، كما أنّها تجرّ وبالاً من اللعنات. لذلك يراقبونها صامتين. كلّ واحد منهم يدلف إلى حلمِه الخاصّ ويشدّ قبضتيه. وحده معلّم الشاي، مالكُ المحلّ، وصبيانه يلبثون خارج هذا السهو، يعدّون أقداح الشاي ويقدّمونها بكثيرٍ من الخفّة والكتمان، متنقّلين بين المصاطب من دون أن يعكّروا حلمَ أحدٍ منهم.

الرجال الجالسون هنا يعرفون بعضهم بعضاً غير أنّهم لا يتبادلون الأحاديث فيما بينهم. معظمهم من أهالي الحيّ نفسه، ولا يملكون إلاّ ما يسدّدون به ثمن قدح الشاي وبيبة الكيف. بعضهم له في القهى حسابٌ لقَيْد ديونه. كأنّهم اتفقوا بعد تداول فيما بينهم، ألاّ ينبسوا ببنت شفة. خاصّة في مثل ذلك الوقت من النهار، في تلك اللحظة الحرجة حيث كيانهم بمجمله يصبو إلى البعيد، مُنصتين إلى أخفّ لطمات الموج أو إلى هدير زورق قديمٍ عائدٍ إلى المرسى. قد يسمع أحدهم أصداء صوتٍ مستغيث. يتبادلون النظرات من دون أن يحرّكوا ساكناً. الظروف مؤاتية لظهورها، لكي تكشفَ عن بعض أسرارها. سماء صافية، سماء شبه بيضاء منعكسة على صفحة مياه رقراقة استحالت منبعاً للضوء. صمتٌ يعمّ أرجاء المقهى، صمتٌ يرين على الأوجه. لعلّ اللحظة الحاسمة قد آنَ أوانها: لعلّها ستتكلّم!

قد يأتي أحدهم على ذكرها تلميحاً، وخاصّة إذا لفظ البحر

أجساد بعض الغرقى. يقولون إنّها اغتنت مرّة أخرى، وهي مدينةٌ لنا ببادرة! لقّبوها «توتيا»، كلمة لا معنى لها، ولكنّهم يُدركون فيما بينهم أنّها تارةً العنكبوت مُلتهمة اللحم البشري، وتارة أخرى المُحسِنة التي تستحيل صوتاً يُنبئهم بما إذا كانت الليلة ليست هي المواتية، وربّما تعيّن عليهم أن يؤجلوا الرحلة إلى يوم آخر.

كالأطفال يصدّقون هذه الحكاية التي تهدهدهم وتنيمهم مُستَندين بظهورهم إلى الجدار الخشن. في أقداح الشاي الكبيرة مالَ النعناع الأخضر إلى السواد. غرقت النحلات في قعرها. ما عادوا يحتسون هذا الشاي الذي مَصَلَ حتّى صار مُرّاً. بواسطة الملعقة يُخرجون النحلات، واحدة تلو الأخرى، من قعر الأقداح، ويصفّونها على الطاولة أمامهم، ويقولون في قرارتهم يا لها من حشرات ضئيلة بائسة، لقد تسبّب الشرَه بغرقها!

كما في حلمٍ عبثيّ ومستمرّ، يرى عازل(*) جسده عارياً بين أجساد عارية أخرى منتفخة من مياه البحر، مشوّه الوجه بفعلِ الانتظار والملح، وقد لوّح وهج الشمس بشرته المفلّعة عند منبت الذراعين وكأنّ شجاراً وقع قبل الغرق. تزداد الصورة وضوحاً أمام عينيه إذ يلمحه في زورق مطليّ بالأبيض والأزرق، زورق صيّاد مبتعدٍ ببطء لا يوصف باتجاه وسط البحر، ذلك لأنّ عازل قد قرّر أنّ البحر الذي يراه له مركز وأنّ هذا المركز هو دائرة خضراء، مقبرةٌ حيث يستولي التيّارُ على الجثث ليغوص بها إلى الأعماق، قبل أن تلفظها الأعماق على رصيفٍ من الطحالب. يعلم أنّ هناك، داخل تلك الدائرة بالذات، يوجد حدّ متحرّك،

(*) اسم التحبّب من عزّ العرب (المترجم).

أشبه بخطّ فاصلٍ بين مياهَين، مياه المتوسّط الهادئة المستكينة، ومياه الأطلسي الهادرة المُزبدة. يسدّ بإصبعين أنفه، فلشدّة ما حدّق بهذه الصور، اشتمّ رائحة الموت، رائحة خانقة تنتشر في الأرجاء مسبّبةً له الغثيان. عندما يغمض عينيه، يلوح الموتُ راقصاً حول الطاولة التي اعتاد الجلوس إليها كلّ يوم لكي يشاهد غروب الشمس ويُحصي أولى الأنوار المتلألئة أمامه، على الشواطئ الأسبانية. ينضمّ إليه رفاقه فيلعبون الورق بصمت. فعلى الرغم من أنّ بعضهم يهجس مثله بالرحيلِ ذات يوم عن البلاد، فإنّهم يعلمون، بعد ما سمعوه ذات ليلة بصوت «توتيا»، أنّه لا ينبغي لهم أن يهجسوا بصورٍ تُشيع الألمَ في محيطهم.

لا ينبس بكلمة لا عن خطّته ولا عن حلمه. يرونه مشدود الأعصاب، تعساً، فيقولون إنّه متيّم بحبّ امرأة متزوجة. تُعزى إليه مغامرات عاطفيّة مع أجنبيات، ويسود اعتقاد بأنّه يعاشرهنّ لغرض مساعدته على الخروج من المغرب. طبعاً هو يُنكر الأمر ويضحك. لكنّ فكرة السفر بحراً، فكرة امتطاء حصان مطليّ بالأخضر واجتياز بحر المضيق، لا تفارقه فكرةُ أن يستحيلَ ظلاً شفيفاً، غير مرئيّ إلاّ في ضوء النهار، صورةً مبحرةً بسرعةٍ هائلة فوق اللجّة. يحتفظ بها لنفسِه، ولا يحدّث عنها لا أخته كنزة ولا أمّه التي تبدي قلقها إزاء نحوله المتزايد وكثرة تدخينه.

هو أيضاً صدّق في آخر الأمر الحكايةَ، حكاية تلك التي ستظهر ذات يوم وتعبر بهم، واحداً واحداً، تلك المسافة التي تفصل بينهم وبين الحياة، الحياة الحلوة، أو بينهم وبين الموت.

2

العافية

كلّما هَجَر هذا الصمت حيثُ لا يطغى حضورٌ، ينتابه البرد. وسواء كان الفصل صيفاً أو شتاءً تسري في بدنه رعشةٌ طفيفة. تلحّ عليه الحاجةُ إلى الابتعاد عن الليل، ويرفض أن يلجه. يسير في أنحاء المدينة، لا يُخاطبُ أحداً، متخيّلاً نفسَه خيّاطاً، حائك أثوابٍ من صنفٍ عجيب، خائطاً الأزقّة بالجادات العريضة بخيطٍ أبيض على غرار ما جاء في القصّة التي طالما ردّدتها أمّه على مسامعه حين كان يجافيه النوم. كان يودّ أن يعلم ما إذا كانت طنجة جلاّبية رجل أو قفطان عروس، غير أنّ ما بلغته المدينة من اتساعٍ في أنحائها بدّد الفكرة من رأسِه.

في تلك الليلة من ليالي شهر شباط/فبراير 1995، عقد العزمَ على التخلّي عن مهنة الخياطة، لاقتناعه بأنّ طنجة لم تعد ثوباً بل غطاء صوفٍ صناعيّ من تلك التي يحملها المهاجرون معهم من بلجيكا. وكانت المدينة مُستترةً تحت هذا النسيج الذي يحفظ الحرّ ولا يبدّد الرطوبة. فالمدينة لم يعد لها شكلٌ، أو مركز، بل أضحت ساحات ليست مستديرة تماماً حيث حلّت

السيارات محلّ الفلاّحات الوافدات من فحص لبيع الخضار والفاكهة.

كانت المدينة تتغير والجدران تتصدّع.

توقّف أمام «الوسكي آ غوغو»، وهي حانة في شارع «ولي العهد» يُديرها زوجان ألمانيان. تردّد برهةً قبل أن يدفع الباب. فهو من طينة الرجال المؤمنين أنّه لن يُصيبهم إلاّ ما كُتِبَ لهم، ولعلّه كُتِبَ في الكتاب السماوي العظيم، لكنّه مكتوب بأية حال. لن يُصيبه إلاّ ما ينبغي له أن يصيبه. وحريّته أضيق من خرم الإبرة. على الرغم مما كانت أمّه تردّده على مسامعه تكراراً، كان يحلو له أحياناً أن يتصدّى لهذه القدريّة بالفعل. إذ يختار أحياناً أن يسلك طريقاً مغايرة لتلك التي اعتاد أن يسلكها رغبة منه في معاندة القدر. رغبة مماثلة راودته تلك الليلة حين وقف متردّداً لبرهة أمام باب الحانة، أشبه بحَدْس، رغبة جامحة في استباق قدره.

سكونٌ غير معتاد كان يخيّم على أجواء الحانة. رجال يحتسون الشرابَ إلى البار. ومُستشقرةٌ وراءَه تملأ الكؤوس. وراء الصندوق وقف أحد الزوجين الألمانيين، عابساً.

في أرجاء الصالة، رجالٌ مستوحدون أمام قنانيهم. جوّ كئيب ومعتم. توقّف عازل عندما لمحَ، إلى البار، رجلاً رَبع القامة سميناً يحتسي شراباً غازياً. لمحه من الخلف، ظهره العريض المربّع، وقذالَه السميك. عرفه على الفور وقال في سرّه مالاباطه! إنّه هو، الزعيم، الرهيب، القويّ، الصموت، البلا

قلب. وكانوا يلقّبونه العافية(*). اشتهر بكونه مُعَبّراً، أي المهرّب الذي يكدّس في زوارق مهاجرين غير شرعيين عازمين على عبور المحيط، فيضرمون النار في وثائقهم وأوراقهم الثبوتيّة لكي لا يتمّ ترحيلهم مجدداً، إذا ما ضبطوا، إلى بلادهم.

لا متّسعَ للأحاسيس في دخيلة العافية. فلطالما عملَ هذا الوافد من جبال الريف في مجال التهريب. كان في صغره يذهب ليلاً برفقة عمّه إلى حيث ترسو المراكبُ في الحسيمة لتحميل البضائع. يُطلَبُ منه مراقبة الأنحاء تحسّباً، مزهواً بحملِه المنظار الذي يستخدمه ببراعة مثلما يراقبُ قائد الفيالق الأفق بمنظاره. لم يعرف جيّداً أباه الذي قُتِلَ في حادث شاحنة. فرعاه العمّ وأفلح في جعله أحد أعوانه الخُلَّص. وعند وفاة راعيه كان من الطبيعيّ أن يَخْلِفه. فهو الوحيد المؤتمَن على حسن سير الأمور، ويعرِف إلى من يلجأ وقتَ الشدّة، وبمن يتصل في أوروبا حافظاً أرقام الهواتف عن ظهر قلب، وأي الأسر سوف يُعيل لأنّ ربّها، سواء كان أباً أو عمّاً أو أخاً شقيقاً، في السجن. كان لا يخشى أحداً ولا يُعنى إلاّ بشؤونه، حتّى قيل عنه إنّه لفرط ما حفظ أسراراً أضحى مثلُه مَثَلَ الخزنة الجوّالة.

عقب احتسائه عدداً من قناني البيرة، خاطبه عازِل صائحاً كأنّه يُشهِد الحاضرين على ما يقول: أنظروا هذا الكرش، إنّه كرش الفساد، أنظروا هذا العنق، إنّه عنق اللؤم المتأصّل في هذا الرجل، طبيعي أن يشتري ذِمَمَ الناس جميعاً، فالبلدُ حقّاً سوقٌ

(*) في مقول أهل المغرب العربيّ: العافية هي النار، كناية عن جهنّم. (المترجم)

مفتوحة أربعاً وعشرين على أربع وعشرين، وكلّ من فيها معروض للبيع، لا يحتاج المرء إلاّ لقليل من النفوذ، والنفوذ له ثمن مرقوم، ليس باهظاً، شروى بضع زجاجات من الوسكي، وأمسية في فراش مومس، أمّا الكبائر فقد يكون ثمنها باهظاً، وتنتقل الأموال من يد إلى يد، هل تريدني أن أغضّ الطرفَ، قل لي متى وفي أي ساعة، ولن تواجه مشكلة، يا أخي، هل تحتاج إلى توقيع، ختمٍ صغير أسفل هذه الورقة، لا بأس، مُرَّ بي، أو إذا كنت تأنف مشقّة الانتقال، إبعث لي بسائقك، ذي العين الوحيدة، ولن يبصر بها إلاّ النار، بلى، يا أصدقائي، هوذا المغرب، ثَمَّ فيها من يكدحون كالممسوسين، يعملون لأنهم اختاروا الاستقامة، وهؤلاء يعملون في الظلّ، لا أحد يراهم، ولا أحد يأتي على ذكرهم، بينما هم يستحقّون النياشين، لأنّ استقامتهم هي التي تُبقي البلدَ حياً. كماً فيها الآخرون، وهم كثرٌ، في كلّ موضع وناحية، في جميع الوزارات، لأنّ الفساد في بلادنا العزيزة هو الهواء الذي نتنشّقه، بلى، الفساد ينضح من مسامنا، هو على وجوهنا، وفي رؤوسنا، وهو كامنٌ في قلوبنا، أو في قلوبكم، بأية حال، وإذا كنتم لا تصدقّون ما أقول اسألوا الكرش النتِن، الجالس هنا، الأقرع، الخزنة المصفّحة، علبة الأسرار، ذاك الذي يحتسي شراباً غازياً لأنّ السيّد مسلمٌ صالح، لا يقرب الكحول، ويحجّ غالباً إلى مكّة، بلى، إنّه حاج وأنا رائد فضاء، أنا في الصواريخ، هارباً نحو الفضاء، فلم تعد لي رغبة في العيش على هذه الأرض، في هذا البلد، كلّ شيء مزيّف، وكلّ الناس يتدبّرون أمورهم كيفما اتفق، وأنا أرفض أن

أكون مثلهم، لقد درست الحقوق في بلد يجهل الحقوق متظاهراً بفرض احترام القوانين، هراء، هنا عليك أن تحترم المتنفّذين، لا أكثر، فيما تبقّى سيكون عليك أن تتدبّر شؤونك بنفسك. . . أمّا أنتَ، يا محمد أوغَلي، فلست سوى لص، زامل. . . عطّاي. . .

كان عازل يصيح بأعلى صوته. أحد رجال التحرّي كان جالساً في الحانة في حالٍ من السكر الشديد، اقترب من العافية وهمسَ في أذنه قائلاً: دعه لي، سوف ألاحقه بدعوى المسّ بأمن الدولة، الد. . ولة. . . لة. . . لة. . . لة. . .

وكان على العافية أن يُسكِتَ هذا الموتور النكرة. رجاله ينتظرون منه إشارة. فنظر باتجاه عازل. وسرعان ما انقضّ عليه رجلان ورميا به خارجاً منهالَيْن عليه بالضرب. أحدهما خاطبه قائلاً:

- واضح أنك تبذل ما بوسعك لإغضاب الريّس، كأنّك تسعى للحاق برفيقك!

رفيق عازل هو ابن عمّه، نور الدين، الذي كان يعتبره أخاً له ويريد تزويجه من أخته كنزة؛ نور الدين كان قد غرق خلال إبحار ليليّ لأنّ رجال العافية حمّلوا المراكب ما يفوق سعتها من المهاجرين. أربعة وعشرون غريقاً حصيلة تلك الليلة من ليالي تشرين الأول/أكتوبر والتي تذرّعت فيها وحدات خفر السواحل في ألميريا بأنّ عاصفة حالت دون تدخّلها لإغاثة المنكوبين.

طبعاً أنكر العافية أنّه تقاضى مالاً مع أن عازل كان شاهداً عندما أعطاه نور الدين عشرين ألف درهم. كان في ذمّة الرجل أعدادٌ من القتلى، ولكن أيّ ذمة؟ أعماله مزدهرة في أكثر من مجال، ويقطن دارةً واسعةً في ناحية القصر الصغير، على شاطئ المتوسّط، وهي عبارة عن ملاذ حصين يكدّس فيه أكياس الخيش المحشوة بالعملات الورقيّة. كما كان يتردّد على الألسن آنّه متزوج من امرأتين، إحداهما أسبانية والثانية مغربيّة. تعيشان في الدارة نفسها. لم يلمحهما أحدٌ من قبل. ولأنّ تهريب الكيف ليس نشاطاً كافياً لتلبيّة أطماعه كان يعمد، كلّ أسبوعين، إلى تكديس بائسين راغبين في العبور إلى أسبانيا في مراكب قديمة غير صالحة للملاحة. ويحرص على التغيّب ليلة الرحيل. إذ يتولّى أحد رجاله، مرافق شخصيّ، أو قبضاي أو سائقٌ من سائقيه الكثر، مهمّة الإشراف على تحميل المراكب. ولا يتولّى أحد هؤلاء المهمّة مرتين. كان له سماسرته ومخبروه ورجال شرطة متعاملون معه. ويقول إنهم «رجاله». بين الفينة والفينة كانت سلطات الرباط توعز لثلّة من الجيش بتوقيف الزوارق ومعبّريها. وفي حالة كهذه لا تبلّغ شرطة طنجة بما يجري. لذلك جرى اعتقال عدد من رجال العافية وسجنوا. وطوال فترة سجنهم في طنجة كان يتولاّهم كأبناءٍ له، فيوفّر لهم وجبات الطعام ويرعى شؤون أسرهم. إذ كانت له وسائله الخاصّة في التعاطي مع إدارة السجن في طنجة، فهو على صلة بمديره وبعدد من الحرّاس الذين اعتادوا تلقي الرشوة منه حتّى لو لم يكن أحد من رجاله نزيل السجن.

اشتُهِرَ بكونِه سيّد أساليب الفساد، خبيراً بطباعِ الناس جميعاً، عليماً بنقاط ضعفهم واحتياجاتهم، بارعاً في الاحتيال على المستويات كافّة، لا يُهملُ تفصيلاً في طوية الناس. كأنّه ضليعٌ في علمِ نجهله. ومع ذلك لم ينل العافية من التعليمِ سوى قراءة الأرقامِ. وكلّ ما عدا ذلك يدعه لعناية معاونين من ذوي الكفاءة في مجالاتهم، مخلصين له، معتمداً لهجة الريف في التعامل معهم وبضع عبارات أسبانية. كان مَنْ حوله يرون أنّه رجل سخيّ، «عطوف»، صاحب «الدارة الواسعة»، «ملاذ الخير»، وغيره. إذ يغدق على هذا من الناس برحلة حجّ إلى مكّة، وعلى ذاك بقطعة أرض أو سيّارة أجنبيّة (مسروقة، بطبيعة الحال) وعلى آخر بساعة يد ذهبيّة، قائلاً له: «هذه حلية متواضعة لزوجتك»، كما كان يتكفّل بتكاليف الطبابة لجميع رجاله وأسرهم، أمّا الشراب فيُقدّمُ مساءً للجميع بلا استثناء، على حسابه، في الحانة التي أضحت مع الوقت مقرّاً لقيادة أعماله.

3

عازل والعافية

كانت العلاقة بين عازل والعافية أشبه بحربٍ معلنة منذ زمن طويل. منذ ما قبل وفاة نور الدين، كان عازل قد عقد العزم على الرحيل ذات ليلة، وسدّد للمعبِّر المبلغ المطلوب. ولكن ألغيت الرحلة في اللحظة الأخيرة، ولم يتمكّن عازل من استرداد مالَه. كان يعلم جيّداً أنّه، بمفرده، لن يقدر على مجابهة هذا الغول، المرهوب الجانب، والمحبوب، أو الأحرى المحميّ من قبل المتنعّمين بسخائه. فلا يسعه، بين الفينة والفينة، إلاّ أن يصبّ عليه جامَ غضبه المكنون، بعد احتسائه عدداً من قناني البيرة، شاتماً، ناعتاً إيّاه بشتّى النعوت المستقبحة. وكان العافية غالباً ما يوليه أذناً صمّاء غير مكترثٍ به حتّى ذلك المساء عندما ناداه باسمه الحقيقيّ ووصفه بالـ«زامل»، أي مَن يُمارَس عليه اللواط. قمّة العار! أي أنّ هذا الرجل المتنفّذ، المُحسِن، ينبطح لكي يُلاط! طفح الكيل، لقد تعدّى هذا الفتى حدوده. ولا بدّ من تأديبه:

– هه أنتَ يا مثقف الغفلة، أنت محظوظ فعلاً لأننا هنا لا

نعشق الغلمان وإلاّ لَنِلتَ منّا ما تستحقّ من زمان! تبصق على بلدك، وتشتمه، كُن على ثقة أنّ الشرطة ستتولّى أمرك وسوف تذوّب بدنك بالأسيد.

كان عازل قد أنهى دراسة الحقوق. حظي بمنحة من الدولة لأنّه نال امتيازاً في شهادة البكالوريا. ولم يكن أهله قادرين على تحمّل تكاليف الدراسة. وكان اتكاله على وظيفة محامٍ في مكتب محاماة كان عمّه قد افتتحه في العرائش حيث يعمل. ولكنّه فقد زبائنه على أثر قضيّة معقّدة، وأغلق المكتب. والحقيقة أن معظم زبائنه ابتعدوا عنه لأنه كان يرفض اتباع الوسائل التي يتبعها الجميع، الأمر الذي نالَ من سمعته وصيته: «لا تلجأ إلى الأستاذ العوالي، فهو مبالغ في استقامته، ولا يقبل التسويات، ولذلك لا يفوز بأي من قضاياه!» وعندئذ أدرك عازل أنّ مستقبله بات على المحكّ وأنّه لن يجد عملاً من دون واسطة. أمثاله كانوا كثراً. لذلك شارك في اعتصام حاملي الشهادات العاطلين عن العمل أمام مبنى البرلمان في الرباط. وبمضيّ شهر على الاعتصام لم يتغيّر شيء فاستقل حافلة النقل العام عائداً إلى طنجة وصمّم على الرحيل عن هذا البلد. لا بل راح يتخيّل نفسه ضحيّة حادث مفاجئ وهو في طريق العودة حيث يقضي فتنتهي حياته على هذا النحو من دون طائل. كان يتخيّل نفسه ميتاً، وأمّه وأخته تندبانه نائحتين، ويسمع رفاقه يترحّمون عليه قائلين: إنّه ضحية البطالة؛ ضحية عجز النظام؛ كان فتى لامعاً، متعلّماً، رقيق الحاشية، كريماً، وكان من سوء طالعه أن يستقلّ هذه

الحافلة اللعينة ذات العجلات الحائلة والتي يقودها سائق مصاب بمرض السكّري فقد الوعي عند أحد المنعطفات. . . مسكين عازل، لم يعش، لقد بذل المستطاع لكي ينجو، ألم أقل لك إنّه لو استطاع أن يهاجر إلى أسبانيا لكان اليوم محامياً لامعاً أو أستاذاً جامعياً!

فرك عازل عينيه. ثمّ نهض وسأل السائق إذا كان مصاباً بمرض السكّري.

- أعوذ بالله! صحّتي والحمد لله على أحسن حال، وما اتكالي إلاّ على الله. لِمَ تسأل؟

- مجرّد فضول. لقد قرأت في إحدى المجلاّت أن مغربياً واحداً من كلّ سبعة مصابٌ بالسكري. . .

- اطمئن إذاً، لا ينبغي للمرء أن يصدّق ما تنشره الصحف.

الرحيل عن البلد. كان هاجسه الدائم، ضرباً من الجنون يعتمل في رأسه ليل نهار. كيف السبيل إلى النجاة من هذا الوضع البائس، وما العمل للخلاص من هذا الذلّ؟ أن يرحل، أن يغادر هذه الأرض التي تتنكّر لأبنائها، أن يولي بلداً بمثل هذا الجمال ظهرَه، ويعود إليه ذات يوم عزيز النفس وربّما ثرياً، أن يرحل لكي ينجو بنفسِه، حتّى لو كانت المخاطرة بها هي السبيل إلى ذلك. . . يُطيل التفكير في ما جرى ولا يفهم لِمَ آلت الأمور إلى ما آلت إليه؛ ثمّ سرعان ما اشتدّ عليه هاجسه هذا حتّى صار أشبه باللعنة التي تطارده. كان يشعر بأنه مضطهَد، ملعون، ومقدّرٌ له على الدوام أن يخرج من نفقٍ ليصطدم بجدار. وكان

كلّ ما فيه، حيويته، قوته البدنيّة، جسمه المتعافي، يزداد تردياً يوماً بعد يوم. بعض رفاقه لجأ إلى الدِينِ لتلطيف يأسِه، وأضحى كثيرٌ منهم من المداومين على ارتياد المساجد. أمّا هو فلم يجد في الدين عزاء. كان فتىً مولعاً بالفتيات والشراب. طبعاً جاء من قِبَلهم من حاول التأثير عليه وأغدق بوعود العملِ حتّى والأسفار. ولم يكن قاصده ملتحياً، بل راح يحادثه بفرنسيّة متقنةٍ عن مستقبل المغرب، موضحاً أنّ المغرب الذي يقصده هو «المغربُ التائبُ إلى الإسلام، والاستقامة، والصدق والعدالة».

كان للمتديّن غير الملتحي عرّةٌ لا يستطيع معها إلاّ أن يغمز بعصبيّة بكلتا عينيه معضعضاً شفته السفلى. وكان عازل يكتم الضحكةَ في صدره متظاهراً بالإصغاء. وراح يتخيّله عارياً كما خلقه الله، راكضاً في الصحراء. وسرعان ما طغت هذه الصورة على مخيّلته. فجأة بدا الرجل سخيفاً في عينيه وما عاد مكترثاً لما يقول. فبئس الموعظة تلقى على مسامعه، هو الذي لا يجد معظم ملذّاته إلاّ في محرّمات الدين، فرفض عروض المتديّن ذي العرّة بحزم، مُدركاً في آخر الأمر أنّ مُحادثَه ليس سوى داعية لقضايا مشبوهة. طبعاً كان يسعه القبول لكسب بعض المال، غير أنّ خشيةً ما استبدّت بروعه، أشبه بحدسٍ غامض، مستذكراً قصّة أحد جيرانه الذي انضمّ إلى مجموعة مجاهدين واختفى كلّ أثرٍ له منذ ذلك الحين. كان ذلك في غضون الفترة التي شهدت رحيل عدد كبير من الناس إلى ليبيا أو أفغانستان للجهاد ضدّ الشيوعيين الروس الكفّار.

بمضيّ ستة أشهر عاود الداعية محاولته. فدعاه إلى العشاء

«فقط لتبادل أطراف الحديث». لكن عازل لم يستطع أن يقتنع بجديّة هذا الرجل الذي، برغم عزّته، كان يُفلِح في هداية «الضالين». ومع ذلك كان أسلوبه في مقاربة الناس يثير فضوله، وكذلك منطق خطابه، ويسعى لأن يعرف منه مَن يقود هذه الحركة. غير أن المناورات لم تنطلِ على الداعية. فراحَ يستبق الأسئلة ويجيب عنها بكثير من الحنكة. ثمّ أسرّ إلى عازلٍ كمن يسرّ إلى صديق مقرّب قائلاً:

– لقد درستُ الآداب، حتّى أنني حصلت على شهادة الدكتوراه من جامعة السوربون؛ ولدى عودتي إلى المغرب عملت في تدريس الأدب الفرنسي ثمّ عُيّنتُ مفتّشاً. جبتُ أنحاء البلاد كلّها، وشهدتُ ما لم يشهده أمثالك، وسمعتُ ما تلهج به ألسن الناس في أكثريّتهم الساحقة. لم أتعرّض لغسل دماغ على يد أحد من الناس، ولستُ ضالاً، لا، فأنا أعي جيّداً ما أريد. لقد أخفقت الأحزاب السياسيّة إخفاقاً ذريعاً، ولم يُحسن أيّ منها أن يصغي لما يقوله الشعب. أداروا الأذن الصمّاء. وأخصّ باللوم الاشتراكيين الذين آمنوا بالتناوب ولعبوا لعبة السلطة ولم يفعلوا شيئاً لكي تتبدّل الأمور. الملك استغلّهم وهم انصاعوا للعبته.

سَكَت لبعض الوقت، وحدّقَ مباشرةً بعيني عازل، ثمّ وضع يده على كتفه، وعضّ شفته من دون أن تغمز عيناه هذه المرّة، وأردف قائلاً:

– لا أحد من بين الزعماء يحترم دعوةَ الإسلام. إنّهم يستغلّونها لكنّهم لا يطبّقونها. أمّا نحن فمشروعنا هو بالضبط أن

نتصرّف على نحوٍ مختلف. نحن ندرك ما يصبو إليه الشعب: العيش بكرامة.

سَكَتَ ثانيةً، وتمخّط لَجَباً كأنّما يود بذلك أن يُخفي عرّته. وفي تلك اللحظة راح عازل يحدّق به، ومجدّداً تخيّله عارياً في حظيرة يطارده عتعيتٌ أسود. راكضاً مستنجداً مُستجيراً. غير أن الرجل يمسك به ويصفعه مرّتين مقهقهاً.

كان الداعية يسترسلُ في هذِره المتّصلِ المكرور، بينما يشرد عازل بأفكارِه بعيداً عنه. إنّه الآن جالس على شرفة أحد المقاهي الكبرى في بلازا مايور بمدريد. الطقس جميل والناس مُشرِقون بحبورهم، وسائحة ألمانية شابّة ضلّت سبيلَها تسأل عن الوجهة الصحيحة، فيدعوها إلى شرابٍ بصحبته... لكنّ صوت الداعية يعلو فجأةً ويُعيده إلى طنجة:

- من غير المقبول إطلاقاً أن يقصد مريضٌ أحد مستشفيات الحكومة ولا يحظى بالعناية التي يحتاجها لأنّ المستشفى لا تتوفّر فيها الإمكانيات اللازمة. ولذلك نتدخّل نحن، وعلى نحوٍ ملموس، حيث تعجز الدولة. تضامننا مع الناس ليس انتقائياً. يجب إنقاذ هذا البلد. ففيه الكثير الكثير من التسويات والفساد والظلم والتفاوت الاجتماعي. لا أدّعي أننا نجد حلولاً لكلّ المشكلات غير أننا لا نقف مكتوفي الأيدي ريثما تبادر الحكومة إلى خدمة المواطنين. لقد أتخمتني الثقافة الفرنسيّة، ثقافة الحقّ والقانون، ثقافة العدالة واحترام الآخرين. لكنّي وجدتُ في الإسلام، في نصوصه المقدّسة كما وجدت في نصوص الثقافة العربيّة في عصرها الذهبي ما يوافق مبادئ الأنوار هذه. جلّ ما

أريده هو أن تفتح عينيك جيّداً وأن تمنح حياتك معنىً.

ردّد هذه العبارة مراراً، شاعراً بعدم اكتراث عازل لموعظته.

- أنا أعلم أنّك كالكثيرين من أترابك المهجوسين بفكرة الرحيل، بفكرة مغادرة البلاد. هذا حلّ سهل لكنّه محفوف بالمخاطر. أوروبا لا تريدنا. والإسلام يُخيفها. والتمييز العنصري هو السائد فيها. يُخيّل إليك أنّك بالهجرة تجد حلاً لمشكلتك، ولكن ما إن تطأ قدماك تلك الأرض، هذا إذا كتبت لك النجاة وأنت تحاول، حتّى تفتقد بلادك وثقافتك ودينك. نحن نعارض الهجرة، شرعيّةً كانت أو غير شرعيّة، لأنّ مشكلاتنا تتطلّب حلولاً منّا هنا الآن، ولا نتّكل على الآخرين لإيجاد حلولٍ لها بدلاً منّا. مرّة أخرى أقول لك، أنا لا أزعم بأنّ الدين هو الحلّ لجميع مشكلاتنا. لا، الدين ثقة تكتسبها، ثقة بالنفس تفتح لك أبواب الحلول.

كان الرجل قد سيطر على تشنّجات وجهه وبدأ عازل يصغي إليه بشيء من الاهتمام. ومع ذلك لم يكن قادراً على تمالك نفسِه من التفكير في الحياة التي قد يحظى بها بعيداً من هنا. ثمّ طغت فجأة على تفكيره صورة صديقه المفقود، محمّد العربي. ما الجدوى من إثارة موضوع هذا الرجل ومصيره مع الداعية فالأرجح أنّه جُنّد من قبل منظمة إسلامية. يشعر عازل برغبة في احتساء كأس من النبيذ، غير أنّ المطعم لا يقدّم النبيذ للمغاربة. وما كان الداعية ليرضى بأية حالٍ عن أمرٍ مماثل. كان عازل يرغب بشدّة في استفزازه، كأن يقول له إنّ الدينَ ينبغي أن يبقى بعيداً عن السياسة، وإنّ الواجب يقضي بتحسين أحوال الناس

دون أن يُرغموا على ارتياد المساجد. لكنّ الداعية فاجأه باقتراحه عليه أن يعطي دروساً في الحقوق في مدرسة خاصّة يُديرها هو. أغواه الاقتراح لبرهةٍ برغم الراتب الزهيد. غير أنّه عدل عن الفكرة تماماً حين أفهمه الداعية أنّه سيوفد، بين الحين والحين، في مهمّةٍ إلى بلدان لا يحتاج المغاربة إلى تأشيرة لدخولها. كانت رغبته في الهجرة أقوى من أي شيء. ولمّا افترقا تعاهدا على البقاء على اتصال، ثمّ أردف الداعية قائلاً:

- إذا أفلحت يوماً في تخطّي الأعين الأسبانية الساهرة، أخطرني على الفور، وسوف أتدبّر لك صلةً بأصدقاء موثوقين هناك.

ومجدّداً تخيّله عازل عارياً في حمّام تدلّك جسمَه يدا مُدلّك.

4

نور الدين

في الليلة التالية، لم يغمض لعازل جفن. ما سبب هذا الهَوَس في مغادرة المغرب؟ ما مصدر هذه الفكرة؟ ما سبب إلحاحها، ما سبب تردّدها في رأسه بعنف؟ كانت أفكاره تخيفُه، متردّداً بين تلك الرغبة الطاغية في الرحيل وبين عروض الداعية التي يعجز عن رفضها على نحوٍ حاسم. وكان أرقه يضخّم حيرته تلك إلى حدود مُفزِعة. نهض من فراشه حريصاً على عدم إزعاج أفراد الأسرة النائمين، وخرج إلى الشرفة المطلّة على مقبرة مرشان. نورٌ بهيّ مفضّض يُنير البحرَ جاعلاً صفحة مياهه أشبه بمرآة بيضاء. راح يعدّ القبور لكي يهتدي، من بُعدٍ، إلى قبر نور الدين. لم يكن بمقدوره أن يتصوّر ما حلّ بهذا الجسد الغَضّ الذي شوهّته مياه البحر. لقد أصر هو على العثور على جثّة ابن عمّه وصديقه. وبين الجثث المقطّعة الأوصال التي ربّما التهمتها أسماك القرش، كانت جثّة نور الدين لا تزال سالمة، ولكن منتفخة. من حوله كان أهل الضحايا ينتحبون فبعضهم لم يكن عالماً أصلاً بمحاولة العبور تلك. شاهد عازل أيضاً ثلاث جثث

أخرى لامرأتين وطفل وقد غطّيَت بنسيج أبيض. في تلك الأثناء دخل الوالي إلى المشرحة، عصبيّ المزاج متأثّراً بعض الشيء. كان يصيح بأعلى صوته: كفى! كفى! أنتم تعالوا، صوّروا هذه الجثث! يجب أن يشاهد المغرب بأسره هذه المأساة! ويجب أن تعرض الصور في نشرة أخبار المساء. ولا بأس إن صدّت الصور شهيّةَ الناس! كفى! Basta! كفانا! يجب أن تتوقّف هذه المأساة. المغرب يفقد نُسغَه، شبابه! أين مدير الشرطة؟ استدعوه فوراً! يجب أن تحاصَر الشواطئ!

لم ينسَ عازل شيئاً من ذلك المشهد ولا من الروائح الخانقة المنبعثة من تلك الأجساد التي كانت، لأيام قليلة خَلَت، زاخرةً بالتوقِ إلى حياة أفضل. ولن ينسى ما بقيَ حياً عيني نور الدين البيضاوين ولا كفّه اليُمنى القابضة على مفتاح. في صغرِه لطالما شعر عازل بفزعٍ شديد حيال الموت وحيال كلّ ما يمت إلى الموت بصلة. كان يُميّز من بعيد غاسلي الموتى لكي لا يُضطرّ إلى مصافحتهم أو مشاركتهم الطعام في طبقٍ واحد. وكم كان يمقت بخور الجنّة ذاك الذي يُحرَق بجوار الجثامين. حتّى أنّه لطالما رفض أن يرى وجه مَيت. كان الأمر يفوق طاقته واحتماله، إذ ينتابه هَلَعٌ لا تفسير له، أشبه بالخوف المَرَضي الذي يستبدّ به. يومَ دفن جدّه وكان هو في العاشرة من عمره، هُرِعَ إلى دار الجيران لكي يختبئ مقتنعاً بأنّ الموت مُعدٍ وأنّ خَياله سوف يأتيه ليلاً لكي يكفّنه بردائه. لعلّ تعاطيه مع الأمور لدى مقتل نور الدين أنساه خوفه للمرّة الأولى. فتولّى إنجاز كلّ

الإجراءات الإدارية لاسترداد جثمانه، وإعادته إلى الديار. فوقْعُ النبأ كان مُدمّراً على أفراد الأسرة، فصاروا مشلولي الحركة منتحبين لا يصدّقون أن ما جرى قد جرى حقاً. لم يكن من حقّ كنزة المجلببة بالبياض أن تشهد الدفن. فعلى النساء أن يلزمن الدار. تلك هي التقاليد. كانت تُعْوِلُ ألمَها، باكيةً ابن عمّها وخطيبها في وقتٍ معاً، وفي العويل أيضاً حسرةٌ على مصيرِها. كان لا بدّ من دفن نور الدين في اليوم ذاته نظراً لتحلّل الجثة. وقد أذهل عازل الجميع بقدرته على التصرّفِ. كان الطُلبة، أو قرّاء القرآن، المجتمعون في حجرة الاستقبال الضيّقة، يقرأون الكتاب الكريم بصمتٍ ويُرتّلون معاً بعض الصلوات. قبل بلوغه المقبرة، توقّف الموكب عند جامع الحيّ. صاح أحدهم بأعلى صوته: «جنازة رجل». فأقيمت صلاة الميت على جثمانه المكفّن بقماشٍ أبيض مطرّز بالأخضر والأسود. ولم تمض دقائق قليلة حتّى حُمِلَ على سواعد عازل وثلاثةٍ من الأصدقاء الآخرين إلى القبر. راح الطُلبةُ يتلون الصلوات مودّعين الجثمان قبل أن يوضع في حفرةٍ على قدرٍ من الضيق ويُغطّى ببلاطة ثمّ يوارى في الثرى. جرت المراسمُ بسرعة. ثمّ عمدت الأسرة إلى توزيع الخبز والتين اليابس على الطلبة والمتسوّلين. وقف عازل إلى جانب أفراد الأسرة لتلقّي التعازي معهم. كان يبكي. راح بعض المعزّين يواسيه ويحثّه على التخلّي عن غضبِه لعلّه يسلك سبيل الحكمة والصبر. أمّا هو فكان يُصغي إلى تلك العبارات التي تتردّد عادةً في مثل هذه المناسبات ولا تؤخَذ على محمل الجدّ. إذ يستحيل ان ينسى

صديقه ويستحيل على الأخصّ ألاّ يجد وسيلة لكي يثأر له بطريقةٍ أو بأخرى.

دخّن سيكارة وعاد إلى بيته متسلّلاً على أصابع رجليه لكي ينام. عاودته الأسئلة المحيّرة بشأن اختفاء محمد العربي، رفيقه الذي جنّده الإسلاميون على أغلب الظن. لكنّ والد محمد العربي كان يُردّد دائماً أنّ مثل هذا الاحتمال مستحيل. ويؤكّد قائلاً إنّ ابنه كان كافراً لا يصوم شهر رمضان ويعاقر الخمرة، حتّى أنّه كان مأساة حقيقية لأهلِه وجيرانه. وكان ضابط الشرطة يردّ عليه شارِحاً أنّ هذا النمط من الناس هو الذي يثير اهتمامهم بالضبط. فلديهم وسائل كثيرة لإقناعه. وعندما يصبح واحداً منهم، يُرسلونه في دورةٍ تدريبيّة إلى أحد البلدان الإسلامية، كباكستان أو أفغانستان، يزوّدونه بجواز سفر وتأشيرات دخول، مزوّرة طبعاً، ولكن من أين له هو أن يعلم، وما إن يصل إلى هناك حتّى يتولاّه فريق آخر، أكثر تشدّداً، وتغدو الأمور أوضح، فالمطلوب هو القيام بثورة لتطهير البلدان الإسلامية من الكفّار المحليين والأجانب، ولن يستغرق كلّ هذا أكثر من ثلاثة إلى ستة أشهر، فغسل الدماغ لا يتمّ على الفور، ففي الوقت متّسع يُطبّقون خلاله أساليبهم المتطوّرة جداً في التعبئة والإقناع، إنّهم خبراء، منظّمون، ويعملون في ظلّ هيكليّة متقنة، ولا يتصرّفون بارتجالٍ أو كيفما اتفق، لقد اجتمعت لدينا هذه المعلومات عنهم من اعترافات بعض التائبين، أناس تمكّنوا من الفرار والابتعاد عنهم، أناس أدركوا فجأة حقيقة ما يجري، ولكن ما العمل؟ نحن متيقّظون غير أنّ هؤلاء الناس يعزفون على وتر الديانة

والإيمان والغَيبِ وضعف الشخصيّة، سبيلنا الوحيد للتعرّف إليهم هو اكتشاف التزوير في أوراقهم الثبوتية، غير أنّ مجنّديهم لا يستخدمون المطارات بل يستغلّون فترات الازدحام في الموانئ البحريّة، ليلاً، وفي بعض الأحوال يرشون الشرطي أو خفير الجمرك ببعض المال فيُقضى الأمر، أعلم جيّداً أنني لا ينبغي لي أن أطلعك على هذه الأمور، لكنّها الحقيقة، ذلك أنّ الحليف الأوثق لهؤلاء هو الفساد الذي يدّعون محاربته، والرشوة هي سبيلهم الأنجع للإفلات من مراقبة شرطة الحدود. أمّا ابنك فسيظهر مجدداً ذات يوم، مُلتحياً ولن تتعرّف عليه، ستجد أنّه تغيّر كثيراً، ولكن إذا ظهر فعلاً أخطرنا على الفور، وبذلك تسدي بلادك خدمةً جليلة. . .

كان محمد العربي فتىً قَلِقاً، مُشاكِساً غير أنّه كان يائساً بالدرجة الأولى. سبق له أن اعتقل خلال حوادث بني مكادة وأمضى بضعة أيام نزيل مخفر الشرطة هناك. كان، بالإجمال، تلميذاً مُسالماً تنتابه سورات من الغضب أحياناً بسبب أوضاع البلاد، فيشتم الموالين كما يشتم المعارضين واصفاً إياهم بالعاجزين. وكان عازل مقتنعاً بأنّه جُنِّدَ من قبل مجموعة إسلامية ما وأنّه بات ينتمي إلى «جيش تحرير» ما. ومع ذلك كان يحبّه كثيراً ويلقّبه بـ«المُخاطِر» ويشعر بندمٍ عميق لأنّه أهمله في الفترة التي سبقت اختفاءه.

كان عازل يتدبّر أمور عيشه اليومي مُعتمِداً على معونة شقيقته التي تعمل ممرضة في إحدى العيادات. كانت تعمل

ساعاتٍ إضافيّة لحسابها الخاص لأنّ الراتب الذي تتقاضاه من العيادة لا يكفي. فربُّ عملها، وهو طبيب جرّاحٌ قصير القامة، أهوَس، ومن خِصالِه البُخل وهو ما يحدو به إلى ذكرِ المال باستمرار، سواءَ تعلّق الأمر بسعر الطماطم أو كلفة السكانر، يدفع لها الحدّ الأدنى للأجور مُردّداً: «أنت تتعلّمين المهنة». وكان يجني من المال في يوم واحد ما قد يجنيه موظفوه مجتمعين في سنة كاملة. غير أنّ هذا لا يحول دون أدائه فروض الصلاة الخمسة والتخطيط للعُمرةِ في ربيع كلّ عام، والحجّ كلّ سنتين. لا يُجري عملية جراحيّة قبل أن يتقاضى أتعابه سَلَفاً ونقداً. فشهرته كطبيب بارع توازي شهرته كطبيبٍ جشع. وقد تردّدت بشأنه أقاويل مفادها أن حبّه للمال دفعه إلى خيانة أعزّ أصدقائه. ولم يَحُل ذلك دون أن ينام قرير العين وبسمة الغبطة مرتسمة على ثغرِه. لم يكن أمام كِنزه أي خيار آخر. وفضّلَت وضعَها الصعب الذي يُتعبها على انحراف زميلتها وصديقتها سميرة التي انضمّت إلى شبكة دعارة تتكتّم على اسمها. كانت سميرة تصطحب رجالاً لا تعرفهم، وتشارك في سهرات تتطلّب منها الكثير من المخاطرة. في البداية بدا كلّ شيء رائعاً وبرّاقاً ويسيراً. وكان الزبائن يطلبون منها أن ترقص لهم لا أن تضاجعهم. الأمر الذي يُلائمها. ولكن شيئاً فشيئاً بدا أن الأمور تخرج عن سيطرتها. وكم لاذت، بعد ذلك، بحِمى كنزة، هَلِعَةً إثر تعرّضها للضرب والاغتصاب!

كان عازل قد يئس فعلاً من البحث عن عمل، أو في الأقلّ بالطريقة المعتادة التي تقضي بتدبيج رسالة تعليلٍ لاختياره هذه

الوظيفة بعينها مرفقة بنبذة عن سيرته الذاتية والعلمية والمهنية. طريقة لم تُجدِ نفعاً. حتّى أنّ بحثه هذا شمل قطاعات الإدارة الحكوميّة كما قطاعات الأعمال الخاصّة، غير أنّه لا يملك القوّة الكافية التي تؤهّله للخوض في عالم الحيتان هذا. فعازل في آخر الأمر ليس سوى فتى وديع، لطيف، ليس في طباعه شبهة عنف أو قسوة. مسكين! لم يكن مُدركاً أنّه يسلك السبيل الخاطئ. ولم ينبّهه أحدٌ من قبل من أنّ الأوغاد يذهبون إلى الجنّة بعد فراغهم من خَلْقِ الجحيم! كان هاجسه المُلحّ الطاغي المستديم: أن يرحل! وكان مُصرّاً عليه، متمسّكاً به. وفي الأثناء يحاول أن يتعيّش على أعمال موقتة، كأن يتاجر بالسيارات المستعملة، أو يعمل سمساراً لوكيلٍ عقاريّ، حتّى أنّه ألفى نفسَه ذات مرّة واقفاً في الصفّ الطويل أمام القنصلية الفرنسيّة لحساب رجلٍ موسِر كان يدفع له مائتي درهم لِقاء الخمس ساعات من الانتظار. كان يجني القليلَ من المال، ما يكفي لشراء السكائر المهرّبة، وبعض الملابسِ الرفيعة بالتقسيط... أمّا الفتيات فكان صديقه الحاج، وهو أحد أقرباء نور الدين، هو الذي يتولّى دسّ الورقة النقدية من فئة المائة دولار بين ثديي كلّ منهنّ.

5

الحاج

كانت العلاقة التي تربط الحاج بعازل علاقة غريبة ومُستَهجَنة. لم يكونا تِرْبَيْن ولا اهتماماتهما واحدة. غير أنّ الحاج كان مفتوناً بهذا الشاب الذي يعرف قصّته جيّداً ويحاول أن يساعده. وبقدر ما كان الحاج دميماً منفّراً كان عازل وسيمَ الطلعة جذّاباً. كان عازل يُعجب الناسَ، ويقيمُ مع الفتيات علاقات عابرة ولكن واضحة: هي علاقات جنسيّة لا أكثر. فالغرامُ في نظرِه تَرَفٌ لا قدرةَ لمن هو مثلُه عليه، هذا فضلاً عن خلوّ طنجة بأسرها من مكانٍ قد يصطحب المرء إليه فتاة ولو لاحتساء كأس من الشراب لا أكثر. فهو في حالٍ مماثلة يحتاج إلى سيّارة ومال ووظيفة. أي كلّ ما يملكه الأجانب ولا يملكه هو في هذه المدينة التي تغيظه وتجذبه في آنٍ معاً. كان الحاج يستقبله بحرارةٍ في منزله الجبليّ الجميل. كان رجلاً يعشق الاحتفال والسهر. وشأن بعض أهل الريف، عاش الحقبة التي كان المال فيها يسير المنال والأعمال مزدهرة من دون مخاطر. لكنّه، على النقيض من أصدقائه، توقّف عن العمل وقرّر أن ينعم

بالحياة وينصرفُ إلى اللهو. متزوّج لم يُرزَق أولاداً - لا يستطيع الإنجاب -، اعتادت زوجته أن تتركه وحيداً في المنزل الجبليّ الواسع لتقضي قسماً من السنة في منطقة الريف، مسقط رأسها. كلّ سنتين يصحبها إلى مكّة لأداء فريضة الحج. وكان هذا كافياً لإرضائها فلا تحاول، في المقابل، أن تزعجه. في طنجة يهوى الحاج إقامة الحفلات الساهرة بصحبة أصدقاء ويطلب من عازل أن يتولّى هو دعوةَ الفتيات. فالحقيقة أنّ الوكيل العقاري الذي اعتاد عازل أن يُنجز له بعض الأعمال الصغيرة قد عرّفه إلى شبكةٍ من الفتيات يعشقن اللهو والشراب والرقص والمضاجعة عند الاقتضاء لقاءَ بعض الهدايا أو المال الصريح. لم يكن وسَطاً كريهاً أو فاجِراً. إذ تدّعي الفتياتُ أنّهنّ يتابعنَ الدراسة، ومنهنّ مَن يزعمنَ أنّهن سكرتيرات أو عاطلات عن العمل، وبعضهنّ الآخر من المطلّقات الشابات المقبلات على مباهج الحياة المفتقرات إلى مواردها، وأخريات أيضاً ممّن تصحبهنّ إلى هذه السهرات أختهنّ البكر لاختبار شؤون الحياة وشجونها؛ شابات وساذجات، جميلات ومبهجات، متحدرات في الغالب من أسرٍ متواضعة وإن كان بعضهنّ ينتمي إلى أسرٍ موسِرة. كانت الشبكة التي تشمل عدّة فئات من البنات تديرها خدّوج «القوّادة»، وهي امرأة أربعينية تنتقي فتياتها العاملات ممّن اعتدنَ ارتياد الحمّام أو من بين مَن يتردّدن على وردة، صديقتها الماشِطة. ومع رواج الهاتف النقّال وبفضل فترة السماح التي تتيح بتلقّي الاتصالات طيلة ستة أشهر بعد نفاد الرصيد، كان من السهل جداً أن يجري الاتصال بالفتيات في أي ساعة من النهار

أو الليل. في نظر عازل لم يكن ما يُمارسنه بغاءً؛ لسنَ مومسات بل «حالات اجتماعية». وكانت تلك هي التسمية المفضّلة لدى الحاج الذي كوّن نظريةً متكاملة حول المسألة: عندما تعاشر امرأةً في بلدنا العزيز هذا فلا بدّ أن يكون غرضُك واحداً من اثنين: فإمّا أن تكون راغباً في الزواج منها وفي هذه الحالة عوضنا بسلامتك، وإمّا أن تكون راغباً في أن تكون عشيقتك المعتمَدة، وعندئذ ينبغي أن تكون مواردك كافية لأنّهنّ متطلّبات، شقّة مفروشة، راتب آخر الشهر، وهدايا بين الحين والحين، وهذا أمر طبيعي بالتأكيد، ولكن لا صلة له إطلاقاً بما نريده نحن، فصدقاً قل لي ما الذي نبحث، نحن، عنه؟ نحن نسعى وراء متعةٍ لبعض الوقت مع فتيات جميلات نكافئهنّ ببعض المال في نهاية السهرة، فلا ارتباط ولا التزام ولا خشية من أن تغدو مخدوعاً ذات يوم، تستمتع ويستمتعنَ، ولعلّ أحسن ما في الأمر هو أنّك لا تلتقي إحداهنّ مرّتين، وهذا مفيد جداً لطاقتك الجنسيّة، التغيير مفيد جداً، يا عزيزي، ولعلّه مفتاح الشهوة الدائمة، إنّهنّ فتيات صغيرات محبّبات، وهنّ، بأية حال، «حالات اجتماعية»، ونحن نمدّ لهنّ يد العون! ثمّ إنّهنّ متحرّرات حقاً؛ لا محرّمات، لا ممنوعات؛ يفعلنَ كلّ شيء ويفقنَ الأوروبيات خبرةً، صدّقني، والمُحيّر فعلاً هو من أين يتعلّمنَ كلّ هذا، وكأنّ ثمَّ مدرسة للجنس تُعرض فيها أفلام بورنوغرافية! لا، المغربيّات رائعات، جميلات، محبّبات، نظيفات، يقضين أوقاتهنّ في الحمّام، حليقات السيقان والفُروج، إنّهنّ يفقدنني رشدي. معهنّ أنسى مرض السكّري

وغيره. . . إنّهنّ بالغات اللطف حقّاً، لا يتحدّثنَ مُطلقاً عن المال، يصلن كمدعواتٍ لتمضية سهرة ممتعة، ويسترخين ولا يوحينَ لكَ بأنّهنّ مُتاحاتٌ للراغب فيهنّ بل إنّهنّ جئنَ لأجلك أنتَ بالذات! ثمّ بشرتهنّ، يا لبشرتهنّ الأرقّ ممّا قد تلمس راحتك، والأشهى ممّا قد تشتهي، مضمّخةً بروائح القرفة والعنبر والمسك، عطور أحلامك التي تحملكَ مباشرةً إلى السماء فتغمض عينيك لكي لا تهوي إلى الأرض مجدداً، لهذا كلّه أعشق المغربيّات، بالقليل القليل يسحرنكَ وبالأقلّ يكنّ بهيّات. بلى يا صديقي، نحن محظوظان، ولكنّي أعلم جيّداً بأنّك لا توافقني الرأي، وسوف تحدّثني عن البؤس والاستغلال والرذيلة والأخلاق وأوضاع المرأة والحقّ والعدالة والمساواة وحتّى عن الدين، أعلم جيّداً ما ستقول، ولكن عِش قليلاً واستغلّ شبابك. . .

عددٌ من فتيات تلك الشبكة كنّ مغرمات بعازل، غير أنّه كان يصرّ على صدّهن معترفاً لهنّ بحقيقة ظروفه: أنا في الرابعة والعشرين من عمري، أحمل شهادة جامعيّة وعاطل عن العمل، لا أملك مالاً أو سيّارة، أنا حالة اجتماعية، أجل، أنا أيضاً منحرِف، لن أتوانى عن أي شيء إذا كان هو الوسيلة لرحيلي عن هذا البلد، لاحتفاظي بصورٍ بعيدةٍ عنه أشبه ببطاقات بريديّة، لذلك لستُ مخلوقاً للحبّ، وتستأهلنَ من هو أفضل منّي، تستأهلنَ الترف والجمال والشعر. . . لقد حاولتُ من قبل أن أقطع الأربعة عشر كيلومتراً التي تفصلنا عن أوروبا، غير أنني تعرّضتُ للخداع، وكان حظّي أوفر من حظّ قريبي نور الدين

الذي غرق على بعد أمتار قليلة من آلميريا، هل تتخيّلنَ ذلك؟

كانت الفتيات يُصغين، ومنهنّ مَن يذرفنَ الدموعَ تأثّراً. فجميعهنّ يتحدّرنَ من أسرٍ لم تخلُ واحدة منها من أقارب سعوا، هم أيضاً، وراء الرحيل. أمّا سهام، وهي أكبرهنّ سنّاً وأنضجهنّ، فقد اعترفت بأنّها حاولت، هي أيضاً، أن تعبر المسافة تسللاً مع آخرين، غير أنّ أفراد الحرس المدني الأسباني كانوا في انتظارهم فجراً عند الشاطئ، وكمنوا لهم مموّهين كأنّهم في زمن حرب. اعتقلت سهام واستُجوِبَت ورُحّلَت مجدداً إلى طنجة حيث تعرضت لضرب مبرح من قبل الشرطة المغربيّة. منذ ذلك الحين وهي تحاولُ بطرقٍ أخرى ولكن دون أن تتخلّى عن فكرة الرحيل، وإلى أبعد الأماكن المحتملة. كانت تشعر بالنفور ممّا يتردّد حولها بشأن الفتيات اللواتي يُحاولنَ التخلّص من أوضاعهنّ المزريّة عبر سعيهنّ وراء الهجرة: عندما يُهاجر رجل يُقال إنّه ذاهبٌ إلى هناك سعياً وراء عمل؛ أمّا حين يتعلّق الأمر بامرأة ولاسيّما إذا كانت جميلة، فيسود اعتقاد، لا بل قناعة، بأنّها ذاهبةٌ إلى هناك لكي تمارس البغاء! هناك شبكات معروفة في هذا المجال: كبلدان الخليج مثلاً. إذ يكفي الانتقال إلى ليبيا حيث لا حاجة إلى تأشيرة دخول، ومن هناك يُنظّمُ الانتقال إلى دبي أو أبو ظبي. حَسْب الفتاة أن تتحمّل مداعبات هؤلاء الرجال السمان الداعرة؛ وهناك فتيات يعشقنَ ذلك، أو لنقل أنّهن يعشقنَ ما قد تدرّه عليهنّ هذه المداعبات... أمّا أنا، فإذا وفّقتُ فعلاً بالهجرة، فسوف أعنى بعجائز. شقيقتي تعمل في ميلانو لدى أسرتين، فالمسنّون الذين يهملهم أولادهم

وأحفادهم يرتاحون لرعاية المغربيّات الشابات اللواتي يطبخن لهم ويصطحبنهم إلى المستشفى، ويُرافقنهم في نزهات ويقرأن لهم، بالاختصار يوفّرنَ لهم ما يحتاجون إليه. إنّه عَمَلٌ مناسبٌ. وهذا ما أودّ أن أعمله. وشقيقتي الآن تحاول أن تتدبّر لي تأشيرة.

أدار الحاج جهاز التسجيل فصدَحت الموسيقى؛ نهضت سهام والفتيات الأخريات ورحنَ يتمايلنَ راقصات. كان عازل يراقبهنّ مُنفَعلاً. يودّ لو يحضنهنّ، واحدةً تلو الأخرى، بين ذراعيه. كان سعيداً لكنّه يشعر بهشاشةِ عواطفه. في تلك الليلة ضاجع سهام. ولمّا فرغا من ذلك سألته قائلةً:

- هل تصحبني معك إنْ تمكّنت من مغادرة هذه البلاد؟

ثمّ أسرّت له أنّها تسعى للزواج من أسباني أو فرنسيّ.

- أنا أيضاً، أجاب عازل.

ما أضحكها قبل أن تصحّح كلامه قائلةً: تقصد من أسبانية أو فرنسيّة! صفَنَ لبرهةٍ ثمّ قال بصوتٍ خفيض:

- الأمر سيّان عندي، المهمّ أن يتحقّق حلمي...

جلست سهام على حافة السرير وجعَلَت تبكي. طوّقها بذراعيه ومسح دموعها بظاهر يده وضمّها إلى صدرِه بقوّة.

- في هذه البلاد لا يعترف رجلٌ بحبّه لامرأة حياءً على ما أعتقد. أمّا أنا فأعترف لكِ بحبّي!

- أتحبّني؟ إذاً قُلها.

- صعبٌ جداً.

- إذاً ماذا يعني أن تحبّني؟

- يعني أنني أحبّ أكون برفقتك، أحبّ أن أضاجعك...

- لكنّك لا تتصوّر أن تقضي حياتك مع فتاة ضاجعتك في لقائكما الأوّل، فتاة ليست عذراء!

- صدّقيني، أنا لا أريد أن أكون كسائر الناس ههنا، العذريّة في نظري هي مشكلة تفوق أي مشكلة أخرى. لا أحبّ أن أفضّ بكارة فتاة، الأمر يُفزعني، كلّ هذه الدماء...

- إذاً قل لي «أحبّكِ».

- ربّما أفعل لاحقاً، حين لا تتوقّعين.

استلقت سهام فوق السرير على بطنها، وراحت تداعب بيدها اليُمنى عضوَ عازل.

- بما أنّك تحبّني ولا تريد أن تعترف لي بحبّك، فسوف أخبرك بكلّ ما يدور في ذهني الآن!

وراحت تعدّد جميع أسماء العضو الذكري التي عرفتها لدى قراءتها «**الروض العاطر**» للشيخ النفزاوي، وأتبعتها بأسماء الفرج المختلفة التي وردت فيه. كانت تشدّد على ملافظ الحروف متلذّذةً بترداد هذا المعجم اللغوي. ثمّ حين أحسّت بأنّ عضو عازل قد تصلّبَ أخيراً، أمرته أن يدخل بها من الخَلْف.

كان لعبارتها، إذ نطقت بها بالعربيّة، وقعٌ إباحيّ مُثيرٌ لكنّه، في الوقت نفسِه، لا يُحتَمَل. فارتخى عضو عازل.

- أنتِ تتعمّدين استفزازي! لن أدخل بك لا من الخلف ولا من الأمام.

- أنت حرّ، ولكن قدِّم لي ثوباً خفيفاً كهدية، ثوباً شفّافاً أرتديه عندما تهبّ رياح الصيف؛ لن أرتدي تحته كيلوتاً وهكذا يكون بطني عارياً وفرجي وردفايَ فيتساقط الرجالُ أمامي لشدّة هياجهم!

راحا يضحكان سوياً، وارتديا ملابسهما. ولكن قبل أن يغادر عازل الغرفة تجرّأ على سؤالها.

- لِمَ أردتِ أن أدخل بك من الخلف؟

- الفتاة التي تضنّ ببكارتها تقبل في العادة أن يُدخَل بها من دبرها، فبذلك لا تخاطر بشيء. لقد اتّبعتُ هذه الوسيلة لبعض الوقت؛ في البداية لم يستهوِني الأمر، كان يوجعني، ولكن، مع الوقت، وهذا أغرب ما في الأمر، صار الأمر يستهويني. لذلك أجدني بين الفينة والفينة ميّالة إلى التنويع في متعتي، ولكن يبدو أن الأمر لا يروق لك كثيراً. . .

- لا، في مُراهقتي فعلتها أحياناً مع صبيان، ولكنّي لم أفعلها مُطلقاً مع فتيات. والحقيقة أن الأمر لا يستهويني كثيراً. أعذري ما بدر منّي منذ قليل.

كان الحاج مُستَرخياً على أريكةٍ في الصالون، مُحتضناً فتاتين، واحدة من كلّ جانب. كان نخيره مسموعاً، فيما الفتاتان شبه العاريتين تحاولان كتمان ضحكاتهما، إذ لا ينبغي إيقاظه. ركب عازل سيّارة الحاج واقترح على الفتيات أن يقلّهنّ معه بعد أن تقاضت كلّ منهنّ ورقة المائة دولار. اجتاز عازل المدينة صامتاً. وكانت سهام ممسكةً بذراعه. كانت تودّ أن تطلق العنان

لجنون رغباتها ولكنّ عازل بدا مُكتئباً. فاقتنعت أخيراً بأن تعود إلى منزلها. نحو الخامسة فجراً ألفى عازل نفسَه وحيداً عند مُستشرَف جادة باستور. وكانت أنوار طريفة المتلألئة باديةً للعيان. سلك طريق الميناء مروراً بأنقاض مسرح سرفانتس. وقال في سرّه أنّه حين يحصل على الجنسيّة الأسبانية سوف يعود لترميمه. عند مدخل الميناء اعترضه شرطيّ سيئ المزاج.

- هيه أنتَ! إلى أين؟

- أريد أن أتفرّج على السفن المغادِرة!

- هيّا، عُد أدراجك! يكفي ما نعانيه من الأسبان والأفارقة المتسكّعين في الأرجاء...

- لا تقلق، لن أغادر خلسةً، جلّ ما أصبو إليه هو أن أرى حمولة الشاحنات تُنقَل إلى متن العبّارات. من حقّي أن أحسد الصناديق! كم أودّ أن أكون واحداً منها، هذه الصناديق، ليس بداخلها وإلاّ اختنقت، بل أحد صناديق البضائع المخزّنة في مستودع أوروبيّ، على أرض حرّة ومزدهرة، بلى، مجرّد صندوق من خشبٍ هشّ، صندوق غُفْل كم أودّ أن يُكتَب على جنباته بحروف حمرٍ «قابل للعطب»، «اتجاه رأسي» أو «اتجاه سفلي».

- أنتَ مجنون!

- بالتأكيد! خُذ هذه السكائر.

لم يتردّد الشرطي في أخذها وطلب من عازل أن يدعه وشأنه.

- ولكن قل لي صراحةً، والكلام في سرّنا، ألا تودّ أنت أن تكون أحد هذه الصناديق؟

- هيّا اغربْ عن وجهي!

- لا تغضب، كنت أمازحك.

- اذهب حيثما شئت، وإذا اهتديت إلى وسيلة، عُد واصحبني معك. أنا أيضاً ضقتُ ذرعاً بكل هذا. ولكن إيّاك أن تحدّثني مرّة ثانية عن الصناديق. أوتدري بمَ تلقّبني زوجتي؟ «**الصندوق الخاوي**»! والسبب هو أنني لا أكسبُ ما يكفي لتلبيّة كلّ احتياجاتها. هل تعلم كم أتقاضى في الشهر؟ أتقاضى ألفي درهم وأقتطع منها ثمانمائة بدل إيجار، ونعيشُ، لا بل نكافح في عيشنا بما تبقّى! هيّا، اغرب عن وجهي، ودعني وشأني!

كان عازل يسير متمّهلاً مُستأنِساً بهدير محركّات شاحنات النقل الكبيرة. اقترب منها مُستَنشِقاً روائح المازوت كأنّه يشم عطر باقة ورد. تلمّسَ بيده دولاباً وراح يتخيّل الأماكنَ التي قد يوصله إليها. عاملان كانا يحمّلان شاحنة. سألهما عن نوعيّة البضاعة التي يحمّلونها. ملابس، أجاب العاملان، ملابس من ماركات رفيعة، بوس، كلاين، زارا، إيطالية، أسبانية، من جميع البلدان ما عدا المغرب!

تخيّل نفسه مانوكاناً مُرتدياً هذه الماركات وموضّباً في أحد هذه الصناديق لكي يُعرَض فيما بعد في إحدى واجهات محال مدريد أو باريس. تخيّل أنّه وُضِعَ في قالبٍ من الشمع عابراً

الحدود في هيئة مانوكان، في هيئة جماد ليس كائناً بشرياً يتنفّس. أضحكته الفكرة. وفي الوقت نفسه، أفزعته. تابع جولته ناظراً تحتَ الشاحنات مستذكراً قصّة ذلك المراهق الذي اختبأ في مكانٍ مشابه. وبعد عبور الحدود الأسبانية نزل من مخبئه وفرّ هارباً غير أنّ صيادين اعتقلوه وسلّموه إلى الشرطة. ذاعت قصّته عبر التلفزيونات والإذاعات الأوروبيّة. وجُعِلَت مَثَلاً لهذا الجنون الذي يستبدّ ببعض الشبّان المغاربة. بعد ذلك وُضع المُغامِر البائس في عهدة القنصليّة المغربيّة التي عملت على ترحيله إلى البلاد. ولكن فور وصوله إلى طنجة أقسم بأنّه سيعيد الكرّة.

بعض الشاحنات الأخرى كانت تحمّل بضائع أثقل. اقترب عازل من السفن الموشكة على الإبحار. كان السكون مخيّماً. رجال الشرطة يتناولون طعام الفطور، وأحدهم مستغرق في قراءة صحيفة. المقالة تتحدّث عن إقدام أسبانيا على نشر نظام مراقبة إلكتروني على طول شواطئها مزوّد بأشعة ما دون الحمراء، وأسلحة أتوماتيكيّة، وأجهزة فَوْق صوتيّة، وفَوْق كُلّ شيء. . . وأصبح بالإمكان اكتشاف المهاجرين غير الشرعيين، المتسلّلين، حتّى قبل أن يقرّروا مغادرة البلاد! وبفضل هذه التجهيزات، أصبح بإمكان الشرطة الأسبانية أن تتخذ كلّ الاحتياطات الضروريّة ما إن يُبدي مغربيّ ما رغبته في اجتياز مضيق جبل طارق. يكفي أن يخطر الأمر ببالِه حتّى تتلقّى الشرطة الأسبانية كلّ المعلومات التفصيليّة عن المعنيّ وسنّه واسمه وماضيه، وكلّ شيء. كلّ شيء. هذا ما بات يُسمّى الآن تقدّماً. وبات على المغاربة أن يتعقّلوا. إذ ما عاد ممكناً الحلم، مجرّد الحلم،

بلوغ أسبانيا! فثمة قانون جديد وتقنيات مستحدثة تحول ما بينهم وبينها. لدى أقلّ شبهة تُضاء كشّافات الحرس المدني الأسباني، وتفضح الأجهزة المتطورة كلّ مرشّح للهجرة وتُقمَع محاولته حتّى قبل أن يغادر منزله. ولم يعد ثمّ حاجة إلى تفتيش حمولات الشاحنات.

على رصيف الميناء كان عازل يُراقب بدهشة حجم السفن الراسية. كأنّه طفل يكتشف البحر للمرّة الأولى. يعشق هدير المحرّكات وصياح البحّارة. يتخيّل نفسه في بزّة بيضاء، قبطاناً أو ربّان سفينة، ويُغمض عينيه مُستَمتِعاً بتلك اللحظات، وهو يُصدر الأوامر الموجزة الواضحة. لعلّها السابعة صباحاً؛ مركب ضخمٌ يستعدّ للرسو في مياه الميناء. وقف عازل مفتوناً بهذه الكتلة الضخمة المنزلقة على صفحة المياه الراكدة. لوّح بيده لراكبة انحنت من فوق حواجز المتن. لم تردّ التحية، لكنّ عازل لم يلتفِت إلى ردّ فعلها؛ لم يُبالِ. فليس هذا شاغله الآن، جلّ ما يصبو إليه هو أن يكون في إحدى مقصورات السفينة، لا يبرحها، وعندما تبحر يخرج إلى السطح ليدخّن سيكارة. وهناك يتبادل أطراف الحديث مع سائح ألماني يقوم برفقة زوجته برحلة سياحية بحرية لمناسبة اليوبيل الذهبي لزواجهما. وفي الأثناء يُصاب بدوار البحر، فيتناول دواءً ويأوي إلى فراشه المهفهف الأغطية والملاءات مُصغياً إلى هدير الأمواج التي تحمله بعيداً جداً من طنجة ومن إفريقيا.

كانت الصور تتزاحمُ في رأسه. كأنّه شريط سينمائي يُدخِلنا إلى أحلام البطل. كان مجلبباً بحلّة بيضاء، وبصحبته أولغا،

مغنية أوبرا نمسوية جاءت لزيارة أخيها الذي يقضي فصل الصيف في جبل طنجة. أولغا التقته في ذلك المنزل حيث جميع أصدقاء أخيها من المثليين، لَفَتها من بعيد، إذ أنبأها حدسُها أنّه رجل يحب النساء. ولم يُخطئ حدسُها. ولكن ما الذي أتى به إلى دارة السيّد دال؟ جاء مدعواً من قبل رئيس الطهاة الذي يحتاج إلى المساعدة. والحقيقة أنّه لم يعمل كنادل بل تولّى استقبال الوافدين وإرشادهم إلى أماكنهم. أمسكت أولغا بساعده وانتحت به ركناً في مؤخّر الحديقة. ومن دون أن ينبس أحدهما بكلمة راحا يتبادلان القُبَل. كانت المرأة هي المبادرة بجرأة. أمّا عازل فكان يشعر ببعض الحَرَج لكنّه استسلم لرغباتها. ناداه أحدهم. فانسلّ من بين أحضان النمسوية الجميلة وانضمّ إلى رئيس الطهاة.

كان المركب الضخم يرسو على مهلٍ بمحاذاة الرصيف. فرفع عازل عينيه، وساعد العمّال في تثبيت السلّم. مسافرون يغادرون المركب متضاحكين. راودته الرغبة في الصعود إلى متنِه والتسلّل إلى إحدى مقصوراته والبقاء فيها حتّى يحين موعد الإبحار. غير أنّ في الأمر مخاطرة كبيرة. لمح هرّاً رمادياً يُحاول التسلّل في غفلةٍ من الحرّاس. باغتته رِجلٌ بركلة أبعدته، غير أنّ هذا لم يحل دون تكراره محاولة التسلّل. رجال الشرطة والجمارك يعرفون هذا الهرّ حقّ المعرفة، وكانوا يتندّرون بإصراره العنيد على مغادرة المغرب. فهو أيضاً ضاق ذرعاً بما آلت إليه الحال، وهو أيضاً يتوق إلى شيء مختلف، ويحتاج إلى حنان، إلى مداعبات، يحتاج إلى عائلةٍ هانئة تدلّله، يرغب في

الرحيل لأنّ حدسه يُنبئه بأنّ الأمور ستكون أفضل حالاً هناك، هو أيضاً له هواجسه، وعناده، يأتي كلّ يوم باذلاً ما بوسعه للقفز إلى متن هذه السفينة المبحرة باتجاه أوروبا، لعلّه هرّ مسيحي، ربّاه أسبان أو إنكليز، فليس مَن يرعى الحيوانات ويحبّها أكثر منهم، أمّا نحن فنعامل الهرّ أو الكلب كدخيلٍ، نطرده، نؤذيه، فلا عجَبَ إذاً أن يرغب هذا الهرّ الرماديّ في الرحيل! ذات مرّة قفز وأخطأ السلّم وسقط في المياه فأنقذه صيّاد إشفاقاً لحالِه.

انتبه عازل من أحلام يقظته وعاد أدراجه داسّاً يديه في جيبيه، التقى الهرّ في طريقه، فبادره بالتحية كما لو أنّه كائن بشريّ، أنت أيضاً تودّ أن ترحل، أنت أيضاً أصابتك عدوى الرحيل، والسبب معلوم، تشعرُ بضيقٍ هنا، تتعرّض لسوء المعاملة، ويَنالك الركلُ من كلّ صوب، تحلم بحياة أفضل، أكثر رفاهية، في منزل بورجوازيّ فسيح، هيّا، إيّاكَ والقنوط، قد يتحقّق ما تصبو إليه ذات يوم. أصغى إليه الهرّ بانتباه، وماءَ قبل أن يتوارى. لدى مغادرته الميناء توقّف عازل لبرهة أمام الشرطيّ وأعطاه علبة سكائره التي لم يستهلك منها سوى سيكارة أو اثنتين: خذ، هذه سكائر أميركيّة، أصليّة، اشتريتها مهرّبة، دخّن، إملأ رئتيك بقليلٍ من القطران الذي سيعشّش في شرايينك، هيّا، خذ يا صاحبي، وقد نلتقي ذات يوم!

لكي يصعد مجدداً إلى المدينة، سلك طريق الصياغين والغران سوكو. كان السكون المخيّم على الشوارع مُقلِقاً. كالعادة الشوارع مكسوة بأكوام من الأقذار. ما جعله يتساءل للمرّة الألف كيف يمكن للمغاربة أن يكونوا حريصين على نظافة

بيوتهم وقذرين خارجها إلى هذا الحدّ. وتذكّر ما لقّنه إياه أستاذ التاريخ في ثانوية الخطيب. كان الأستاذ يردّد قائلاً إنّ مأساة المغرب تكمن في الهجرة من الأرياف. فأهل الأرياف الذين يفدون إلى المدن ويستقرّون فيها يواصلون عيشهم كفلاّحين، ويرمون بأقذارهم إلى خارج دورهم فتستقرّ بدورها أمام أبوابهم. أي أنّهم لا يبدّلون شيئاً من سلوكهم. غلطة مَن هذه؟ إنّها غلطة السماء، ومواسم الجفاف التي تُرغم آلافاً مؤلّفة من العائلات على الرحيل عن أرضها والمجيء إلى المدنِ حيث تمتهن التسوّل.

في ذلك الصباح كان عدد القطط كبيراً على نحوٍ لافت. ولم تكن منصرفةً إلى التعارك بضراوة فيما بينها، بل منصرفةً إلى إشباع جوعها بنهم. شاهد متسوّلاً يفتّش في براميل القمامة. أحسّ بالخجل. وفرّ الرجل هارباً.

في الغران سوكو جلس عازل على مقعدٍ خفيض وطلبَ قصعةً من هريسة الفول. قال في سرّه، كم أعشق هذا الطبق، آكل منه هنا لأنني لا أدري إذا كان متوافراً هناك. كانت غبطته تضاهي غبطة القطط وإن كان منظر أولئك الأطفال المنكبّين على براميل النفايات بحثاً وتنقيباً يُثير فيه الشعور بالغثيان.

6

ميكال

مُصاباً، مَرمياً على الرصيف، كان عازل بكاملِ وعيه. رجلان فوقه يكادان أن يُجهزا عليه. الألم يعصرُ بطنه وأضلاعه. ولكن في قرارته نفسه كان فخوراً، لقد تجرّأ على التصدّي لوحش، لعلّه الرجل الأشدّ نفوذاً في المدينة بأسرِها. لم يتجرّأ أحد من قبل على تحدّيه، وأن يُصارحه وجهاً لوجه بما يُضمره الجميع بشأنه. حبورٌ من الأعماق يجعله قوياً برغم الإصابة. فهو يعلم علمَ اليقين أن الليلة ليلته هو: وأدرك أنّ حياته ستتغيّر كلياً بدءاً بتلك اللحظة.

لمّا حاول النهوض وتلقّى ركلةً أخرى رمت به مجدداً سوية الأرض، توقّفت سيّارة ميكال لوبيز. فتوارى الرجلان عن الأنظار. ترجّل ميكال وسائقه ليُنهضا عازل عن الأرض ويحملاه إلى السيّارة. ثمّ سلكوا طريق الجبل القديم حيث يملك ميكال دارة جميلة مطلّة على وسط المدينة وقسمٍ من البحر.

كان رجلاً غايةً في الأناقة، يُحسنُ انتقاء ملابسه، مُرهَف الذوق يعشق الورود إلى درجةِ الحرص كلّ صباح على تكريس

ساعة من وقته لتنسيق الباقات المختلفة في دارته. ولعلّ خير ما يؤشّر على أحوال مزاجه هو أسلوبه في تنسيق ألوانها. يقضي فصل الصيف في طنجة، أمّا باقي فصول السنة فيقضيها في برشلونة وفي أسفار حول العالم لتنظيم معارِضِه. كان سخياً، عاشقاً للمغرب بسبب نوعيّة الحياة فيه وبسبب طابعه المعقّد. من الطبيعي، لمن هو مثله، أن يُهرَع لنجدة إنسان ملقى على الأرض. ولعلّ ما لا يفهمه حقاً هو امتناع زبائن البار الآخرين عن التدخّل للحيلولة دون اعتداء هذين الوحشَيْن على الرجل.

كان ميكال مقرّباً من أحد أقرباء الملك، وله مداخله الميسورة إلى البلاط. وقد أدرج اسمه ضمن لائحة المدعوين المميّزين الذين يُبيح لهم البروتوكول دخول القصر الملكي من دون تعقيدات. وكان ميكال يشعر بالغبطة لوجوده في بلاط الملك الحسن الثاني لمناسبتين أو ثلاث في السنة الواحدة، فهو يُعدّ صديقاً للمغرب، فنّاناً يقدّم صورةً مُشرِقة عن البلاد ويتصدّى لمن يسيئون إليها قولاً وتعبيراً.

كان ميكال في قرارة نفسِه مُقبلاً على الحياة محبّاً لها. يعشق السهرات التي تعجّ بالمشاهير. يطرب لمثلِ هذا الأمر، ويُعدّه مصدر افتخار له. عقِبَ سلسلةٍ من الشجون، اختارَ جانبَ الخفّة. فسهرات المجتمع المخمليّ هي خير ما يوافق النزَقَ الذي يحتاج إليه، أيّما حاجة، لكي يُنسيه إخفاقاته العاطفيّة وأخطاءَه وتَيَهانَه الدائم.

إذاً لِمَ أراد انتزاع عازل من عالمه والإتيان به إلى بلده أسبانيا؟ في البداية كان ميكال يرغب في مساعدة عازل. ولم

يُدركَ إلاّ بعد أن التقاه مراراً أنّ علاقة عابرة، أو ربّما علاقة جدية، قد تكون متاحة معه. هو يعلم من تجربته أنّه كلّما أرغم رجلاً على الارتباط به بعلاقة جديّة كان يندمُ في آخر المطاف غير أنّه اعتاد ألاّ يخشى الألم والحسرةَ في وحدتِه. كان يعشق بشرة المغاربة الكامدة، يعشقُ خَرَقَهم، وهي العبارة التي يستخدمها للتدليل على اللَبسِ الذي يعتوِر حياتهم الجنسيّة. كما يعشق تفانيهم الذي يدلّل على عدم التكافؤ في العلاقات التي تنشأ بينه وبينهم. خادمٌ في النهار، وعشيقٌ في الليل. يرتدي ثياباً متواضعة لأجل التسوّق نهاراً، وثياباً أنيقة مختارة ليلاً لأغراض الشهوة والجنس. كما درَج على القول حارس المبنى العجوز الذي كان يقطنه كاتبٌ أميركيّ وزوجته: «هؤلاء الناس يريدون الحصول على كلّ شيء، رجالٍ ونساءٍ من عامّة الشعب، وفتيانٍ معافين، والأفضل أن يكونوا من الأرياف، لا يجيدون لا القراءة ولا الكتابة، يخدمونهم نهاراً، ويضاجعونهم ليلاً. خدمة كاملة، وبين مضاجعتين غليون كيف عرمرميّ لكي يُحسن الأميركي التأليف! يقول لأحدهم أسرد على مسمعي تاريخ حياتك لكي أصوغه رواية، وسيكون اسمك مطبوعاً على الغلاف، طبعاً لن تتمكّن من قراءته، ولكن ما الفرق؟ أنت مؤلّف مثلي، سوى أنّ الناس سيقولون إنّك مؤلّف أمّي، أليس أمراً اكزوتيكياً، أقصد مستغرباً يا صديقي! يقول كلّ هذا ولا يأتي على ذكر المال، لأننا عندما نكون في خدمة مؤلّف لا نأتي، في آخر المطاف، على ذكر أمور كهذه! طبعاً الناس ليسوا مضطرّين إلى القبول بهذه العروض، ولكن، كما نعلم جميعاً،

من شأن الفاقة، عزيزتنا الفاقة، أن تقودنا إلى ما لا نشتهي. في هذه الحياة الناس يتدبّرون أمورهم بالتي هي أحسن، وهذه حالي، أنا، أرى كلّ شيء ولا أقول كلَّ شيء! كلّنا معلّق بعرقوبه، كما في حانوت الجزّار، هل شاهدت يوماً ذبيحة معلّقة بعرقوب جارتها؟ طبعاً لا، فهذا الأمر يصدقُ إذاً على المغاربة الذين يعاشرون هؤلاء النصارى!»

صبيحةَ اليوم التالي طرق ميكال باب الغرفة التي كان أفردها لسُكنى عازل. يودّ الاطمئنان إلى حالِه، والاستفسار عن اسمه، وما الذي كان يفعله بالضبط وسبب وجوده في تلك الحانة. ولمّا لم يسمع جواباً من الداخل طرق الباب مرّة ثانية قبل أن يفتحه بتؤدة. كان عازل مستلقياً على ظهره، والغطاء يستر بعضَ جسمه. بُهِتَ ميكال لبراءة وجهه وجمال جسمه حيث الأورام الدمويّة بادية للعيان. ثمّ عاد وغادر الغرفة على أصابع رجليه عازماً على الانتظار ريثما يستيقظ من تلقاء نفسه. كان مُضطَرباً بعض الشيء، وسكب لنفسِه فنجاناً آخر من القهوة وهو الأمر الذي يمتنع عنه عادةً بسبب المشكلات التي يُعانيها في القلب. راح يتنقّل بين الحجرات، وصعد إلى السطيحة محاولاً أن يتمالك نفسَه. انتابه شعورٌ طاغٍ بأنّ هذا الشاب سيقلب مجرى حياته رأساً على عقب. كان موقناً من هذا الأمر، وإن عجز عن تفسيره، بما يُشبه الحَدْس، أو بما يُشبه البداهة. كان بحاجة ماسّة إلى شخصٍ يحكي له ما شهده وما أحسّ به. غير أنّه سرعان ما تخلّى عن الفكرة، وآثر الصبرَ حتّى الظهيرة.

لقد أعاد إليه هذا الموقفُ ذكرى حاول مراراً أن يدفنها. كان ذلك خلال الفترة التي اعتاد فيها الهروب من دارة والديه متسكّعاً بين حانات برشلونة آملاً في لقاء غراميّ يعتقه من عزلته وطبعه الكئيب. ما كان أبواه، أمّه الكاثوليكية وأبوه الشيوعي، ليتقبّلا طبعاً فكرةَ تسكّعِه طوال الوقت بصحبة رجال. لذلك كانا يعاملانه بشدّة ويمتنعان عن التحدّث إليه إلاّ اضطراراً. ذات يوم تلقّى ضربات مبرحة أثناء شجار حاول فيه الفصل بين رجلين ثملَين. تورّمت عينه اليمنى وأصبح مستحيلاً عليه أن يعود إلى المنزل. فلو فعل لانهالت عليه الأسئلة من قبل والديه، حتّى أنهما قادران في حالٍ مماثلة على استدعاء رجال الشرطة والطلب إليهم بأن يباشروا تحقيقاً حول معشر ابنهم والناس الذين يلتقيهم. وعندما همّ بالنهوض ماسحاً بظاهر يده قطرات الدم التي تسيل من جبينه، امتدّت يدٌ نحوه بمنديل أبيض؛ لهنيهات لم يستطع أن يرى سوى هذا المنديل الأبيض الذي يفوح منه عطرٌ ناعم. كانت يد رجلٍ في سنّ النضج، يدٌ مستطيلة الكفّ والأصابع، رقيقة، مكسوّ ظاهرها بِنَمَشٍ داكن. رجل طويل القامة يرتدي قبّعةً من اللّبد رمادية، ويدخّن سيكاراً. تبعه دون أن يتفوّه بحرف، الرجل يتقدّمه بخطى واثقةً بينما ميكال يُراقب حركاته المتصنّعة. كانت تلك بداية قصّة حبّ وجنس، معقّدة ومؤلمة، عاشها ميكال. هجر منزل والديه لكنّه، في الوقت نفسه، أضحى أسير فضل منقذه واسع الثراء والنفوذ، لا بل عبده.

بدّد بحركةٍ من يده هذه الذكرى القديمة وقال في سرّه إنّه

ليس على الشاب المستغرق في النوم أن يخشى شيئاً من هذا القبيل. عندما حان وقت الغداء رآه مُقبلاً نحوه، خجولاً، مُنزعجاً لوجوده في هذا المكان، مُعتذراً لاستغراقِه في النوم.

- أجلس، أنت جائع بالتأكيد.

- لا، ما أحتاجه فعلاً هو قرص أسبيرين وكوب ماء.

- ما اسمك؟

- عزّ العرب.

- هذه هي المرّة الأولى التي أسمع فيها اسماً مغربياً يصعب نطقه.

- أصدقائي يبسّطون لفظه ويسمّونني عازل.

- واسمك هذا ماذا يعني؟

- فخر العرب وعزّهم! أنا صفوة العرب! ما هو قيّم وعزيز وخيّر...

- أليس عبئاً أن تحمل مثل هذا الاسم؟

- أبي كان ناصرياً، قوميّ الهوى، متحمّساً للعروبة. ولكن للأسف، العالم العربي اليوم في حالٍ يُرثى لها، مثل حالي. للمناسبة أودّ أن أشكرك لما فعلته من أجلي مساء أمس.

- هذا طبيعي. هيّا، كُلْ.

شعر عازل ببعض الارتياح وراح يتصرّف على سجيّته فطرح بعض الأسئلة على ميكال حول طبيعة عمله، وسبب إقامته في طنجة، وأسفاره. والحقيقة أنّ ما أراد معرفته من وراء هذه الأسئلة كلّها هو إذا كان منقذه قادراً على مساعدته في الحصول

على تأشيرة دخول إلى أسبانيا. لكنّه لم يتطرّق إلى الأمر صراحةً، واغتنم فرصةَ تغيّب مضيفه لفترة وجيزة لكي يتوارى.

سلوك عازل هذا أزعج ميكال. سأل سائقه إذا كان يعرفُ الفتى، فأجابه خالد بحركة من رأسه بأنّه لم يعرفه من قبل.

- سوف تعثر عليه وتحضره إليّ، بلطفٍ ومن دون عنف.

- حسناً سيّدي.

كان خالد حزيناً غير أنّه لا يجرؤ على إظهار شيء من هذا الحزن في حضور سيّده الذي يتظاهر بأنّه نسيَ ما كان بينهما من علاقات حميمة. ميكال يُظهرُ في بعض الأحيان قدرةً مذهلةً على النسيان. ولم يبقَ أمام خالد إلاّ أن يفقد الأمل ويتكيّف مع الواقع الجديد. فتزوّج ظنّاً منه أنّه بذلك يضع حدّاً نهائياً لقصّته مع ميكال ويُنهي في الوقت ذاته دابر الأقاويل وسخرية أصحابه منه في المقهى.

كان خالد يعرف عازل من بعيد، فقد لمحه مراراً متسّكعاً على أبواب البارات بصحبة أناس من أمثالِه. لم يشعر حتّى برغبةٍ في تنبيهِه إلى حقيقة الأمر أو تحذيره. فتلك لم تكن بأية حال هي المرّة الأولى التي يطلب فيها ميكال منه هو شخصياً أن يُحضر إليه شبّاناً سكارى يعرض عليهم المساعدة.

في اليوم التالي ظهر عازل مجدداً بعد أن اصطحبه خالد إلى الفيلا. أتى برفقة صديقته سهام. لم يبدر من ميكال أيّ تعليقٍ بهذا الشأن، بل استقبلهما بكثيرٍ من الكياسة والترحاب. وسرعان ما عرّف عازل عن سهام على أنّها خطيبته. أمّا هي فقد جارته في لعبته هذه. ثمّ لم يطل الأمر حتّى استدرج عازل الأحاديث التي

كانوا يتبادلونها إلى المسألة التي تستبدّ بتفكيره. أن يرحل. أن يولد من جديد في مكانٍ آخر بعيدٍ. أن يرحل بأية وسيلة. أن يشعر بأنه نبتَ له جناحان. أن يركض على الرملِ صارخاً حريّته ملءَ رئتيه. أن يعمل، أن يحقّق، أن يُنتج، أن يتخيّل، أن يصنع شيئاً من حياته.

لم يكن عازل محتاجاً إلى إقناع ميكال. فقد كان هذا يصغي إليهِ متفكّراً، طارحاً على نفسِه، كيفما اتفق، كلّ الأسئلة المتزاحمة في رأسه: هل يريد حقاً أن يُساعده أو أن يبقيه قريباً منه؟ وما السبيل إلى الجمعِ بين الأمرين؟ صحيحٌ أنّ ميكال لم يعد يتمتّع بالطاقة التي كان يتمتّع بها فيما مضى، غير أنّ المؤكّد في يقينه هو الآتي: سيجعل من هذا الرجل عشيقاً له، وإذا عجز عن إغوائه فرجاؤه، إذا استحالَ الحبّ، أن تنشأ بينهما علاقة صداقة. لمجرّد أن لاحَ في خَيالِه إمكانُ العلاقة الجنسيّة مع عازل، أحسّ بانتعاش. يكفي أن يراه أمامَه، متكلّماً، أو مومئاً أو سائراً، ولو بصحبة خطيبته، لكي يشعر بالغبطة. سهام هي التي تجرّأت على السؤال:

- هل تستطيع أن تساعدنا في الحصول على تأشيرة؟

أبدى عازل انزعاجه من صيغة السؤال الجافّة. فاعتذر من ميكال ثمّ أردف قائلاً:

- أنتَ تعلم أنّ أعداداً متزايدة من الشبّان لا يراودها اليوم سوى حلم واحد: أن ترحل عن هذا البلد، أن تغادر هذا البلد.

- إنّه لأمر مؤسف، أجاب ميكال، أعلم ذلك، لستما أوّل من يطلب مساعدتي. أمرٌ مؤسف أن تصل الأمورُ في بلدٍ إلى

حدّ يجعل «صفوتَه» راغبةً في الهجرة. إنّي هنا لا أطلق أحكاماً ولكني أعترف بأنني، من جهة، أتفهّمكم، ومن الجهة الأخرى، أشعر بالحيرة. لمّا كنتُ في مثل سنّكم، راودني هذا الحلم، أنا أيضاً. وإن كان من غير الجائز أن نقارن بين الوضعَيْن. ففي تلك الحقبة كانت أجواء أسبانيا خانقة. فرانكو يتحدّى الموت ونظامه الديني العسكريّ يعيث في البلد فساداً. لكنّي حظيت بفرصة مذهلة أتاحت لي مغادرة برشلونة إلى نيويورك بعد نجاحي في مباراة الدخول إلى معهد الفنون الجميلة. فرصة أنقذت حياتي. خيّل إليّ آنذاك أنني أنتقل من الظلمة إلى النور. كنت قد ضقت ذرعاً بالحياة الضيّقة الأفق، المُرائية، حيث كلّ شيء ينضح بالرطوبة والرغام، ذاك الذي لا يُرى بالعين المجرّدة لكنّه يلتصق بالأشياء والملابس والشعور، ذاك الذي يلطّخ الروح. أسبانيا بأسرها كانت تفوح منها رائحة العفن تلك؛ كنّا نختنق. وما كان شيء يُثير الحماسة في أعطاف الناس هناك سوى مباريات كرة القدم ومصارعة الثيران.

لَبِث عازل صامتاً؛ نهض وجالَ في أرجاء الصالون؛ وبعصبيّة بادية خاطب سهام قائلاً:

- هيّا بنا، لقد أهدرنا ما يكفي من وقت السيّد.

- نادِني باسمي: ميكال.

- حسناً، ميكال. إلى اللقاء!

مساءً انضمّ إلى رفاق زنقته الذين كانوا يلعبون الورق في

مقهى الحافة. كانت أنوار طريفة متلألئة. ما عاد يُطيق رؤيتها. طلب من عبد الملك أن يتبادلا مكانيهما وجلس مولياً البحرَ ظهرَه.

- أما عدتَ راغباً في النظرِ إلى الأرض المحرّمة؟ سأل عبد الملك.

- ما جدوى الشخوصُ بأبصارنا نحو هذا الأفقِ القريب البعيدِ معاً؟

- هل تذكر توتيا؟

- لِمَ تسأل؟

- فقط لأنّها كانت توسوسُ لنا ولأننا كنّا كالدمى بين أصابعها.

- كلا، سوى أننا لفرط ما نُكيِّفُ كنّا نختلق صوراً وشخصيّات. توتيا لم تكن موجودة في يومٍ من الأيام!

- لقد شوهِدتَ عند الأسباني، فحذارِ، إنّه يعشق المغاربة، قال سعيد.

- تبّاً، ألا يخفى على أحدٍ أمرٌ في هذه المدينة! هذا وحده سبب يدعوني إلى الهجرة.

- وهل تحسب أنّك ستكون مطمئناً هناك؟ سأل أحمد.

- على الأقلّ لن أرى مجدداً سحنَ العاطلين أمثالكم!

- إذا أفلحت في خداع الأسباني، هل ستساعدنا؟ سأل عبد الملك.

- ليس في نيّتي أن اخدع أحداً.

- دعكَ من هذا الكلام، أنت تضاجعه، وقضيّتك أصبحت في حكمِ المُنتهية!

- لا أطيق أن يلمسني رجُل.

- سوف ترى أنّك قادر على ذلك، ولن تفكّر عندها إلاّ بتأشيرتك.

- هل يعني هذا أنّك، أنتَ، قادر على النوم مع رجل آخر، فتداعبه وتقبّله كأنّه امرأة، وتنتصب وتنتشي وكلّ شيء من هذا القبيل؟

- الرجال ليسوا الصنف الذي أحبّ، ولكن إذا اضطررت تكون مضطرّاً، فتغمض عينيك وتفكّر في حبيبتك، إنّها مسألة خيال، ثمّ فكّر ملياً في ما ستجنيه جرّاء ذلك، إنّها مسألة عمليّة لا أكثر ولا أقل.

- هذا بغاء.

- سمّه ما شئت، أنا أعرف الكثيرين ممّن يمارسون هذه الأمور أثناء فصل الصيف. ومنهم من تمكّن حتّى من الرحيل مختبئاً في حقائب الزامل. وفور وصولِهم يفرّون بصحبة امرأة، ويتزوجون ويحصلون على الجنسيّة، ذاك الذي تعرفه جيّداً: جواز السفر النبيذيّ الجميل. وبعد ذلك يعودون إلى البلاد ظافرينَ غانمين متغطرسين. وكثيرون آخرون يخطبون ودّ العجائز من أوروبيات أو أميركيات، المجعّدات الوجوه، المفرطات في تبرجّهن، المستوحدات طبعاً ولكن الثريات جداً... عرفتُ ذات يوم أحد هؤلاء ممّن تخصّصوا في شؤون العجائز

الأجنبيات. كان يجلس في «كافِه دو باري» وينتظر الطريدة. فهل تعلم أنّه في آخر المطاف تزوّج من كندية منحته الجنسيّة وفوق ذلك أورثته كلّ ما تملك؟ وحين عاد بعد ذلك إلى طنجة لم يتعرّف إليه أقرباؤه لسعة ثرائه. كان قد صبغ شعرَه، وانتقى ملابسه من ماركات رفيعة وراح يحدّثنا بإنكليزية غير متقنة. كان يظنّ أنّه بذلك يُشعرنا بدونيتنا حياله. والحقيقة أننا كنّا نشفق لحاله. وذات يوم، صدمت شاحنة سيّارته المرسيدس الجديدة وأحالتها حطامها.

- ثمّ؟

- مات!

- أتقصد أن الله افتكره لأنه أذنب؟

- وما شأن الله في هذا؛ مات لأنّ الطريق في هذه البلاد تقتل ليلاً نهاراً دونما تمييز، وهذا كلّ ما في الأمر.

رمى عازل ورق اللعب من يده، وأشعل بيبةَ كَيْف أخذ منها أنفاساً عميقةً ومرّرها لعبد الملك. كان الوقت متأخراً ولا يرغب في العودة إلى منزله. وطبعاً لم يغنم من رفقة عبد الملك بأي جديد. فعرّج على الحانة. لم يكن العافية هناك ولا أزلامه. زمرة من رجال الشرطة جالسين إلى المشرب. انحنى روبيو، النادل، وهمس في أذنه قائلاً:

- الأمور تنقلب بسرعة. يبدو أن وزير الداخلية أمر بتطهير البلد. وقد اعتقلوا الكثيرين. وثمّة من يقول إنّ العافية أصبح في أسبانيا أو في جبل طارق.

جال عازل ببصره على الزبائن، واحداً واحداً، وانتابه شعورٌ غامض أنّ أمراً خطيراً سوف يطرأ. كان السكون مخيّماً، ثقيلاً، ودلائل ضيق في الأجواء، كأنّها علامات غريبة. لم يعد شيءٌ كما كان. لا بدّ أن الحانة وضعَت تحت المراقبة. همّ عازل بالمغادرة لكنّه أحسّ بأنه عاجز عن الحراك. كأنّ عيناً ترصده.

نادى روبيو:

- ولكن ما الذي يجري؟

- لقد أخبرتك، إنّه التتبيل... في الإذاعة يتحدّثون عن تنظيف.

- هل تعني: التطهير؟

- أجل، أعني شيئاً من هذا القبيل. يعتقلون بالجملة أولاً، وبعد ذلك يُجرون الفَرْز. الأمر أشبه بقصّة ذلك الرجل الذي راح يركض في الشوارع طالباً من الناس أن يركضوا، ولمّا سأله أحدهم عن السبب، أجابه: لأننا جميعاً في خطر، فثمّة مجنون يحمل مقصّاً ضخماً ويطارد الناس ويقطع خصى كلّ من يملك أكثر من خصيتين، أمّا أنا فلا خوف عليّ، أنا طبيعيّ، أملك خصيتين، بلى، ولكن المشكلة أنّ الرجل يقطع أولاً وبعد ذلك يعدّ!

- حتّى في المواقف الحرجة لا تكفّ عن سرد الدعابات!

- ينبغي للمرء أن يضحك ولو مرّة واحدة في اليوم. ولكن لنعد إلى الجدّ. يبدو أنّ حلّوف فارّ من وجه العدالة، وأنّ حمادة وديب معتقلان ومعهم كثير من الشبّان الذين لم يقترفوا ذنباً ولكنْ

الله أعلم. اسمع نصيحتي كأخ لك وتوارى عن الأنظار، عُد إلى بيتك ولازمه هذه الأيام، الأمور لا تدعو إلى الاطمئنان. ما يجري اليوم ليس مُستَهجناً في بلد كالمغرب وقد اعتدناه فعلاً. لسنوات تُترَك الأمور على غاربها وفي يوم لا يعلمه إلاّ الله يُتّخذ القرار بالضرب بيد من حديد عبرةً لمَن اعتبر، لذا أشير عليك بألاّ تمرّ العبرة ببيتك! هل تذكر قضيّة أبناء العائلات العريقة الذين أمر الملك باعتقالهم لتعاطيهم المخدّرات؟ لا، لا تذكر، كنت لا تزال صبيّاً. في هذه القضيّة جرى التعرّض لأبناء الطبقة البورجوازية، فقط لكي يقول الملك إنّه قادر على ذلك، وأن لا أحدَ بمنأى عن المساءلة، وفي الوقت نفسه أراد أن يبعث برسالة شديدة اللهجة للمهرّبين.

حين همّ عازل بالمغادرة داهم شرطيون بملابس مدنيّة الحانة:

- أبرزوا بطاقات هوياتكم، هيّا أبرزوها بسرعة!

لم تكن بطاقة عازل معه في تلك الليلة. وعلى الفور انتابه الشعور بأنه مذنب.

- من لا يحمل بطاقته فليصعد إلى عربة المساجين، هيّا، أسرعوا، تنتظرنا مهام كثيرة أخرى، بأمر من الرباط.

انصاع عازل وجلس منتظراً في عربة الشرطة مع آخرين من عاثري الحظّ أمثاله: متشردَيْن اثنين، ومومس، وخمسة شبّان منهم من يعاني نزيفاً في الأنف. تذكّر أنّ عبد الملك أعطاه قليلاً من الكَيْف، وفي اللحظة ذاتها أقبل شرطي صائحاً بأعلى صوته:

- كفّ عن الحركة، يا ابن الزانية!

فتّشه وعثر على الكيف. لم تكن كمية كبيرة ولكن ما يكفي لتبرير اعتقاله وإخضاعه لاستجواب طويل أتاح للشرطة أن توسّع نطاق تحرياتها لكي تتحوّل القضية من قضيّة بحث عن مهرّبي مخدّرات إلى قضيّة مُجازين شبّان عاطلين عن العمل ومُعارضين. فاختلط الحابل بالنابل.

كان الليلُ طويلاً، مؤلماً وقاسياً. لبث عازل أثناءه يسرد ويعيد سرد سيرة حياته، مردّداً أنّه لا يعمل في التهريب، وأنّه لم يكن يوماً من المتعاطفين مع العافية، بل إنّه تعرض للضرب المبرح من قبل أزلام هذا الأخير لأنّه شتمه. ولكن عبثاً. أوامر الشرطة تقضي باعتقال مهرّبين، وكان عازل هو الطريدة المثالية. في اليوم التالي استؤنف التحقيق، ولكن هذه المرّة بمشاركة رجال شرطة آخرين قَدِموا خصّيصاً من الرباط. وكانت اللهجة مختلفة.

- لِحساب مَن تعمل؟ من يستخدمك؟ من هو ربّ عملك؟

لَزِم الصمت، وتلقّى صفعاتٍ دوّخته، ثمّ أمسكته أيدٍ قويّة وأجلسته على الكرسيّ مجدداً عَقِبَ لطمةٍ على البطن. ردّد الشرطي قائلاً:

- سوف أسهّل عليك الأمر، يا ابن الزنا. هل ربّ عملك هو العافية أم حلّوف أم ديب؟ لِحساب أيّ من هؤلاء تشحن المخدّرات ليلاً إلى أوروبا؟ هيّا اعترف، من هو ربّ عملك من بين هؤلاء الثلاثة؟

ومجدّداً صفعات ولطمات وركلات أشدّ عنفاً.

- يجب أن تعلم، أنت المتعلّم، أن ملكنا الحبيب حفظه الله وأطال عمره قد أمر بتط... بتطه... أقصد بتنظيف شمال البلاد من أبناء القحبة الذين يسيئون إلى سمعة الوطن. لقد ضاق مولانا ذرعاً من تشويه سمعة المغرب في الصحافة العالمية لأنّ خنازيرَ ضخمة تجني الأرباح من بيع المخدرات. لقد انتهى زمن السيَبان والفوضى. لذا ستتعاون مع شرطة جلالته الحبيب حفظه الله وأطال عمره، وستبلغنا بكلّ ما تعرفه عن هؤلاء الأوغاد، وأين يختبئون ولِحساب مَن تعمل أنت!

وكان رجال الشرطة يقلّدون في كلّ ما يفعلون ممثلي الأفلام الأميركية. يمضغون اللبان ويضربون بقبضاتهم كلّ ما يصادفونه في طريقهم. فهذا في نظرهم دليل على الرجولة.

كان عازل يحني رأسه حتّى يلامس ركبتيه من شدّة ما يشعر به من ألم، عندما لمعت في رأسه فكرةٌ مباغتة:

- إني أعمل لحساب السيّد ميكال...

- إنّه ليس مغربياً...

- لا، هو أسباني، ويُدعى ميكال روميرو لوبيز.

- نحن لسنا معنيين إلاّ بالمغاربة المتورطين في تهريب المخدرات، وليس سواهم. وبِمَ يشتغل ميكال هذا؟

- لا صلة له بالمخدرات. إنّه تاجر تحف وأعمال فنيّة، ويملك معرضاً في أسبانيا. مُقيم في الجبل القديم، وأنا أعمل لِحسابه سكرتيراً، مساعداً...

تلقى عازل مزيداً من اللكمات ووقع عن الكرسيّ. كان أحد رجال الشرطة يتكلّم عبر الهاتف بعبارات مشفّرة وسمع عازل اسم ميكال يتردّد مراراً على لسانه. فأدرك أنّهم يستعلمون بشأنه. انهال عليه الشرطيان مجدداً بالضرب والشتائم. كانا حانقين لتثبّتهما من أن عازل ليس مهرّباً وسيتعيّن عليهما أن يعتقلا واحداً من المهرّبين في الأقل قبل بزوغ الفجر. تركا عازل مرمياً على الأرض وخرجا ليدخّنا سيكارة. وفي تلك اللحظة بالذات قرّر الرجلان أن يعتمدا أسلوباً آخر معه:

- أنت ناعمٌ حقّاً، قل لي يا زامل أهو الذي يضاجعك أم أنت الذي تضاجعه؟ لطالما أردت أن أعرف من الفاعل ومن المفعول فيه بين هؤلاء المنحرفين. على كلّ حال، نحن هنا لا نكشف عن مؤخّراتنا بل نثقب المؤخّرات وسوف ترى ماذا نفعل بأمثالك...

أغلقا الباب بإحكام وراحا يتناوبان على ضربه. ثمّ ثبّته أحدهما أرضاً لكي يتمكن الآخر من نزع بنطاله. بعد ذلك مزّق كلسونه وفرّج ما بين ساقيه قبل أن يبصق بين إليته ويحاول اغتصابه. ولكي يسهّل الشرطي مهمّة شريكه ضرب عازل ضربة أفقدته الوعي. راحا يبصقان على ما بين إليتيه وأقحما في دبره عصا أشبه بعصا المكنسة. أيقظه الوجع. فانهالا عليه ضرباً وبصقاً. اغتصباه على التوالي وهما يكيلان له الشتائم. خذ هذا يا زامل، لكزة طفيفة، يا صاحب المؤخرة الجميلة، مؤخرة المثقف هي كالكتاب الضخم المفتوح، ولكن واقع الحال هو أننا، نحن، لا نقرأ، بل نمزّق، هيّا خُذي أيتها القحبة، أيتها

البغيّ، بلى هذا ما تفعله مع النصرانيّ، ينبطحُ أمامك وتعبّئه، نحن الآن نعبئك وسوف تعشق صنيعنا بك، سوف تتوسّل من أجل المزيد إلى أن يغدو دبرك كالمصفاة، محطّة حقيقية، خُذ هذا يا مثقّف، أنت تنتحب، تنتحب مثل فتاة، قل لي، قل لنا إنّك تنتحب، هل تبكي من شدّة اللذّة، آه، دين أمك، بغيّ جنسك، لك مؤخرة كمؤخرة فتاة، لا أثرَ لزغبٍ عليها، كأنك خلِقتَ لكي تعبرك القطارات جميعاً...

كانت نقعٌ من الدم والقيء والبول تغطّي الأرضية. ولم يكن عازل، شبه المغشيّ عليه، قادراً على النهوض. وعندما فتح عينيه بعد ذلك بساعات تراءى له وجه ميكال الذي جاء ليصطحبه. ادّعى رجال الشرطة أنهم أنقذوا عازل من أيدي زعران كانوا يهمّون باغتصابه في حجرة فندق في شارع موريلو:

- كان شجاراً بشأن الكيف وتدخّلنا عندما استدعانا حارس المبنى. ولحسن الحظ وصلنا في الوقت المناسب. وجدناه ملقىً على الأرضيّة، وقد انتزع بنطاله عنه... في هذه المدينة يتعيّن على المرء أن يحسن اختيار من يعاشرهم!

كان عازل متورّم الوجه يسير بمشقّة مستنداً إلى السائق وميكال. وفور وصولهما إلى المنزل خاطبه ميكال قائلاً:

- أعتقد انني أعلم حقيقة ما جرى. سوف أستدعي طبيباً.

- لا، لا أطباء أرجوك، أشعر بالخزي، بالخزي!

- لا بدّ من إحضار طبيب للحصول منه على تقرير طبّي

وملاحقتهم قانونياً، لدي علاقات مع موظفين كبار في الرباط، وما فعلوه بك هو أمر غير مقبول. لم يمنحهم الملك إذناً بالتصرّف كما يحلو لهم.

- لكنّ أقوالي لن توازي أقوال الشرطة، والملك لا يُبالي. ما يريده الملك هو أن تبقى الأمور على حالها. وهو لا يتدخّل في التفاصيل.

- كلّ هذا سيئ جداً لصورة المغرب في أعين الناس! وإذا علمت الصحافة بالأمر فسوف تجعل منها فضيحة مجلجلة!

- الصحافة؟ إذا تجرّأت يوماً على قول الحقيقة فسوف تُمنَع من الصدور.

مكث عازل بضعة أيام في دارة ميكال ليستكمل علاجه. اتصل بوالدته هاتفياً ليُطمئنَها وليخبرها بأنّه في الدار البيضاء من أجل عرضِ عمل. شقيقته كنزة جاءت لتطمئنّ إلى أحواله فأطلعها على حقيقة الأمر راجياً منها ألاّ تطلع أحداً آخر على ما جرى. كانت، مثله، تشعر بالمهانة وقطعت له عهداً بأنّها ستبذل المستحيل لكي تمكّنه من مغادرة هذه المدينة وهذا البلد برمّته.

أسفرت حملة التطهير عن أضرارٍ بالغة في الأوساط المشبوهة. إذ اعتقل كثير من المهرّبين، فيما تمكّن آخرون من الفرار. وسُجن موظفو مصارف متورّطون في تبييض الأموال ومعهم عدد من موظّفي الجمارك ممّن يتغاضون عن عمليات التهريب. وفي اندفاعة الحملة الشاملة اتهم بعض الأبرياء بالمساس بأمن الدولة وصدرت أحكام في حقّهم. كما انتهزت

وزارة الداخلية الفرصة لاعتقال حفنة من حاملي الشهادات العاطلين عن العمل وسجنتهم بتهمٍ مختلفة. تورّطت الصحافة في اللعبة، وغطّت مجريات الحَملة وتفاصيلها. وتتالت المحاكمات بسرعة فائقة. كان الجميع يحبسون أنفاسهم، ورجال الأعمال يتوقّعون أزمة اقتصادية حادّة معلّلين توقعاتهم في جلساتهم الخاصّة بقولِهم إنّ أمور البلد تسير جزئياً بفضل هذا المال القذر، وإنّ المهرّبين سيعمدون من الآن فصاعداً إلى إيداع أموالهم في بنوك أجنبيّة، وإننا سنفتقد إلى الأمن. وفي الوقت عينه كان أحد السياسيين يُقيم البرهان على أنّ اتهام أناس أبرياء لا يخلو من منفعة: ومفادها توليد القلق والخوف. وهذا ما يُتيح توجيه ضربة غير مباشرة للمعارضة. ولمّا سُئِلَ وزير الداخلية من قبل نواب أثناء جلسة استجواب للحكومة، أجاب مبرّراً قراراته بالقول: البلد مصابٌ بآفة التهريب والفساد، لذا فإنّ أبسط ما قد نقدم عليه هو ملاحقة هؤلاء المارقين. لقد أُمِرنا بتطهير البلاد، وهذا ما نفعله، فما المُستَهْجَن في ذلك؟ طبعاً العدالة تقوم بواجباتها على أكمل وجه، وكان لبعض القضاة الجرأة على مساءلة أشخاصٍ كانوا يعتقدون أنّهم فوق القوانين بسبب صلتهم بهذا أو ذاك من أعضاء الحكومة، لكنّ صلاتهم هذه لم تجدهم نفعاً، لا مساومة، وإذا اقتضى الأمر أن تهوي رؤوس فلسوف تهوي، ولا أتصوّر أحداً من بين السادة ممثلي الشعب قد يعترض على ذلك. العدالة جسم مستقلّ تماماً، وجهاز الشرطة سليمٌ لا ترقى إليه شبهة، فلنهنّئ أنفسنا لهذا السَبْقِ على طريق التقدّم التي اختطّها لنا جلالة الملك المعظّم أطال الله في عمره.

انبرى نائب مسنّ يحظى بالاحترام مخاطباً الوزير بقولِه:

- نحن موافقون، سيّدي الوزير، يجب أن نقوم بحملة تطهير؛ ولكن لِمَ لا نبدأ بالمقرّبين إليك، بأفراد أسرتك؟ الجميع يعلم أن ابنك أجرى صفقات أكثر من مُربحة بفضل الأبواب التي فتحتها أمامه. إذا كنت رجلاً ذا صدقيّة فالأحرى أن تعطي المَثَل الصالح. والحالُ يا سيّدي الوزير، أراكَ تتحفنا بالمواعظ الحَسَنةِ وكأنّك الرجل المعصوم. ما دام الملك قد أصدر أمراً بتنظيف هذه البلاد، فلا ينبغي أن نغفل شيئاً، لذا نطالبك بالتخلّي عن منصبك وبعدم استغلال هذه الفرصة لتزجّ في السجنِ بمعارضي سياستك التي لا تعرف سوى القمع.

- أنت عميد هذا المجلس الكريم، ولن أجيز لنفسي الردّ على اتهاماتك التي لا أساس لها.

وعليه ارتأى رئيس المجلس أن يفضّ الخلافَ برفعه الجلسة لساعة واحدة.

استغرق تعافي عازل ممّا أصابه نحو أسبوعين. كان يعاني أرقاً يعالجه بالأقراص المنوّمة، ومع ذلك كان نومه حافلاً بالرؤى العنيفة. وعلى الرغم من إلحاح ميكال رفض تقديم شكوى ضدّ الشرطيين.

7

للاّ زُهرة

كانت للاّ زُهرة، والدة عازل، قَلِقةً مشغولة البال. فمنذ أن دأب ابنها على العودة إلى البيت في ساعة متأخرة من الليل، اعتادت أن تلبث صاحيةً في انتظاره. تجلسُ في الصالون الصغير أمام شاشة التلفزيون ولا يغفو لها جفنٌ قبل أن يعود. لم تكن تصغي لما درجت ابنتها، كنزة، على ترداده بأنّ تصرّفها هذا سخيفٌ ويُثير الضحك، وترفض أن تصدّق بأن ابنها يعاشر أهل سوءٍ في مقاهي المدينة وحاناتها. وهي كسائر الأمّهات تشعر في قرارة نفسها بأن أمراً مريباً يحدث، وتخالجها ريبة بأنّ كنزة تكتم عنها الحقيقة، وتخشى أن يكرّر عازل محاولته اجتياز المضيق بطريقة غير شرعيّة.

أنا الأدرى بولَدي، لا يقنع بالبقاء حيث هو، ولا يتقبّل حياةً يعيشها عالةً على امرأة، حتّى لو كانت أخته، لديه عزّة نفسه وأنا أعلم أنّه يبذل المستحيل لكي يرحل إلى هناك، إلى أسبانيا. أدعو ربّي أن يحميه وأن يُمكّنه من التغلّب على وسوسة إبليس، وأن يمنحه العقل الراجح الذي يبعده عن أهل الخطيئة والذنوب.

ولكن لِمَ لا يتصل هاتفياً، لَمَ هذا الصمت؟ تراه مريضاً؟ نزيل مستشفى؟ كفاه الله شرّ المرض والمستشفيات. فحال مستشفياتنا المُزرية تجعلنا نصلّي لكي لا تطأها قدمُ مسلمٍ صالح.

والدة عازل امرأة من شاون، بلدة صغيرة ما زالت تُراعى فيها التقاليد ولم تحدث الحياة المعاصرة انقلاباً في عادات سلوكها. لا تجيد القراءة والكتابة لكنّها تتابع كلّ مساء نشرات الأخبار المتلفزة. كما أنها تعلّمت الأرقام لكي تتمكّن من استخدام الهاتف.

كان عازل لا يزال طفلاً حين فقد أباه في حادثة مرور. ولا يحتفظ إلاّ بذكرى مشوّشة عن ذاك الرجل الذي كان يعمل في مصنع إسمنت. تلقّت العائلة آنذاك مبلغاً زهيداً من شركة التأمين وأفادت من معونات التعاضد القومي. وظلّت لسنوات تحظى دورياً بالمعونة المكوّنة من غالونات زيت وأكياس طحين وقوالب السكّر. كان عازل يعشق الورق الأزرق الذي يغلّف به السكّر. ويستخدمه كورق جدران يكسو به حيطان غرفته. وكان على الأمّ أن تعمل لتعيل أسرتها. فعملت في مجال التهريب شأن عدد من نساء منطقتها وجيلها. وهكذا أصبحت «براغديا» كما قد تصبح نساء أخريات خيّاطات على سبيل المثال. فسكّان الجنوب يقولون «كونترابوندو»(*) أمّا أهل الشمال فيستخدمون عبارة «براغد». تستقلّ الحافلة إلى سبتة ليلاً وتنتظر ريثما تُفتَح الحدود عند الخامسة صباحاً فتُهرَع شأن المئات من النساء الأخريات إلى

(*) الذي يعمل في التهريب. (المترجم)

هنغار سوق الجملة. وهناك تشتري المنتجات التي تلاقي طلباً من قبل زبائنها: كالجبن الهولندي، والمربّى الأسباني والمعجّنات والأرزّ الأميركي والشامبوان وفراشي الأسنان، أي كلّ ما تستطيع إخفاءه تحت ملابسها. ففي غضون دقائق معدودة كانت المرأة النحيلة تتحوّل إلى امرأة بدينة وتعبر الحدود في الاتجاه المعاكس وبيدها ملء قفّة من السكاكر لولديها. أو هذا ما تصرّح به لمأمور الجمارك الذي تدسّ في كفّه ورقة الخمسين درهماً لكي يغض النظر. فقد كان جلّ مكسبها هو الفرق في سعر الصرف بين البيزيتا الأسبانية والدرهم المغربي، أي، في المحصلة، لا شيء يُذكَر.

لم يكن سكّان المناطق الحدودية في حاجةٍ إلى جواز سفر أو تأشيرة للدخول إلى سبتة، المدينة المغربيّة المحتلّة من قبل الأسبان منذ خمسمائة عام. بطاقة الهوية وحدها هي تأشيرتهم للدخول. وقد حرصت أمّ عازل على تغليفها بالبلاستيك لكي لا تبلى، وتحملها معها على الدوام. وكان يحلو لها أن تردّد على مسامع ابنتها قولَها: «هذه البطاقة هي التي تُطعمنا!»

في البداية كانت تجد متعةً في عمليات التهريب تلك، تُهرَعُ إلى ما وراء الحدود ثم تعود قبل الأخريات ليتسنّى لها بيع ما هرّبته قبل أن تعيد الكرّةَ وهكذا... كانت امرأة في مقتبل العمر وأمّا لولَدين تعهد بهما لرعاية جارتها التي رزقت صلاحاً ولم تُرزق أولاداً. مع الوقت وتعب السوق ومشقّاتها فقدت حماستها الأولى. وما عادت تقصد سبتة إلاّ في فترات متباعدة، وتكتفي أحياناً ببيع ما اشترته أخريات من هناك.

كانت للاّ زُهرة تعلّق على عازل آمالها الكبار، وتتخيّله طبيباً أو موظّفاً كبيراً في الدولة، وتتمنّى أن يتزوّج فتاة من عائلة كريمة. أمّا كنزة التي لم تكمل دراستها كما فعل أخوها، فكانت تعمل في انتظار أيام أفضل. وكان الرقص سلواها، فهي تعشق الرقص على أنغام الموسيقى الشرقيّة. الرقص موهبتها. ففي أي احتفال عائليّ تعلو الأصوات مطالبةً برقصةٍ من كنزة. وكانت هي تستسلمُ لتلقائيّة فتنتها وليونة جسدها وقوامها الرشيق. وفي بعض الأحيان كانت ترقص في حفلات بعض الجيران مقابل مبالغ رمزيّة من المال. وفي حالٍ مماثلة تحرص أمّها على اصطحابها لكي تبقيها تحت أنظارها الساهرة. كانت مهارتها تخوّلها احتراف الرقص، غير أنّ مجتمعها ينظر بعينِ الريبة إلى الفتاة التي تمتهن الرقص مورداً للرزق. وهكذا كانت للاّ زُهرة تبدو مشغولة البال لأن ابنتها لم تجد لها زوجاً بعدُ، ولكن الحقيقة أن أكبر هواجسها هو مستقبل ابنها. فكانت تدلّله، وتحبّه حبَّ استئثار وتملّك. وهو ما زاد، مع الوقت، من شعور عازل بالحرَج وربّما ببعض الضيق.

عندما رأته مُقبلاً إثر إقامته الطويلة في منزل ميكال، شاحب اللون، هزيلاً، صاحت به قائلةً:

- مَن جعلَك على هذه الحال؟ ماذا جرى؟ لِمَ كتموا عني الأمر؟ وربّي كنت أعلم، لقد رأيت مناماً سيئاً، ولطالما أنكرتُ بأن الأحلام قد تكون حقيقة؛ حلمتُ أنني فقدتُ سنّاً فألصقوها في مكانها بعجينة مرّة، وهذا تفسير المنام، كاد ابني أن يلقى

حتفه! هل حاولت العبور مجدّداً؟ قُل، أخبرني بما جرى. . .

كان عازل برفقة خالد المحمّل بقففٍ ملأى بصنوف الطعام تقدمةً من ميكال. خضار الموسم وفاكهته، ومعها شقّة خروف وعدد من أسماك المرجان. تنحّى خالد جانباً مفسِحاً في المجال أمام ربّ عمله. وإذا بميكال مجلبباً بالأبيض. يرتدي غندورة جميلة مفصّلة على قياسه وينتعلُ بابوجين؛ اقترب من للاّ زُهرة وقدّم لها باقةً رائعةً من الورود.

خيّل إليها للوهلة الأولى أنّه جاء ليخطب كنزة. نادتها، فانضمّت كنزة إليها، حسناءَ بادية الانفعال، وصافحت اليد التي مدّها لها ميكال.

- لقد حدَثني ميكال عنكَ. شكراً لكلّ ما بذلته من أجله.

- لا شكر على واجب. بلّغي أمّك أنني سعيد جداً بمعرفتها. عازل صديق، ويسرّني أن أساعده.

بدت للاّ زُهرة في حيرة من أمرها: فمن يكون هذا الرجل الذي يتعطّر كامرأة، والذي يتأنّق كامرأة؟ ومع ذلك يبدو وسيماً جداًا! ما مُرادُه؟

طلب عازل من والدته أن تعدّ لهم غداءً لذيذاً. فصدّته معتذرةً: فهي لا تملك متسعاً من الوقت لكي تعدّ غداءً يليق بالزائرين لكنّها ألحّت في المقابل أن يأتي ميكال في اليوم التالي لتناول طعام الغداء.

عندما غادر ميكال منزل عازل المتواضع، خلّف وراءه غمامةً من عطرٍ بالغ العذوبة. أدركت للاّ زُهرة حقيقة الأمر،

ولكنّها عانَدَت وحاولت إقناع نفسِها بأنّ الرجلَ جاء إليهم طامعاً بالزواج من كنزة.

- ألا ترين يا ابنتي أن فرق السنّ بينكما كبير؟

- بلى، ولكنّي لا أرى الأمر مهمّاً، إنّه رجلٌ صالحٌ وأنيق. لا أجد مسلمين كُثُراً بمثل رهافة هذا النصرانيّ وسخائه.

- ما تقولينه الآن هو غباء مطلق، قال عازل مقاطعاً. المسألة ليست مسألة مسلم أو نصرانيّ. نحن على أية حال خبراء في اغتياب الآخرين والإساءة عامدين إلى جماعتنا. لقد اتفق العرب على ألاّ يتفقوا على شيء، إنّه قولٌ شائع، لذلك فلنكفّ عن ترداد هذه الكليشيهات.

- جلّ ما أردت قولَه هو أنني أحببتُ هذا الرجل، ولكن كما تعلم جيّداً، لستُ أنا المعنية باهتمامه!

تظاهرت للاّ زُهرة بأنّها لم تسمع الملاحظة الأخيرة وطلبت من كنزة أن تذهب لشراء غطاء طاولة أبيض من «فندق الشجرة»، حيث اعتادت هي أن تبيع منتجاتها المهرّبة.

- غداً، يجب أن يكون الغداء ممتازاً يا أولاد. والآن يا عزّ العرب يجب أن تحكي لي كلّ ما جرى.

ضحكَ وضمّها إلى صدره. دَمَعت عيناها. وعيناه أيضاً.

في اليوم التالي كانت أجواء من البهجة تخيّم على دار للاّ زُهرة المتواضعة. أعادت طليَ المدخل بالكلس الأزرق، ولَبِثَت تنتظر بفارغ الصبر قدومَ الرجل الذي تعدّه هبةً من الله. لا تذكر شيئاً مما يعتملُ في نفسِها غير أنّ أغلى امنياتها الآن أن يجد

عازل عملاً ما، في أي مكان، ولدى أيّ كان! وفي ظنّها أن ميكال لا بدّ أن يكون سفيراً أو قنصلاً في أقلّ تقدير، شخصاً مرموقاً بأية حال في مكان ما من بلاد الله الواسعة.

أثناء الغداء لم تبرح للاّ زُهرة مطبخها. لم تأكل شيئاً وانتظرت موعد تقديم الشاي لكي تنضمّ إليهم لبعض الوقت. راح ميكال، في غمرةِ حبورِه، يمتدح مزايا الطعام الذي تعدّه للاّ زُهرة والتي أسماها «الحاجّة»؛ وكانت هي في كلّ مرّة تصوّب كلامه قائلةً: «لا، لا، لستُ حاجّة بعدُ، في العام المقبل إن شاء الله!»

دعا ميكال عازلَ وشقيقته إلى الحفل الذي يقيمه لمناسبة مغادرته طنجة. وطلب من عازل أن يأتي باكراً بعض الشيء لكي يساعده في الترتيبات. يجب أن تكون الأمور على أكمل وجه. من دون شائبة. تألّق وأناقة، قال ميكال. الزهور، أجل الزهور، يجب أن يكون المنزل كلّه مُزهراً! الملاعق والشوَك والسكاكين من الفضّة بالطبع! والشمبانيا باردة ولكن من دون مبالغة. فقط بالقدر الذي ينبغي أن تكون عليه. والخدمة ممتازة. أنت وجواد وخالد ينبغي أن تكونوا حليقي الذقن، ومُعطّرين على الأخص. لا تقدّموا لوزاً وأشياء من هذا القبيل ممّا يُفقد الشهية. فأصول المقبّلات أن تفتح الشهية لا أن تصدّها!

طنجة بأسرها كانت هناك. أصدقاء ميكال المقرّبون وكذلك جميع الشخصيّات المرموقة في المدينة. أعدّ العشاء بدقّة متناهية. يجب أن يكون كلّ شيء على أكمل وجه، وما كان

ميكال ليسمح بأية هفوة. عند حلول الليل ازدحمت الفيلاّ بطغمة مخمليّة بدا انّها وافدة من عصر آخر. اختلط فيها الناس من مشارب وأصول مختلفة، فمن بين الحاضرين مثلاً أميرة عجوز من بلد ناءٍ، أو وزير سابق، وحتّى بعض نجوم الفنّ الذين ما عادوا في ذاكرة أحد من الناس. سيّدة مسنّة مجلببة بالأزرق يتهامس البعض بأنّها كانت عشيقة الملك لفترة طويلة من الزمن، غير أنّ الأمر سرّ من الأسرار الدفينة بالطبع. قيل حتّى إنّها رزقت منه ولداً. غير أنّ الأمر، كما نحسب جميعاً، ليس أكثر من شائعة. سيّدة أنيقة، لعبت أدواراً في بعض الأفلام السينمائية، ثمّ طلب منها الملك، على ما يبدو، أن تعتزل التمثيل، والحقّ أنه كان قراراً صائباً، لأنّها كممثلة... كان عازل يتولّى خدمة الضيوف، فيستقبلهم، ويرشدهم إلى أماكنهم. والظاهر أن ميكال أعاره غندورة بيضاء جميلة لكي يرتديها، فبدا في ملابسه أشبه بأمير شرقيّ، أو أشبه بشخصيّة فيلم بالأسود والأبيض من زمن الخمسينات. رزيناً ومُرهفاً كان يتنقّل بين الضيوفِ مُجاملاً كأنّه من أهل البيت. وكان ميكال يلاحظ جيّداً أنّه يتمتّع برفعةٍ ما، فيغتبط في قرارته لأنّه استماله إليه. ومع ذلك لم تكن غبطته تلك لتخلو من شعورٍ بالقلق، من غصّةٍ ما في القلب يعجز عن تحديدها. وإذ تتملّى عيناه هذا الشابَ الوسيم، يشعر فجأة برغبةٍ في البكاء، لكنّه لا يُظهر شيئاً مما يعتملُ في صدره. كان منصرفاً إلى الاهتمام بمدعويه. ففي هذه الليلة يواجه في حياته منعطفاً جديداً. لم يكن ميكال يحتفل برحيله عن طنجة، بل كان يُعرّف الناس على صديقه الجديد.

كان المدعوون من الرجال يتهامسون ويتضاحكون يراقبون حركات وسكنات هذا الشاب الذي يرتدي الغندورة البيضاء. لا بأس به، هذا الشاب، لا بل حتّى تراه مرهف الذوق! إنّه أفضل ما وقع عليه ميكال في حياته كلّها! هل تعتقد أن الأمر سيدوم بينهما؟ مَن يدري؟ ولكنّك تهذي حقاً، هذا الشاب ليس سوى نادل، وليس عشيق ميكال الجديد! فيما يعنيني أنا شخصياً لما كنت أحجمت عن المحاولة. لعلّه يحبّ النساء أيضاً... هس، هس، هوذا ميكال يقترب!

كان الشراب الفاتح للشهيّة يُقدّم على الشرفة المطلّة على المضيق. وكان ميكال الذي ملأ المكان بباقات الزهور المنسّقة والذي ارتدى للمناسبة قفطاناً فستقياً من تصميمه مزيّناً بقلادة رائعة من المرجان، متألّقَ الحضور بين مدعويه. راح يحدّثهم عن رحلته الأخيرة إلى الهند وعن رغبته في العودة إليها في أقرب وقت ممكن. وألمح في معرض الحديث إلى أمله في أن يكون عازل هو رفيق رحلته الثانية إليها. عندئذ اتضحت الأمور في نظر أصدقائه، فأرادوا أن يعرفوا من يكون هذا الصديق الجديد، أرادوا أن يتقرّبوا منه، أن يتحدّثوا إليه، لكي يعرفوا من يكون فعلاً. أمّا عازل فكان متوارياً بين المطابخ، بينما كنزة تتعايش مع الضجر الذي ينتابها. لقد جاءت لأنّها لم تستطع أن ترفض دعوة ميكال. ولكن ما هي خططه الفعليّة بشأن أخيها؟ فهي ليست ساذجة ولم تخدعها المظاهر. شعرت فجأة برغبة في البكاء هي أيضاً، غير أنّها بذلت جهداً لكي تتبسّم. الرجال في هذا المجتمع المخملي التي لم تعرف يوماً أنّه موجود أصلاً،

يبدون بعيدي المنال. ذات يوم، بلى ذات يوم، تقول في سرّها، سوف ألتقي شريك حياتي. وسوف يكون طويل القامة سخيّاً صالحاً ومُثيراً، ولا فرق إذا كان مسلماً أو نصرانياً. لكنّ الأمور هنا شاقّة، كلّها. فإذا لم أتصرّف كما يتصرّف الناسُ العاديون سوف أصبح عانساً وسينظر إليّ الناس على أنني هبورة(*) لم تعد صالحةً لشيء.

اقترب منها ميكال وأمسك بذراعها وعرّفها باسماعيل، وهو العازب غير المثليّ الوحيد في السهرة. أحسّت بأن كفيّه متعرّقتين، ورأت في ذلك علامةً على أنّ هذا الرجل ليس هو رجلها المنشود. ومع ذلك خاضت معه محادثةً ودودة: طنجة - رياح - الشرق - منازل - الجبل - القديم - الأوروبيون - الذين - يجيدون - استغلالها - التيارات - الإسلامية - المتنامية - أسبانيا - التي - نراها - بالعين - المجرّدة - في - أيام - الصحو. . .

كانت نادمةً على خوضها في مثل هذه الأحاديث التافهة مع رجلٍ ذي كفّين متعرّقتين بالإضافة إلى نظرتهِ الخاوية. فتعمّدت كنزة أن تتحدّث عن أمور مختلفة وأن تكون لهجتها مُستفزّة:

- قل لي يا إسماعيل بصراحة ما الذي أتى بك إلى هنا هذا المساء؟

- أنا مدعو مثلِك!

- ولكن ما شأنك أنتَ بهذه الزمرة؟ أقصد أنّك لم تأتِ

(*) هبورة: العانس اللحيمة. (المترجم)

لكي تتشبّه بهم، لكي تغدو واحداً من معشرهم؟

- أتيتُ لأنني بين الفينة والفينة أهوى الولوج في مؤخَّرةِ نصراني صالح! والآن أصبحت تعلمين حقيقة الأمر!

سُرَّت كنزة لحثّها الرجل على إظهار حقيقة مقاصده. فتبسّمت وغادرت المكان. لم تكفّ في طريق عودتها عن استحضار تلك الوجوه من طنجة التي توقّف الزمن فيها عند عقد الخمسينات.

قبل أن يستقلّ الطائرة، أحضر ميكال من القنصليّة الأسبانية استمارة طلب تأشيرة وأعطاه لعازل:

- املأ الاستمارة وسوف أرسل لك الأوراق اللازِمة. فمن حيث المبدأ لا بدّ أن تحصل على تأشيرتك إذا كانت جميع الأوراق سليمة. وسأحرص بدوري أن تتلقّى القنصليّة نسخةً من عقد عمل أتعهد فيه بتوظيفك. كُن كتوماً ولا تكثر الكلام عن هذا الأمر في محيطك، فأنا ممّن يؤمنون بالشؤم!

كان عازل يحفظ مضمون الاستمارة غيباً. لقد سبق له أم ملأ ثلاثاً مثلها. ولكنّ إحساسه ينبئه بأنّ هذه المرّة ستكون هي الحاسمة.

انكبّ على الاستمارة كما ينكبّ تلميذ على واجبه المدرسيّ، متأنيا في رسم الحروف، مُسنِداً باطن كفّه على ورقٍ نشّاف أحضره من أحد دفاتره القديمة. كان المطلوب أن يذكر أموراً بسيطة ولكن بالغة الدقّة. ستة وأربعون سؤالاً. كنية والده،

وتاريخ مولده. فكتب: متوفّى. وفي هذه الحال عليه أن يرفق الطلب بوثيقة وفاة. بعد ذلك يُسأل عن كنية والدته. أربكه السؤال. سأل كنزة فأجابت بأنّها هي أيضاً تجهلها. أمّا للاّ زُهرة فقد دُهِشَت لهذا السؤال وقالت:

- وما حاجتهم بكنيتي، أنت من يطلب الهجرة لا أنا، في الأقل حتّى الآن؟

- أمور إدارية بحتة. ينبغي الإجابة عن هذه الأسئلة كلّها حتّى لو بدت لنا على قدر من الغباء. إذاً ما اسمك؟

- للاّ زُهرة طوزاني.

تاريخ الولادة: من المفترض أنها من مواليد سنة 1936. . . تذكّر عازل جدّه الذي غالباً ما كان يسرد على مسامعه قصص الحرب الأهلية في أسبانيا التي خاضها في عداد الجنود الريفيين الذين جنّدهم فرانكو بالقوة.

المهنة الحالية: احتار عازل بِمَ يجيب. عاطل عن العمل؟ طالب؟ سائح؟ لا شيء. . . **إسم، وعنوان ورقم هاتف المؤسّسة التي تعمل لحسابها**: لا يعمل لحساب أحد. . . **الغَرَض من الرحلة**: زيارة صديق أسباني. . . **تاريخ الوصول وتاريخ المغادرة**: الحقيقة أنّه لا يدري.

عندما فرغ من ملء الاستمارات ولم يبق إلاّ حصوله على المستندات التي سَيُرسلها ميكال من اسبانيا، وضع الطلب داخل ملفّ كرتوني ثمّ غلّف الملفّ والطلب معاً بأحد مناديل أمّه:

- خذي، يا أمّي، هذا مصيري أضعه بين يديك. خذي

هذه الرزمة واتلي فوقها إحدى الصلوات التي لا يعرف سرّها أحدٌ سواكِ.

- أتريدني أن أباركها؟

- لا، يا أمّي، أريد دعاءكِ لي بالتوفيق، على أن تنطقيها بعباراتك أنت، بصلواتك التي تبلغ السماء مباشرة. من دون دُعائكِ أنا هالك، أنا لا شيء، أنتِ تعلمين ذلك. يجب أن تكون صلواتك حارّة، من القلب؛ إذ قد لا تتجاوز بعض الصلوات حدود السقف!

- حسناً يا بنيّ، يا صغيري، يا نور حياتي.

8

البَلَد

كان عازل يُغادر المغرب ويستقلّ طائرةً للمرّة الأولى في حياته. أمّه وأخته رافقتاه إلى المطار. وذرفتا دموعاً حارّة. تأثّر عازل وأحسّ بشيء من الضيق إزاء ما بدر منهما، غير أنّه سرعان ما زال عنه ضيقُه عندما أدرك أنّ مثلهما مثل أخريات من حوله. كانت للاّ زُهرة قد أعدّت ملء حقيبة من الطعام والكعك بالعسل والفطائر والزيتون الأسود. رفض عازل أن يحمله معه فرجته أمّه أن يفعل. كان يشعر بشيء من الحَرَج. لم يعترضه أي إشكال لا مع الشرطة ولا مع الجمارك. لكنْ طرأ تأخير طفيف على إقلاع الطائرة. ما جعله متوتّراً عصبيّ المزاج. وفجأة انتابته الرغبة في أن يعاود قراءة الرسالة التي كان كتبها موجّهةً إلى بَلَدِه يومَ حصولِه على تأشيرة الدخول والإقامة في أسبانيا. جلس إلى طاولةٍ في الكافتيريا وطلب فنجان قهوة ثمّ أخرج دفتَره المدرسيّ وراح يقرأها متبسّماً. كان متحرّزاً، يخشى أن يطرأ ما يعكّر صفوَ اختلائه بنفسِه. وبين الفينة والفينة يتوقّف عن القراءة ويتلفّت محدّقاً في وجوه المسافرين من حوله وهو يحتسي قهوته. في

لحظةٍ ما، جاءت نحلةٌ ولبثت لبعض الوقت مُدوّمةً حول الطاولة، وألفى نفسه يراقبها ويتبع دورانها بعينيه. في هذه الأثناء أعلن عن تأخير بدء صعود الركاب إلى الطائرة نصف ساعة «بسبب تأخّر الطائرة في الهبوط». فاستبدّت به رغبة مفاجئة في التواري عن الأنظار، في الذهاب بعيداً عن هذا المكان لكي يقرأ بأعلى صوته هذه الرسالة التي كان لِيَوَدَّ الكثيرون من رفاقه أن يكتبوها.

بلدي العزيز (بلى، يجب أن نقول «بلدي العزيز»، فالملك يُخاطب شعبه قائلاً: «شعبي العزيز»)

اليومُ هو يومٌ مشهودٌ في نظري، لقد أتيحت لي أخيراً إمكانية، لا بل فرصة أن أذهب، أن أغادرك، أن أكف عن تنشّق هوائك، ألاّ أتلقى بعد اليوم مضايقات وإهانات شرطتك، إنّي راحلٌ عنكَ، منفتح القلب، محدّقاً بالأفق، شاخصاً نحو المستقبل. لا أدري بالضبط ماذا سأفعل، جلّ ما أعرفه هو أنني مستعدّ للتغيّر، مستعدّ للعيش حرّاً، لأن أكون مفيداً، لإنجاز أمور سوف تجعل منّي رجلاً منتصب القامة، رجلاً ودّعَ الخوفَ، لا ينتظر أن تمدّه أخته ببعض المال لكي يستطيع مغادرة البيت، لكي يشتري سكائر، رجلاً لن يتعامل بعد اليوم مع العافية، الشقيّ، الوغد الذي يهرّب ويُفسِد، رجلاً لن يكون بعد اليوم حائشَ الحاج، العجوز العاجز الذي يداعب الفتيات ولا يضاجعهنّ، رجلاً لن يُضطر بعد اليوم إلى مزاولة مهنٍ وضيعة، أو يحتاج إلى إبراز شهادته الجامعيّة لكي يقول إنّ شهادته لا

جدوى منها، إنّي ذاهب يا بلدي العزيز، إني أعبر الحدود قاصداً أمكنةً أخرى مزوّداً بعقد عمل، سوف أتمكّن أخيراً من كسبِ رزقي، أرضي لم تكن رحيمة، لا معي ولا مع الكثيرين من أبناء جيلي، كنّا نعتقد أنّ الدراسة والتحصيل العلمي سوف يشرعان أمامنا أبواب الغد، وأنّ المغرب سيتنكّر أخيراً للامتيازات والعَسْف، لكنّ الجميع تخلّوا عنّا، فكان على كلّ واحد منّا أن يتدبّر أموره بنفسِه، أن يُقدِمَ على أي شيء لكي يحسّن أوضاعَه. كُتِب التوفيق لبعضنا الذي كان مستعداً للقبول بأي شيء وبكل شيء، أمّا بعضنا الآخر فلم يجد أمامه سوى الكفاح من أجل العيش

ولكن يا بلدي العزيز،

إنّي لا أرحل عنكَ إلى الأبد، لنَقُل إنّكَ تعهد بي إلى الأسبان، جيراننا، أصدقائنا، على سبيل الإعارة. نحن نعرفهم جيداً، لبثوا فقراء مثلنا زمناً طويلاً، ثمّ ذات يوم مات فرانكو، وحلّت الديموقراطية متبوعةً بالرخاء والحريّة. كلّ هذا تعلّمته على مصطبة المقاهي، فهي المكان الذي اخترناه، نحن المغاربة، لكي نحدّق بلا انقطاع بالشواطئ الأسبانية ولكي نتلو بصوتٍ واحد تاريخ هذا البلد الجميل. لفرط ما حدّقنا راحت أصواتٌ تتناهى إلى مسامعنا لاعتقادنا أننا إذا أطلنا التحديق بالشواطئ الأسبانية فلا بدّ أن يُشفق ملاكٌ أو جنيّة بحر لحالنا فيأتيان ليمسكا بيدنا ويعبران بنا المضيق. كان الجنونُ البطيء يُحدِق بنا. ولذلك نرى اليوم رشيد، الفتى اليافع، نزيل مستشفى الأمراض العقلية والنفسيّة في بني مكادة. لم يكن أحد منّا يعلم

ما أصابه، جاء وقتٌ لم يبق على لسانه سوى كلمة «أسبانيا» يُردّدها دون سواها، وجاء وقتٌ بات يرفضُ فيه الطعام، ورجاؤه أن يتخفّف من وزنه لكي يحلّق خفيفاً على جناحي الملاك!

آهِ يا بلدي، يا إرادتي المُحبَطة، ورغبتي الخائبة، وأولى حسراتي! بقي لي في ذمّتك أمّي وأختي وحفنة أصدقاء، أنتَ شمسي وحزني، أعهد بهم إليكَ لأنني سأعود وأودّ أن أراهم على خير ما يُرام، وخاصّة أسرتي الصغيرة، ولكن خلّصنا من هؤلاء المارقين الذين يستنفدون خيراتك لأنّهم يجدون الحماية في حين ينبغي أن يواجهوا العدالة والسجن، نجّنا من هؤلاء الوحوش الذين لا يفقهون القانون إلاّ بغيةَ تحريفه، ولا رادع لهم، «فالمالُ، على قولة أمّي، يُحلّي الأشياء المُرّة»!

لستُ منَ المتشبّثين بأهداب الأخلاق، وقد أكون أبعد خلق الله من الكمال، ولستُ الاستقامة في حدّ ذاتها، لستُ سوى فَضلَةٍ في هذه الوليمة حيث المولمون هم أنفسهم، وحيث الفقير هو المشتَبَه فيه الأبديّ، وحيث فقره جريمة، حيث فقره ذَنْبٌ. «المال موجود يا صاحبي يكفي أن تمدّ يدك لكي تأخذه» كان العافية يردّد على مسمعي. «لكي تتخلّص من الفقر، ليس عليك إلاّ أن تتخذ قراراً بذلك!»

ابتليتُ أنا أيضاً بغوايةِ مجاراة الآخرين في ما يفعلون، لكنّ يداً، هي يد أمّي، وهي يد أبي الذي بالكاد عرفته، أهدتني سواء السبيل. فلهما الشكر، والشكر أيضاً لعدم اضطراري إلى اختيار أيسر السُبُل.

ولكن يجب أن أتوقّف الآن عن الكتابة، لقد غَلَبني النعاس.

أراني في الطائرة. لستُ خائفاً، بل مُستثار، وبي شوق يا بلدي العزيز أن أراكَ من فوق، ورجائي أن يستحسن الطيّار فكرةَ التحليق فوق طنجة، لأجلي أنا، لكي أودّعها، لكي أخمّن مَن المُقيم في ذلك الكوخ البادي من بعيد، من هو المعذّب بين هذه الجدران المتصدّعة، مَن يقطن مدينة الصفيح هذه، وإلى متى سوف يبقى هذا البؤس في طاقة واحتمال البائسين.

كان رجلٌ متقدّم في السنّ، قصير القامة، أنيق المظهر، ينتظر وصول عازل حاملاً لافتةً عليها اسمه بحروفٍ بارزة. بادر الرجل إلى التعريف عن نفسه قائلاً:

- إسمي شيكو، هذا لقبي، وأعمل لحساب السيّد ميكال، كما ترى أنا قصير القامة ولكني لا أبالي.

لم يدر عازل كيف يجيبه، فحمل حقيبته وتبعه. طوال الرحلة التي قطعتها سيّارة الأجرة لم ينبس شيكو بحرف واحد. وعند وصولهما حرِصَت كارمن، المربيّة العجوز، على اصطحاب عازل إلى حجرته حيث سيقيم وطلبت منه أن ينتظر عودة ميكال إلى المنزل. كأنّ شيئاً ما يُزعجها. علائم وجهها تدلّ على ذلك صراحةً. فهي تعرف ميكال معرفةً تخوّلها استشعار العواقب. أكثر من مرّة خَبِرَت غراميّاته ولم يُكتَب لأي منها نهاية سعيدة. وفي كلّ مرّة كان ميكال هو الذي يدفع الثمن. لم يُعرَف عنه يوماً احترازاً أو حرصاً. حتّى ليحسب المرء أنّه يسعى عمداً وراء مَن يسلبه، كأنّه بذلك يجدُ ما يخفّف من وطأةِ شعوره بالذنب.

كان عازل دائخاً، مبهوراً بما يراه، مدهوشاً بهذا الكمّ الهائل من اللوحات المعلّق على الجدران. جلس في الصالون، وأشعل سيكارة بعد تردّد. كان كلّ شيء مُرتَّباً. لا أثرَ لغبرةٍ واحدة. تحفٌ وأوانٍ من الفضّة متوهّجة في خزانةٍ زجاجيّة وتُشكّلُ في حدّ ذاتها كنزاً من الأشياء النادرة والثمينة.

قدّمت له كارمن القهوة. كان يشعر بدوار. ما المطلوب منه بالضبط؟ فكّر في أمّه أولاً، وفي كنزة أيضاً. ذات يوم سوف تفتخران به. قد يتمكّن من إرسال بعض المال لكنزة، وأن يأتي بها إلى أسبانيا. ولكن قبل ذلك كلّه عليه أن يواجه الحاضر. أن يواجه ميكال. أن يواجه الأوقات الصعبة التي ستعترض طريقه ذات يوم لم يبذل ميكال ما بذله بدافع حبّ الغير وحسب. ومع ذلك هو رجلٌ مُدركٌ بالحدْسِ وذكيّ، والمؤكّد أنّه يشعر أيضاً بأنّ عازل يحبّ النساء

فجأةً دخل ميكال إلى الصالون، أنيق المظهركالعادة، ولكنْ على قدرٍ من التحفّظ، مُترسّماً في طقمِه، معتمراً قبعةً سوداء.

- هل كانت رحلتك مريحة؟

ولم ينتظر إجابةً بل أردف قائلاً بشيء من الجفاء:

- علينا أولاً تسوية مشكلة المستندات. لذلك ستذهب معي منذ صباح الغد، حاملاً جواز سفرك، إلى مديريّة الشرطة حيث سنملأ طنّاً من الاستمارات. وبعد ذلك نعرّج على محامي الخاص ليحرّر لنا عقد العمل النهائي الذي ستعمل بموجبه لحسابي. أمّا الآن فسوف تقيم في غرفة الخدم في الطبقة العليا.

أعلم أنّ هذه الأمور مزعجة، ولكن لا بدّ منها لكي تحظى بإقامة شرعيّة.

بدا عازل متردّداً لبعض الوقت قبل أن يسأل مستفسراً عن طبيعة العمل الذي سيؤدّيه بالضبط.

- هيّا، دعكَ من هذا التصرّف الغبي، أنتَ تعلم ما طبيعة عملك...

- كلاّ، يا سيّد ميكال، أؤكّد لك...

- قلت لكَ كفى، دعنا من هذه التصرّفات الصبيانية! المهمّ الآن أن نسوّي أوضاعك القانونية. وبعد ذلك سوف نرى.

عند المساء ألفى عازل نفسه وحيداً في غرفته الضيّقة. كان يرغبُ فعلاً في الخروج منها إلى نطاق المدينة الرحب لكنّه يخشى، لو فعل، ممّا سيكون عليه ردّ فعل ميكال. أوى إلى فراشه حزيناً ومتعباً، ولم يغمض له جفن. كانت الصور تترى مسرعةً في رأسه فتارةً تكون جليةً واضحةً وطوراً غائمة مشوّشة. وفي غمرةِ استغراقِه في حال التشوّش الذي انتابته فتح الحقيبة التي أعدّتها له أمّه والتهمَ كصبيّ نهم بعض الكعكِ بالعسل. وقال في سرّه إنّ الفردوس الذي طالماً حلم به لا يُعقَل أن يكون شَبَه حجرة ضيّقة الأرجاء في الطبقة الأخيرة من مبنىً ضخم، ولا يُعقل أن يكون شَبَه هذه العزلة التي تحرمه النوم. كخاطِرةٍ مباغتة راودته صورة سهام. تذكّر دموعها وجسدها الملتصق بجسده. اشتهاها. لكنّ سهام أصبحت بعيدة. راح يُداعبُ عضوَه وقد أغمض عينيه. بعد ذلك فتح دفتره وأكمل رسالته الموجّهة إلى بلده:

بلدي العزيز

هأنذا بعيدٌ عنك ومنذ اللحظة ثمّ ما أفتقده فيك. في وحدتي أفكّر فيك، أفكّر في من هجرتهم هناك، وخاصّة أمّي. تُراها ماذا تفعل في اللحظة التي أكتب فيها؟ من المؤكّد أنّها تعدّ طعام العشاء. وكنزة؟ لن تتأخّر في العودة إلاّ إذا كانت الليلة هي موعد نوبتها الليليّة. أمّا الرفاق فإنّي أراهم بوضوح جالسين في المقهى. رشيد عادَ من المستشفى ويلزم الصمت، أمّا الآخرون فيلعبون بالورق، وفي اعتقادهم أنني محظوظ جداً ويحسدونني. أسمع كلامهم، يتحدّثون عنّي بمرارة. عجيبٌ أمرنا، فكلّ ما أتمنّاه الآن هو أن أقضي ساعة معهم، ساعة واحدة، ثمّ أعود. ولكن لا، لا أرغب في العودة إلى هناك ولو لساعة واحدة. أريد أن أقصيك عن أفكاري، أنتَ وهواءك وشمسَك. فالحقيقة أننا من المغرب نرى أسبانيا، ولكنّ العكسَ ليس صحيحاً. الأسبان لا يروننا، لا يبالون بنا، ولا ما يعنيهم في بلدنا. أنا الآن في غرفتي الضيّقة، حيث رائحة المكان المقفول، ثمة نافذة واحدة ولا أجرؤ على فتحها؛ أعترف بأنني مُحبَط، ولعلّ السبب هو أنني نافد الصبر، مستنفَدٌ، متعب، وهناك أيضاً اختلاف المناخ ثمّ الخوف، الخوف مما هو جديد، الخوف بأن لا أكون أهلاً له... سأحاول أن أنام وأنتَ ملء أفكاري يا بلدي العزيز، يا قلقي الأعزّ والأنبل.

9

سهام

فيما كان عازل يستقرّ في برشلونة كانت سهام تقف أمام القنصليّة الأسبانية لكي تتقدّم بطلب الحصول على تأشيرة. ملفّها سليمٌ وكامل. والحقيقة أن الحاج تدبّر لها عملاً كممرضة مساعدة لدى أسرةٍ سعوديّة مقيمة في ماربيّا وتحتاج إلى من يعتني بسيّدة معاقة. أرسلت إلى العائلة نبذةً من سيرتها المهنيّة بناءً على طلبه، مرفقةً برسالة متقنة الديباجة تشرح فيها مبرّرات رغبتها في العمل لحساب تلك العائلة. كما ألحّ الحاج عليها بأن ترفق الرسالة بصورة شمسيّة. ساورتها شكوكٌ في البداية في أن الأمر مجرّد خدعة، ولكن سرعان ما تلقّت رسالةً من السيّدة المريضة تشرح لها فيها الأسباب التي دعتها إلى مثل هذا الطلب. وأوضحت السيّدة في رسالتها أنّها تفضّل أن تكون المرأة التي تتعاطى معها مسلمة لا نصرانية. وفكّرت سهام أن ترتدي الحجاب لأجل الصورة، وأيّد الحاج فكرتها هذه بقوّة، لكنّها في آخر الأمر وجدت أنّها فكرة سخيفة. كانت تمقت الإسلاميين المتزمّتين والمنافقين. فالمهمّ في نظرها أن يكون

اللباسُ محتشماً والسلوكُ على سويّةٍ لا يرقى إليها الشك. حاول الحاج لمعزّة لها خاصّةٍ في قلبِه، أن يُقنعها:

- يا سهام، يا بنيّتي، قد يكون الحجاب في بعض الأحوال مفيداً؛ فالفتيات يتعرّضن إلى قدرٍ أقلّ من التحرشّات في الشارع إذا كنّ محجبّات، خاصّة وأنّ الحجاب لا يضيرهنّ في شيء. أنتِ تذكرين بُشرى، بُشرى الحسناء التي تزوّجت من رجل أعمال يكبرها سنّاً لكنه واسع الثراء، بشرى هذه كانت تأتيني منقّبةً، أي محجّبة بالكامل، وكنتُ ألقبّها بـ «فانتوماس». ولكن حين تخلع جلاّبيّتها وحجابها، تتحوّل إلى امرأة أخرى، فترتدي الغلالات الشفّافة، والبناطيل المزمّكة... كانت رائعة الجمال. وبأية حال هي التي فازت بالجائزة الكبرى في آخر المطاف؛ كم من الوقت دام لها ذلك، لا أدري. ولكن يبدو أنّها تُحسِنُ التعامل مع العواقب. أمّا الأهمّ، وهو ما أستطيع أن أسرّ به إليك وحدك، هو أنّها كانت عذراء! كانت تحتفظ بغشاء بكارتها لزوجها.

- هل تنعم بالسعادة؟ أعني أنّه من المستبعَد بأية حال أن تكون في ضائقة مالية أو شيء من هذا القبيل.

- لا تخدعنّك المظاهر، لقد ابتُلِيَت برجل بخيل. منذ بضعة أيام اتصلت بي هاتفياً وهي تنتحب. إنّها تعيش في دارة واسعة مُحاطة بالخدم والحَشَم ولكن يُحظر عليها الخروج. إذاً ما هو قرارك، هل ترتدين هذا الحجاب أم ترمينه؟

- أرميه! كانت جدّتي ذات الأصول الريفيّة ترتدي الحَيْك. أشبه بكفنٍ فضفاض، قطعة كبيرة من نسيج قطني أبيض تلتفّ

فيه. طبعاً، في ذلك الوقت، لم يكن ارتداء الحَيْك يلقى اعتراضاً من قبل أحد من الناس. أمّي ارتدت الجلاّبية من دون حجاب، ولم تطلب منّا يوماً أن نرتدي الحجاب على الرغمِ من تنبيهات عمّي المهاجر إلى بلجيكا. ولدى مجيئه لقضاء عطلة الصيف كلّ عام يسترسل في مواعظه الأخلاقية. كنتُ في قرارتي أضحكُ للتناقض بين فحوى مواعظه وسلوك بناتِه اللواتي يُدخّنّ في السرّ، ويُصادقنَ ويواعِدنَ في السرّ، وغير ذلك. كنّ لا يُطِعنَه إلاّ لكي يفعلنَ ما يحلو لهنّ مطمئنّات. كم أمقت هذا النفاق. صَونُ المظاهر والتهتّك خلسةً، هذا هو المغرب الذي يُثير حفيظتي.

- خفِّفي عنكِ يا ابنتي، فحتّى لو رحلتِ عنه سوف تشتاقين إلى بلدِك ما حييتِ. إنّ تعلّقنا بالمغرب أقوى منّا، ويستحيل أن ننساه تماماً، إنّه يُعلِّقُ بالمعنى الحرفيّ للكلمة مثل مقلاة، ولا يسعنا أن ننساه. لقد سافرتُ كثيراً في شبابي، بفضل وفرة المال الحرام، وعدم اكتراث الأهل، سافرتُ بعيداً والغريبُ أنني حيثما حللتُ كنت أشتاق إلى المغرب.

- وكيف تفسّر حقيقةَ أنّ من يحكموننا لا يفعلون شيئاً لأجلنا؟

كانت سهام محاطة بشبّان من جيلها مهجوسين بفكرة الهروب، الرحيل، والعمل في أي مكان بعيد عن بلدهم. لم تُنهِ دراستها الجامعيّة في الأدب لضيق ذات اليد وحظيت في آخر الأمر بوظيفة سكرتيرة في مكتب محاماة.

حصلت سهام على تأشيرة دخول سياحية مدّتها أربعة شهور. يوم سفرها نالت رضى أبويها لكنّها شعرت بأنّها تحتاج إلى حمايةٍ أقوى من رضى الأبوين، فتوضّأت واستعارت سجّادة صلاة والدتها وتضرّعت إلى الله. رضى الوالدين ضروريّ لكنّه غير كاف. فهي مقبلةٌ على مغامرةٍ بحذرٍ، وخاصّة من أولئك العرب الذين استوطنوا ماربيا وما يُحكى عن تجارة الرقيق الأبيض وسوء المعاملة التي يتعرضنَ لها...

في ميناء ألجسيراس، استغرقها بعضَ الوقتِ شقُّ طريقها إلى موقف السيّارات حيث تنتظرها، بحسب الرسالة، سيّارة مرسيدس سوداء. أجلسها السائق على المقعد الخلفي، فشعرت بالزهوّ لأنّها عوملت كنجمة سينما أميركيّة. غير أنّ هذا لم يحُل دون تأليفها سيناريو كاملاً من صنع خيالها. وبموجبه تتعرّض للخطف والاغتصاب ثمّ يُلقى بها وسطَ ريفٍ قَفر. ترى نفسَها حبيسةً لدى العائلة السعوديّة، مستغلّةً جنسياً من قبل زوج السيّدة المريضة، قابعةً سويةَ الأرض بلا طعام أو ماء. تصرخ ولا يسمعها أحد. تحاول أن تقطع شرايين معصميها وتُمْنى محاولتها بالفشل. ثمّ تتمالك نفسَها فجأةً، وتعزو وساوسها إلى صنيع الشيطان. ولكي تبدّد هذه الأفكار من ذهنها تتلو، في سرّها، آية العرش. ولكن عبثاً، إذ تتالت المشاهدُ في ذهنها أشدّ عنفاً وقسوة. ولمّا أسقِطَ في يدها ارتأت أن تضحك. التفت السائق نحوها. فاعتذرت منه وتشاغلت في تأمّل المناظر المتتالية عبر النافذة.

كانت ماربيا أشبه بقرية سياحيّة كبيرة لأصحاب المليارات.

الوافدون إليها من بلدان الخليج يشيّدون فيها مساكن فخمة لا يقضون فيها سوى أيام قليلة من السنة. وكان بعضهم يعبر مضيق جبل طارق لقضاء ليلة واحدة في طنجة، حيث يقيمون في شقق الفنادق الكبرى الفاخرة، التي لا يغادرونها طوال إقامتهم، بل يستقدمون إليها الشرابَ والطعام والعازفين وبنات الهوى. والسلطات تغضّ النظر. كانت سهام مطلعة على ما يجري في الشقق ممّا سمعته عن لسان صديقاتها. قيل لها حتّى إنّ فتياتٍ انتظرنَ طيلة الليل في غرفة ولم يأتِ أحدٌ لاصطحابهنّ. وعند الصباح عدنَ إلى بيوتهنّ وفي جيوبهنّ حفنةٌ من الدولارات. سهام تعلم كلّ هذا، لكنّها لا تُطلقُ أحكاماً مُسبَقة على أمثالهنّ، وإنّما تبقى متحفّظةً بشأنهنّ ضنينةً بعزّة نفسِها، وتخلُصُ من ذلك كلّه بأنّ الجميع يتحملون جزءاً من المسؤولية في تحوّل البغاء إلى ممارسةٍ عادية وتلقى قبولاً متزايداً من قبل الناس عامّة.

كانت مفاجأةٌ تنتظرها في فيلاّ السيّد غاني. إذ استقبلتها غيتا، زوجة الثري السعودي المغربيّة، على الفور. شملتها سهام بنظراتها الفاحصة المدقّقة لعلّها تهتدي إلى نوع الإعاقة الذي تعاني منه. كانت غيتا تسير وتتكلّم وتفكّر مثل سائر الناس الأسوياء. لكنّ غيتا تنبّهت إلى حيرة سهام وبادرت إلى القول:

- أنا مغربية كما ترين. وأقيم هنا معظم أيام السنة. زوجي يقيم في المملكة العربية السعودية حيث أعماله وعائلته. أنا زوجته الثانية، وأعتقد أنّني المفضّلة لديه. ولكن المشكلة هي الآتية: ابنتنا وداد معوّقة، إنها في الثانية عشرة من عمرها وتعاني صعوبة في التنقّل وفي النطق. لذلك نحتاج إلى من يُلازمها

طوال الوقت، على أن يكون صبوراً وحازماً في الوقت نفسه، ويساعدنا في أن تحظى بحياة طبيعية. لقد استعنّا من قبل بممرضات أسبانيات، غير أنّهنّ ينتمين إلى نقابات مهنية ويعملن كموظّفات، هذا فضلاً عن حاجتنا إلى شخص ينتمي إلى ثقافتنا، يتكلّم العربية، ويعرف عاداتنا وتقاليدنا، وأنت تعلمين جيّداً عمّا أتكلّم، الطفلة تعاني ما تعانيه وهي بالتأكيد لا تحتاج إلى مزيد من التعقيدات تفسد حياتها. وسأقول لك بصدق إنّه عمل شاق، مرهق، ولكنّ الأجر جيّد. زوجي يحب وداد حتّى الوله، ولن يتردّد في بذل أي شيء لكي يراها سعيدة. . . وطبيعية.

أصغت سهام ولم تبدِ أي ردّ فعل، لم تكن مستعدّة لسماع ما سمعته، ولم تتخيّل يوماً أنّها ستعمل في خدمة طفلة ليست كسائر الأطفال. إذاً فلتعُد أدراجها، ولتعدّ هذه السَفرة رحلةً ترفيهية قصيرة، تغيير جو، سوء تفاهم. فلتَعُد إذاً، بلى، ولكن إلى أين؟ إلى المغرب؟ مستحيل، فمهما كلّف الأمر لن تعود أبداً إلى الأعمال البائسة في طنجة، إلى الحياة الضيّقة. حاولت أن تتمالك نفسها، غير أنّها تنبّهت فجأةً إلى حقيقة جهلها المطبق في موضوع الإعاقة، ولا تشعرُ أنّها تملك الطاقة المعنوية الكافية لتحمّل أعباء هذا العمل. لكنّ حملها حقيبتها والصعود مجدداً إلى متن السفينة والنزول مجدداً في ميناء طنجة بات أمراً غير وارد. لم تنبس غيتا بكلمة، لبثت في مكانها تنتظر. وعقب هنيهات من الصمت طلبت سهام أن تقابل الطفلة. فحذّرتها غيتا قائلة:

- لقد أدخلناها المستشفى أمس الأوّل. غفلنا عنها لدقيقة واحدة فوقعت وآذت نفسها. سيتعيّن عليك ألاّ تغفلي عنها لحظة واحدة. فهل أنت مستعدّة لهذا العمل؟

فكّرت في صديقها عازل وقالت في سرّها إن القيام بهذا العمل ليس معيباً.

- أقبل، ولكنني أطمع بشيء من التساهل معي، فأنا لم أتمرّس من قبل على هذا النوع من الرعاية. ولكن ثقي بأنني سأبذل كلّ ما بوسعي لكي تجري الأمور على خير ما يُرام.

جاءت ماريا، الخادمة الأسبانية، حاملةً صينيّة وضعت عليها كؤوس شراب وكعكاً. وبعد ذلك أرشدت سهام إلى غرفتها التي كانت في الحقيقة حجرة واسعة مجهّزةً بسريرين وحمّام. أدركت سهام على الفور أنّها ستنام بجانب الطفلة. جالت في الأرجاء مستعرضة ألعاب وداد الكثيرة، وعلى الجدران مجموعة صورٍ لها منذ ولادتها إلى اليوم. بَدَت جميلة وحزينة. ولكنّ مسحةً من الوقار تجلّل نظرتها.

قدّمت غيتا لسهام هاتفاً نقّالاً.

- يجب أن يبقى شغّالاً طوال الوقت. وطبعاً بإمكانك استعماله للتخابر مع أهلك وأصدقائك.

كاد اللقاء الأول بين سهام ووداد أن يتحوّل إلى إخفاق ذريع. فالصغيرة المتعبة العكرة المزاج جعلت تبكي ورفضت أن تضمّها أمّها إلى صدرها، متجاهلة وجود المربيّة الجديدة. كان خير ما قد تفعله هو عدم التدخّل، والانتظار ريثما تهدأ

العاصفة. فمنذ أن نما في قلب سهام رجاؤها في تحسين أوضاعها، تعلّمت الصبرَ. وعلى الأخص لا توتّر، لا صراخ. أخذت كتاباً وجلست في غرفتها. وعندما دخلت وداد إلى الحجرة ورأت سهام جالسةً على سريرها، أشارت لها بيدها بأن تغادر على الفور.

لم تحرّك سهام ساكناً. وكانت تلك المرّة الأولى التي يتجرأ فيها أحد على تحدّي رغبات الطفلة. تبسّمت وداد واندفعت نحوها منتزعةً الكتابَ من بين يديها. عندئذٍ أدركت سهام أنّها في تلك اللحظة بالذات كَسِبَت شيئاً لا يُقدَّر بثمن: ثقة وداد.

10

سهام وعازل

بعد إقامة عازل لثلاثة أشهر في غرفة الخدم، دعاه ميكال للانتقال إلى غرفة الضيوف التي لا تبعد سوى أمتار عن غرفته الخاصّة. بدا أنّ التوتّر الذي ساد علاقتهما قد هدأ. إذ أقدم عازل مراراً على مرافقة وليّ نعمته في تنقّلاته حاملاً حقيبته. وفي ما تبقّى من الوقت كان يحرس صالة العَرْض، ويجيب على المكالمات الهاتفيّة ويتولّى بعض الأمور الجانبية الأخرى. كان يرتدي ملابس أنيقة بعضها من ملابس ميكال، كما اكتشف للمرّة الأولى كنزات وسترات الكشمير، والأحذية الإنكليزيّة والقمصان المفصّلة خصيصاً على مقاسِه. يُعايش شؤون ميكال وأعماله اليوميّة كأنّه يحيا في إهاب رجلٍ آخر؛ يشعر بارتياحٍ للمرّة الأولى في حياته وللمرّة الأولى يتّسع وقته للاهتمام بنفسِه. عمد ميكال إلى تسجيلِه لتلقّي دروس في الرياضة البدنيّة واليوغا. وبقدر ما استهوته التمارين التي تنشّط جسمه، دروس اليوغا أضجرته. فقرّر أن يهجرَها دون أن يُخطر ميكال بذلك. كانت سهام تتصل به هاتفياً باستمرار. تودّ أن يزورها في ماربيا فهي،

في الحقيقة، لا تستطيع أن تترك الفتاة الصغيرة لحظة واحدة. لشدّة ما ألحّت عليه صمّم أخيراً على الذهاب وكذب على ميكال متذرّعاً بزيارة قريبٍ له مريض في مالاغا. فالكذب هو فرصته الوحيدة لنيل الإذنِ بالابتعاد عنه لفترة وجيزة. جاء جواب ميكال مقتضباً جداً:

- آمل ألاّ يكون قريبك المزعوم هذا هو إحدى النساء اللواتي يُكثرن من التودّد إليك!

- أية نساء يا سيّد ميكال؟

- إيّاك أن تكذب!

- أقسم لك بأني لا أكذب.

- وحده الكذّاب يحلف بأنّه لا يكذب!

ومن جهتها كانت سهام قد فاوضت غيتا على إجازةٍ لا تتعدّى نصف النهار.

- إنّه خطيبي، وهو يعمل في برشلونة، شاب ممتاز، مثقّف، يحمل شهادة جامعية، وكلّ شيء. نحن من المدينة نفسِها، ومن الحيّ نفسِه.

أجابتها غيتا أن هذا ليس من شأنها طالما أنّ الأمر لن يعكّر صفوَ علاقتها مع وداد.

- كوني مطمئنة يا سيّدتي، كلّ شيء سيكون على خير ما يُرام.

كان تلاقيهما من جديد مقتَضباً ولكن بالغ الحرارة. كان واحدهما يتحرّق شوقاً للآخر. بعد المضاجعة واحتساء قنينة نبيذ

وتدخين بضع سكائر، بادر عازل إلى الاعتراف بحقيقة ما يجري:

- لقد أصبحتُ عشيق ميكال.

عَقِبَ صمتٍ مديد، سألته سهام، بغصّةِ الموشك على البكاء، إذا كان يستمتع بذلك.

- لا أدري؛ عندما أضاجعه أفكّر بقوة في امرأة، أنتِ مثلاً. هذا كلّ شيء، الآن تعلمين الحقيقة. عرّيتُ نفسي أمام عينيك. وإذا قرّرتُ ذات يوم أن أتزوّج، فلن أتزوّج سواكِ، لأننا متفاهمان، ونتصارح بكل شيء، كما أنّ صحبتك تشعرني بارتياح.

- الحقيقة أنني لطالما ساورني الشكّ في أنّ أمراً مثل هذا يجري بينكما. دعنا لا نتطرّق إلى هذا الموضوع مرّة أخرى. المهمّ أن نلتقي، لكي نفرّج عن أنفسِنا، ونستعيد قوتنا، لكي نتقن عملنا.

كان عازل يشعر بالخزي. فراح يستفسِر عن وداد.

- يسرّني أن أرعى هذه الفتاة، فمثل هذا العمل يحفزني وفي آخر الأمر أرى أنّه مفيد لي. صحيح أنّه عمل شاق، لا يخلو من المفاجآت، وعنيف أحياناً، ولكنني أدركتُ أنّ التصدّي لهذه الصعاب أمرٌ مفيد جداً من الناحية المعنوية. والدا الفتاة يجيزان لي حريّة التصرّف بالكامل، لذا أشعر بأنني أبني شيئاً إيجابياً مع هذه الطفلة التي ابتليَت بلاءً من غير ذَنْب. ولِدت على هذا النحو، وليس ذَنْب أحد أنها ولدت هكذا. حتّى لو ساورتني في بعض الأحيان شكوكٌ حول وجود الله أو عدم وجوده. فالحقيقة أنّ هؤلاء الأطفال ربّما أرسلوا إلى الأرض

لكي ينشروا قيَمَ الخشوعِ والتواضع بين البشر. لذلك لا أشعرُ، في الوقت الحاضر، أنني أجني من المال ما يكفيني ويكفي عائلتي فحسب، بل أنني أسير على نهجٍ صالح أيضاً. وعندما تعاودني ذكرى أمسيات الحاج، أكتئب. على الأقل أشعر هنا بأنني أقوم بعمل مفيد. ولو بقيتُ هناك كان من الممكن أن انحرف شأن العديد من الأخريات وأن أنضمّ إلى إحدى تلك الشلل، بلى، كان الأمر ممكناً، لِمَ لا، ولكنّي التقيتك، وأغرمت بك. لا لفترة طويلة، ولكن في البداية كنتُ مولعة بك، لا ترى عيناي سواك، وكنتَ أنتَ ودوداً، لطيفاً، لم تكن مغرماً بالتأكيد، ولكن حاضراً في معظم الأحيان... وهأنذا اليوم ألقاك مجدداً بشاربين!

- أوه، فعلتُ هذا انصياعاً لرغبة ميكال، قال لي إنّ الشاربين يلبقان بي...

- إذا كان للأمر صلة بعملك فلا بأس...

- أنت حقاً فتاة طيّبة! كم أودّ أن أكون بمثل صفائك ووضوحك. ولكنّي لم أحبّ يوماً، إنّها إعاقة، شيء ترسَّخ عندي منذ الصغر، الحبّ يليق بالمرأة، وبالمرأة وحدها. أمّا الرجال فيجب أن يكونوا أقوياء، على قدرٍ من الصلابة، وكلّ المفاهيم النمطيّة السائدة من هذا القبيل. اليوم أشعر بأنني مذنب، إذ أعمل لحساب رجلٍ في النهار، وفي الليل يتعيّن عليّ أن أمتّعه. لا أدري كم من الوقت سأصمد أمام وضع كهذا. أحتاج أن ألتقيكِ ما أمكن اللقاء، لأنني أخاف أن يأتي يومٌ تساورني فيه الشكوكُ بشأن ميولي الجنسيّة الحقيقية.

- لا تشغل بالك، ففي الحياة أمور أخرى غير الجنس. في نظري أنت، في المقام الأول، عازل، الرجل الذي أحببتُ والذي ما زلتُ أحبّ. وأفضّل ألاّ أفكّر في ما تفعله لكسبِ الرزق.

ثمّ افترقا بعد أن تعانقا طويلاً.

عند المساء، قام عازل بجولةٍ على حانات مالاغا. التقى أناساً من بلده، معظمهم من المقيمين بصورة غير شرعيّة، فدعاهم لاحتساء كأس، حتّى أنّ أحدهم عرض عليه بعض الحشيش «الريفيّ الخالص». دخّن منه قليلاً، وتجاهل بلطفٍ دعوات مومس إفريقيّة، وصادف تونسيّاً أراد أن يبيعه هاتفاً نقّالاً أو ساعة ذهبيّة. خُيّل إليه أنّه عاد إلى طنجة، في زنقات الـ«بوتي سوكو». تناهت إلى سمعهِ أصوات أولاد يعذّبون هرّاً سقيماً، وأزكمت أنفه روائح مجارير القصبه الكريهة، شاهد صوراً من التلفزيون المغربي حيث شبّان يرتدون أطقماً وربطات عنق يغنّون بفتور، ولمحَ مُرشِداً سابقاً بات فاقِداً بصره يحتسي قهوته الممزوجة بالحليب، ومتسوّلةً تتسكّع بصحبة طفلين، وعلى الأخص خُيّل إليه انّه رأى العافية جالساً في الـ«كافِه سنترال» بجنبِ محمد العربي بلحيته الكثّة الطويلة، مرتدياً جلباباً أبيض. شعر بأنّه وقع في كمين. مجهولون عصبوا عينيه ورموه في شاحنة متوجّهة إلى المغرب. راح يقاوم، يصرخ، فلا يسمعه أحد. كأنّه يهذي. فكان لا بدّ له أن يغادر بأسرع الممكن هذا الحيّ الذي يحتلّه المغاربة. لا بدّ أنّها مفاعيل الحشيش

والكحول. استقلّ سيّارة أجرة وعاد إلى الفندق كي ينام. وإذ ألفى نفسَه في غرفته شعر برغبة في استكمال رسالته إلى بلده، لكنّ الوَهَن أقعده عن الكتابة.

في اليوم التالي، وقبل أن يُغادر إلى المحطّة، تمكّن أخيراً من الانكباب مجدداً على دفترِه:

«هل أنا عنصريّ؟ وهل يُعقَل أن يكون المرء عنصرياً تجاه أهله؟ لِمَ يُثير المغاربة حفيظتي إلى هذا الحد؟ لا يحبّون بعضهم بعضاً ومع ذلك فما إن يوجّه أقلّ انتقاد لبلدهم حتّى تستيقظ فيهم الحَميّةَ ويستبد بهم الغضب. لِمَ أفضّل تحاشيهم؟ أليس ذلك لأنني بالأحرى أتحاشى ذات نفسي، وأهرب منها؟ أنا في حالة هروب. ولستُ فخوراً بذلك. المغاربة الذين التقيتهم أمسِ يذكّرونني، أكثر مما ينبغي، بما كانت لتؤول إليه حالي. سعيُهم قبض ريح، يقبلون ويُدبِرونَ كمثل نحلةٍ مُدوِّمةٍ في قُمقُم لم يبق فيه عسل. تعوِزهم سعة الخَيال. يخضعون، ساعينَ إلَى توفير أسباب العيش بعمليّات تهريبٍ طفيفة، ليس ممّا يُذكَر على الإطلاق، بالكاد ما يُغني فقير. ولأجل ذلك لا بدّ لهم من إعادة بناء الجوطيّة، سوق مدينتهم، وأن يكونوا أهلاً بين أهل، وإن كانوا يبغضون بعضهم بعضاً، أن يُخيّل إليهم، على الأقلّ، أنهم يعيشون في قريتهم، أن يشعروا بالأمان.

أخجل من نفسي. لستُ فخوراً بما أنا عليه... آه يا بلدي العزيز، لو أنّك ترى ما آلت إليه حالي! لا أكفّ عن اختلاق أعذار، والبحث عن تسويات لأبرّر نفسي. أغمض عينيّ كلّما

لمسني ميكال، اغيبُ عنّي، أترك له جسدي، وأذهبُ في نزهةٍ، أتظاهر، أتصنّع، ثمّ أستيقظ، أنهض وأحاول عبثاً أن انظر إلى وجهي في المرآة. كم هو عظيمٌ عاري.

آه، لو كانت أمّي تعلم بحالي! أكاد لا أجرؤ على التفكير فيها. كيف لي أن أقول لها إنّ ابنها ليس عطّاياً، بل رجلاً يستلقي انبطاحاً، مومساً رخيصة، خائناً، مُرتدّاً على هويّته، وجنسه؟ على كلّ حال، لا بدّ أنّها فهمت كلّ شيء من تلقائها، امرأة مثلها لا تُعوزِها الفطنة. ابنها رجلٌ رجلٌ، يضاجع امرأة، يضاجع رجلاً. مثل هذه الأمور لا يُباح بها.

ثمّ إنّي، بصريح القول، أرى في ميكال رجلاً رائعاً، مُرهفَ الذوق، مُحبّاً. إنّه يرى بوضوح أنني لستُ مرتاحاً في السرير إلى جانبه. منذ بضعة أيام غضبَ غضباً شديداً عندما وجد واقيات ذكريّة في جيب سترتي. راح يصيح بأعلى صوته. ليس من مصلحتك ان تعاشر رجالاً آخرين! فعند الضرورة، وأقول عند الضرورة القصوى، أفضّل أن تضاجع امرأة ذات ثديينِ ممتلئين على أن تضاجع رجلاً. هذا أمر فوق طاقتي واحتمالي. هل تفهم جيّداً ما أقول؟ أنتم المغاربة تعشقون الأثداء الممتلئة، وأنتم دائماً أسرى الحنين إلى ثدي أمهاتكم.

كانت تلك مناسبة لأعترف له بعلاقتي مع سهام ذات الثديين الصغيرين!

عند المساء، اختلى ميكال بنفسِه في غرفته. أمّا أنا فغفوتُ في الصالون، أمام شاشة التلفزيون، وبيدي آلة التحكّم من بُعد.

11

محمّد العربي

كان محمد العربي فتى كتوماً. يخطّط منزوياً، بمفردِه، لمغادرة البلاد أخيراً، وتحقيق حلمه. وعده خاله صادق أن يأتي به ذات يوم إلى بلجيكا. وكان خاله هذا قد هاجر إلى بلجيكا قبل عشرين عاماً ووجد عملاً وبقي هناك. لقد أتاحت له صفته كناطق باسم الجالية المسلمة المغربيّة في الحيّ الشمالي من مدينة بروكسيل، أن يكتشف كلّ الأساليبَ والسُّبُل الموازية غير الشرعيّة المحتملة والممكن تخيّلها للرحيل عن البلد. هذا فضلاً عن الصلات العديدة التي أقامها في أوساط المهاجرين. عندما غادر المغرب لم يكن الخالُ صادق أشدّ التزاماً بالإسلام من سواه. شاب في الرابعة والعشرين من عمرِه، يتمتّع بطاقة غير عاديّة على العمل وبرغبة عارمة في النجاح. غير أنّ إقامته في بلجيكا جعلته على صلة يوميّة بأبناء مُهاجِرين في حالٍ من الحيرة والضياع، وبأهلٍ عاجزين، فقدوا السيطرة على أبنائهم، لاسيّما تلك الحاجة لديهم إلى حفظ الصلة بثقافتهم التي لم يبق منها حيث يحيون إلاّ القليل القليل. وهذا القليل يكاد أن يقتصر إجمالاً على

الاحتفال بالمناسبات الدينية، كشهر رمضان وعيد الفطر والعيد الكبير، وإن كان ذبح الخرفان في مغطس الحمّام أو باحة المنزل الخلفيّة قد أصبح أكثر صعوبة. فالجيران وناشطو جمعيّات الرفق بالحيوان اعترضوا على ممارسة هذا التقليد فاضطرّت الدولة إلى التدخّل للحدّ منها. أصبح الخروف يأتيهم من المسلخ مذبوحاً جاهزاً لأن يوضع في الفرن أو لأن يُقطّع. والعيدُ فقد الكثير من روحيّته ومعناه ولكن للضرورة أحكامٌ والتكيّفُ واجب المتّقين. ذات يوم، قرّر صادق، الذي يجيد القراءة والكتابة، أن يضع لائحةً بالأشياء النموذجيّة التي تمتّ بصلةٍ إلى ثقافة محيطه: سجّادة صلاة، سُبحة، حجر أسو مصقول للوضوء، كُسْكسي يوم الجمعة، شاي بالنعناع، جلاّبية لأداء الصلاة، صحن لاقط لالتقاط بثّ التلفزيون المغربي، كعك بالعسل، إبريق شاي، سماطٌ خفيض، بخور، ماء ورد، طربوش أحمر، بابوجان أصفران، ساعة حائط ميناؤها هو عبارة عن صورة لمكّة...

ثمّ توقّف فجأةً متسائلاً بصوت مسموع: واللغة؟ بأي لغة نتكلّم مع أولادنا؟ اللغة العربيّة بلهجتنا المحلّية، لغة على قدر كبير من الشاعرية في بلادنا، وعلى قدر كبير من الغرابة ههنا. فنحن هنا نتكلّم العربيّة مُطعّمةً بفرنسيّة غير متقنة!

وخلُص إلى استنتاج مفاده أنّ الإسلام هو الثقافة التي يحتاج إليها المهاجرون كما يحتاج إليها هو. وعليه، سعى، بمشقّة بالغة، لإقناع أعضاء المجلس البلدي المنتخبين بضرورة تشييد مسجد. وإثر جهودٍ متواصلة بذلها طوال سنوات ثلاث، حظي المهاجرون بفضلِه بمكان متواضع يؤدون فيه الصلاة ولكنّه جُعِلَ

في وسط حيّهم. كان ذلك في مطلع التسعينات، في الفترة ذاتها التي بدأ فيها الجزائريون يتقاتلون فيما بينهم.

أمّا محمد العربي فقد حصل على تأشيرته بسريّة تامة. وكان عازل الذي صادقه لفترة من الزمن ثمّ انقطعت عنه أخبارُه لفترة طويلة، يتساءل في سرّه عمّا إذا كان اختفى، أم أنّه ببساطة قرّر الانتقال إلى حيّ آخر، وإلى صحبةٍ أخرى. لكنّ محمد العربي لم يختفِ، بل كان يعمل في مخبز وكفّ عن الخروج ليلاً. وفي آخر الأمر نسيه الجميع. كان مظهره عادياً، لا طويل القامة ولا قصيرها، كامد البشرة، أسوَد العينين. يذكر عازل أنّه كان يتكلّم بسرعة ويشرب أحياناً وإذا فعل سكر بسرعة واستحال كلامه هذياناً، شاتماً الدين، خالطاً حابل المقدّس بنابلِ الدنيوي. ويذكر على نحوٍ خاص تلك الأمسية التي بدا فيها محمد العربي ناقماً على البشرية جمعاء، شاتماً الربّ وأنبياءه، باصقاً على المارّة مندفعاً لافتعال شجار معهم. حاول الرفاقُ ردعه، ولم يتمكّنوا من ذلك نظراً لما كان يتمتّع به من قوة بدنية هائلة. لم يستطع أحدٌ أن يفهمَ حقيقة هذه السورات المفاجئة العنيفة. والحقيقة أنّ قدراً، ولو قليلاً، من الانتباه كان كافياً لكي يلاحظ المرء أنّه يُعاني من اضطراب نفسيّ فعلي.

بين ليلة وضحاها، تغيّر مظهره وسلوكه. بات مواظباً على ارتياد المسجد للصلاة، وكفّ عن ارتياد المقهى والاختلاط برفاق حيّه. وفي أحد الأيام التقته كنزة في ناحيتهما. فأقبلت عليه لتقبّله على خدّه كما اعتادت أن تفعل منذ صغرهما حين كانا يلعبان معاً. غير أنّه صدّها عنه بجفاء.

- إذا أردت أن أصافح يدك عليك أن تغطيّها بقماش، وأفضّل أيضاً ألاّ تكلّميني بعد اليوم، إنّها مسألة توقير.

حصل محمد العربي على تأشيرة ومنذها لم يلمحه أحدٌ.

فورَ وصوله إلى أوروبا، تولّى خالُه رعايته. وضمّه إلى مجموعة صغيرةٍ كان يتزعّمها ويلتقي أفرادها كلّ مساء لتلاوة القرآن والاستماعِ إلى مصريّ ينسب إلى نفسه صفةَ «العالِم» في الدين. كان في تلك الاجتماعاتِ ما يوحي بأجواء مُغمّة. وكان محمد العربي، القابع، في الأصل، تحت تأثير خالِه، يلزم الصمتَ، يصغي، ويتبع إرشادات العالِم. في كلّ مساء يتحدّث العالِمُ في موضوع جديد: كعلاقة الرجل بالمرأة، على سبيل المثال، أو كيفيّة الحفاظ على قِوامةِ الرجل على المرأة، أو كيف نفضح الدعاوى الغربيّة التي تسعى إلى تقويض سلطة الرجل، أو كيف يفي الرجل بواجبه الزوجي دون الوقوعِ في الرذيلة، وسوى ذلك...

كان العالِم يتطرّق إلى الموضوع بكلام صريحٍ، من غير مواربة:

- حذارِ أن تنسوا يوماً أن كيد المرأة عظيم، هذا ما ورد في تعاليم الله وما نبّهنا إليه؛ واعلموا أنّ الشرّ ينبع من جسد المرأة وقلبها، ولكن الخير أيضاً قد يتجسّد فيهما، ومثالنا على ذلك أمهاتنا... كما أوصيكم التنبّه إلى ما يُحدِق ببناتكم من موارد الهلاك والفساد، هنا في أرض النصارى هذه. أولم تعمد الشرطة قبل أيام فقط إلى استدعاء أحد أصدقائي، وهو رجل فاضل، لغرضِ سؤاله عن ضربه ابنته البكر تأديباً لها لخروجها عن

طوعِه؟ أرادت ان تخرج ليلاً، مزيّنةً مُمَكْيَجةً مستعدّةً للخوض في ما لا تُحمد عقباه، أياً كان! حفظنا الله من كلّ مكروه! هل كان لأحدكم أن يتصوّر يوماً أنّ الأب يُعاقَب في هذه البلاد إذا أراد أن يصون عرض ابنته؟ الغرب سقيمٌ ولا نريد أن يؤخذ أولادنا بعدواه. هل سمع أحدكم بهذه القوانين التي تبيح زواج الرجال من الرجال، لا بل وتبيح لهم تبني الأولاد؟ هذا مجتمع يفقد صوابه! ولذلك يجب أن تضاعفوا الحرص على أولادكم، ولاسيّما البنات منهم، كي لا يقعنَ في أشراكِ الرذيلة. أنظروا من حولكم جدران بروكسيل، ويسمّون هذا إعلاناً: فتيات شبه عاريات يستعرضن فروجهنّ ترويجاً لهذه الماركة أو تلك من ماركات السيّارات! رجال مُمَكْيَجون كالنساء يروّجون لصنفٍ من العطور! نحن لا نشاطرهم شيئاً من هذا الفجور كلّه، من هذا التغاضي عن القيم، ونسيان العائلة، وعدم احترام المسنّين. نحن هنا لأن قدرنا شاءَ، لأنّ الله شاء، ونحن عبيد الله الذي يرعانا ويبتلينا بلاءً مقدّراً. فهل نهِبُ هذا المجتمع الكافر أولادَنا؟ هل نقف حيالَ ما نشهده مكتوفي الأيدي، معقودي اللسان؟ لا يا إخوتي، نحن مسلمون، مسؤولون ومتضامنون، وننتمي إلى دار واحدة، إلى أمّة واحدة، هي **الأمّة الإسلامية!** ولن يرتدّ أحدٌ منا على دار الإسلام العظيم. لقد ولدنا مسلمين ومسلمينَ سوف نلاقي وجه الخالق.

طبعاً كان العالِمُ يردّد في موعظته ما يتردّد على ألسن المهاجرين في المقاهي. أحاديث غير مبتكَرةٍ، ولا تنطوي على أي جديد. الأرجح أنّ محمّد العربي سمع الكثير منها من قبل،

حتّى في طنجة، وخاصّة في فصل الصيف عندما تعود الأسر المهاجرة لقضاء العطلة في البلاد. أم أنّه لا يذكر من كلّ هذا سوى أولئك الفتية المراهقين، المتعجرفين المزدرين، أولئك الفتية غير المتعلّمين، المتمرّسين بالعنف، أنصاف الأوروبيين أنصاف المغاربة، الجوّالين بسيّاراتهم الفخمة. وأكثر ما كان يُحيّره هو هذا التفصيل الأخير. من أين لهم هذا المال كلّه؟ كان البعض يزعم أنّها مجرد سيّارات مستأجرة للتباهي، فيما البعض الآخر يرى في الأمر صلةً بتهريب الكَيْف. ولكن يبقى المشهد الإجمالي غامضاً مشوّشاً ولا يُعطي عن الهجرةِ صورةً مشرِقة.

كان محمّد العربي يعرف القرآن جيّداً لأنّه حفظه غيباً في صغره. في ذلك الوقت لم يكن مُدركاً معاني ما يحفظه غير أنّ الآيات لبِثَت محفورة في ذاكرته. في بروكسيل، حيث تدبّر له خاله عملاً في مخزن لبيع قطع الغيار، انكبّ للمرّة الأولى على قراءة الكتاب الكريم بتمعّن. كان العالِم قد وهبَه نسخةً منه موضحاً أنّه قد يفسّر له بعض السوَر حالما يفرغ من قراءته كاملاً. في الأثناء بلغه أنّ للعالِم زوجتين تعيشان معاً تحت سقف واحد. ذات يوم جمعة، دعاه بعد الصلاة إلى بيته ليأكل عنده الكُسكسي. وفيما كان يخلع نعليه عند الباب لَمَحَ وجه فتاة حسناء مختبئة خلف ستارة تراقبه. لم يلحظ الأبُ شيئاً مما جرى بل تابع موعظته كأنّه لا يزال في المسجد. ولمّا انتعل حذاءه مغادراً أحسّ بأن شيئاً قد دسّ في إحدى فردتيه. أخرج من فردة الحذاء ورقةً مجعوكة ككرة سارع إلى دسّها في جيبه. وما إن

غفل العالِمُ عنه حتّى سارع إلى قراءتها: اتصل بي هاتفياً على هذا الرقم بين الخامسة والسادسة مساءً، ناديا، فتاة ما وراء الستارة.

لشدّة ما احتار في أمرِه، لبث لبعض الوقت متردّداً قبل أن يتصل. كان الرقم رقم هاتف نقّال. تردّدت في ذهنه بعض التخمينات والتكهّنات ثمّ اتصل من هاتف عمومي. ناديا التي ردّت على الفور، تكلّمت بلا مواربة في سيلٍ متسارع من الكلام فقالت:

- أنا مُعاقَبة، حَبَسني أبي في البيت لأنه ضبطني وأنا أكلّم فتىً لدى خروجنا من المدرسة. مُنِعتُ من مغادرة البيت وأعتقد أنّه أبلغ المدير بأنني لن أتابع دروسي. أبوسعكَ أن تساعدني، أن تنقذني؟ لا تطلع أحداً على هذا الأمر، ولكن تدبّر ذريعةً للمجيء مرّة ثانية إلى بيتنا، أطلب يدي، وخذني معك، لستُ راغبة في الزواج، ولكن إذا كان الزواج هو فرصتي الوحيدة لتجاوز محنتي فلا مانع عندي. عمري سبعة عشر عاماً ونصف العام، وإني أختنق في هذا البيت، لقد فقد أبي رشده، وكلّ شقيقاتي غدونَ حبيسات أزواجٍ لم يرغبنَ في الزواج منهم. وأنا أرتاب الآن في أمرٍ مماثل يدبّره لي، أو إذا شئتَ قد نهرب سوياً. يجب أن أنهي المكالمة، فهذا هاتف شقيقي الأكبر، وسيعود عمّا قريب من المسجد الذي قصده بصحبة أبي. ألديك رقم هاتف؟

- لا، أنا أخابرك من هاتف عمومي...

- اتصل بي مجدداً يوم الخميس ظهراً.

شاعت الصُدَف أن يقدّم العالِمُ لمحمّد العربي هاتفاً نقّالاً كهدية، في الأسبوع ذاتِه. جاءت هدية العالِم هذه استعداداً لسفرِه الوشيك إلى مصر حيث سيتابع دروساً في الدين. إنّها فرصة عظيمة، قال خاله مشجّعاً.

– لقد نلتَ ثقةَ العالِم، فلا تخيّب آماله. أنت في عداد عشرة طلاّب سوف يوفدون إلى القاهرة، وهناك سيتولاّهم الإخوة بكلّ الرعاية الممكنة. سوف ترى بأمّ العين، القاهرة مدينة جميلة، والإخوة أناس طيبون جداً، مسلمون صالحون يجاهدون ضدّ الفساد والرذيلة.

كان اتصاله بناديا هو أوّل اتصال يُجريه من هاتفه الجديد. فردّ عليه العالِم الذي تعرّف إلى رقم الهاتف. لم يغضب، لم ينبس بحرف، لكنّه اختلى بنفسِه في غرفته وأجرى مكالمات بلغةٍ مشفّرة. في ذلك اليوم تحدّد مصير محمد العربي. من مصر أوفدَ إلى معسكر تدريب في باكستان، ولم يعد من هناك أبداً.

12

مَليكة

مليكة الصغيرة كانت جارة عازل. ذات يوم طرقت بابَه وطلبت إليه أن يُريها شهاداته الجامعيّة. أدهشه تصرّفها الغريب، غير أنّه دعاها إلى الدخول، وسألها إذا كانت تودّ أن تشرب كوباً من الليموناضة. كانت إفادتا إجازتيه في الحقوق والعلاقات الدولية معلّقتين ضمن إطارين على أحد جدران الصالون.

- هذه هي، خمس سنوات من الدراسة في الرباط. خمس سنوات من الأمل، ثمّ انعدام الفرص. فخر أمّي وأوّل همومها. ولكن أنتِ، أرجو أن تكوني ما زلتِ في المدرسة وأنك ستتابعين دراساتك العليا لكي تحظي بوظيفةٍ محترمة. ما خططك للمستقبل؟

- الرحيل.

- الرحيل؟ هذا، في حدود علمي، ليس مهنة!

- عندما أرحل، سوف أحظى بمهنة.

- الرحيل إلى أين؟

- الرحيل إلى أي مكان، إلى الجهة المقابلة على سبيل المثال.

- إلى أسبانيا؟

- أجل، إلى أسبانيا، إلى فرنسا، منذ الآن أقطنها في أحلامي.

- وهل تشعرين بالراحة هناك؟

- بحسبِ الليالي.

- ماذا تقصدين؟

- الحقيقة، أنّ الأمرَ وَقفٌ على الغيوم، فبالنسبة لي الغيوم هي بُسُطُ طائرة أسافر على متنها ليلاً، وقد أقع أحياناً وعندئذ أستيقظُ بكدمةٍ على الجبين.

- يا لكِ من حالمة!

- لست حالمة وحسب. وإنما أيضاً لديّ أفكار وخطط، ثمّ سوف ترى، سأتمكّن من تحقيقها.

قدّم لها عازل تفاحة ورافقها إلى بيتها. لقد أدهشَه وأثّر فيه بالغ التأثير ما أبدته هذه الصَبيّة من عزمٍ وتصميم.

كان يُصادفُ كلّ يوم فتياتٍ مثلها. يلمحهنّ عابراتٍ زرافاتٍ، وقد غطّين رؤوسهنّ بخمارٍ، صامتاتٍ، مقداماتٍ، لا يَهَبْنَ مواجهة صقيع مصنع القُرَيْدِس.

أريجُ طفولة يفوحُ من حلم مَليكة. لا بدّ أنّها كافحت كفاحاً مرّاً لإقناعِ والديها بأن يأذنا لَها بارتياد ثانوية ابن بطوطة في طنجة. تذهب إليها سيراً على الأقدام وفي معظم الأحيان تصلُ

إليها متأخّرة. طبعاً هناك حافلات ولكنّها لا تملك ثمن التذكرة. تمشي بخطىً حثيثة، مُطرِقةً. وفيما تحثّ الخطى تتزاحمُ في رأسِها الفِكَرُ فتضلّ طريقَها أحياناً. دائماً تقودها قدماها إلى جادّة «باستور»، إلى ساحة «الكسالى»(*) الذي منهُ يُرى المرفأ وفي أوقات الصحو تُرى الشواطئ الأسبانية. تقف هناك وتراقبُ مطوّلاً حركة السفن المُبحرةِ والمُساحِلة. تعشق مراقبة السفن البيض. وشيئاً فشيئاً تسهو عن نفسِها، ثمّ تنتبِه وتسأل عابرَ سبيل عن الساعة لتُهرَع راكضةً إلى المدرسة.

مهما حاولت لا تفلِح مَليكة في إحراز علاماتٍ جيّدةٍ في الصفّ. إذ أنّها تكاد ألاّ تجد في البيتَ رُكناً خالياً لمراجعة دروسها وإنجاز واجباتها المدرسيّة. لذا تخرج أحياناً إلى الشارع وتجلس تحت مصباحٍ عموميّ لتحفظ دروسها. يحدث أن يلتقيها والدها خارجَ البيت فيأمرها بقسوةٍ أن تعود إلى البيت. والدها فلاّح من منطقة فحص. عامل بناء يكسب القليل. لكنّ الأهمّ من ذلك كلّه هو أنّه لا يرى فائدةً من ارتيادها المدرسة. ففي عرفِه الفتاة خُلِقَت لكي تلزم بيتها. ومن الأفضل لمَليكة أن تعمل خادمةً في البيوت إلى أن يدبّروا لها عريساً.

عندما بلَغَت الرابعة عشرة، اعتبر والدها أنّها حصّلت من العلم كفايةً. ومنعها من ارتياد المدرسة بذريعةِ أنّ العلمَ لا ينفع بأية حال. وخاطبها قائلاً أنظري من حولِك، عزّ العرب مثلاً، ابن للاّ زُهرة جارتنا، لقد درس لسنوات طويلة، وكم ضحّت

(*) ساحة بقرب سور «المعكازين» (الكسالى) في طنجة تحمل الاسمَ نفسه. م.

والدته لأجله، وحاز على شهادات، شهادات عليا، وكما ترين، لم تجده الشهادات نفعاً، لقد رأيتها بنفسِك معلّقة على جدار الصالون. وكم وكم دوّخه البحث عن عمل، ولكن عبثاً. هذا وعزّ العرب شاب، رجل، فما بالك لو كان المعنيّ بنتاً، مثلك! ثمّ إياكِ والخروج عن طوعي!

وهكذا شأن رفيقتها عشّوشة، وجارتها حفصة، وابنة عمّها فاطمة، عملت مَليكة في تقشير القريدس في المصنع الهولنديّ القائم في المنطقة الحرّة من المرفأ. شاحنات مبرّدة تنقل إليها يومياً أطناناً من القريدس المطبوخ المستورَد من تايلنده مروراً بهولنده حيثُ يُعدّ للتعليب. ولدى وصولِه إلى هنا، تعمل أيادٍ صغيرةٌ بأصابع رشيقة على تقشيره ليلَ نهار. ومن هناك يُنقلَ القريدس إلى قَصْدِه الأخير حيث يُعلّب قبل أن تتدفّق كميات كبيرة منه على السوق الأوروبية. في طنجة تتقاضى الفتيات أجوراً زهيدة لقاء عملهنّ. فحتّى لو بذلنَ أقصى جهودهنّ، قليلات منهنّ يتخطّين معدّل الخمسة كيلوغرامات في اليوم. وعلى كلّ حال، لم تتمكّن مَليكة يوماً حتّى من بلوغ هذا المعدّل. لذلك فهي تعود كلّ يوم بخمسين درهماً كحدّ أقصى، تعطيها من فورِها إلى أمّها. تشكُو باستمرار من البرد. كما أنّ إحساسها بأصابعها أضحى شبه معدوم.

كانت في المصنع تتحسّر على أيام المدرسة، والفَلتاتُ إلى ساحة الكسالى لتأمُّل البحر. في المصنعِ لا يُتاح لها أن ترفع رأسَها، تؤدّي حركاتٍ آلية ولا تضيّع الوقت. ولدى عودتها مَشياً

عند المساء، تكون راغبةً عن أي شيء. في بعض الأحيان تمرّ بناحية مدرستها وتسرح بها مخيّلتها مفتكرةً بما كانت لتؤول إليه حالها لو أنّها أكملت دراستها. غير أنّ حلمها، حلم الرحيل، والعمل، وكسب المال، أضحى مُثيراً للسخرية. فهي باتت تعاني من أوجاع في الظهر، أمّا أصابعها فغدت أشبه بالقريدِس الذي تقشّره، ورديّة اللونِ تالفة.

لم يمرّ وقت طويل قبل أن تدرك مَليكة أنّها لن تصمد طويلاً في عملها هذا. إذ كانت الفتيات يتركنَ العملَ في العادةِ بمضيّ ستة أشهر بأصابع مصابة بالقوباء وبعضهنّ بذاتِ الرئة.

لمّا لاحظت زينب، أختها البكر، اعتلال صحّتها استضافتها في بيتها لكي ترعاها. لم تتخلّ مَليكة عن حلمها غير أنّها ما كانت لتجرؤ على البوحِ به لأختها، مؤثرةً، ضنّاً به، أن تبقيهِ في سرّها. وذات يوم ساورها ما يشبه اليقين بأنّها ستركب السفينة، في آخر الأمر، التي ستحملها إلى ألجسيراس أو طريفة، وستنزل في أسبانيا وتجد عملاً هناك. سوف تعمل بائعة في أحد المخازن الكبرى، «أل كورتي إنكليس» مَثلاً، الذي سمعت عنه الكثير، أو كوافيرة، أو، وهذا ما لا تجرؤ حتّى أن يخطر ببالها، عارضة أزياء. وهكذا سيتسنّى لها أن ترتدي ملابس أنيقة من كلّ الألوان، وتُلتَقط لها صورٌ، وتغدو جميلة. سوف تنتظر بلوغها سنّ الثامنة عشرة لكي تحصل على جواز سفر. ولكن قد يحالفها الحظ، ككثيراتٍ سواها، فلا تُضطرّ إلى الانتظار كلّ هذه السنين. وقد تعبر المضيق على متن زورق، أو داخل حاوية في شاحنة من شاحنات القريدس. . .

كان زوج شقيقة مَليكة صيّاداً، رجلاً مستقيماً وسَمْحاً؛ مُلتحياً لا يفوته فرضٌ واحد من فروض الصلاة الخمسة. لم يعترض على استضافة مَليكة في بيته، مُستَفظعاً هول الاستغلال الذي تتعرّض له في المصنع. وواظبَت مَليكة على ارتداء الخمار الذي اعتادت أن ترتديه في المصنع لدواعي النظافة، إرضاءً لصهرِها. لم ترغب في التسبّب بمشاكل من أي نوعٍ، هذا فضلاً عن أنّه يعاملها كابنةٍ له. كانت تساعد أختَها وترعى الأولاد، وحلمُها ينمو ويكبر في سرّها. لم يمض وقت طويل حتّى أدركت أنّ الصيّادَ لا يحب الأسبان كثيراً. يصفهم بأنهم عنصريون، يزدرون الموريسك وينهبون ثروات السواحل المغربيّة من طريق استخدامهم لشباكٍ مخالفة للمواصفات المعتمدة في الصيّد البحري. هو شخصياً لم يذهب إلى أسبانيا من قبل، ولكنّ أخاه الذي يعمل في إل إيخيدو،بنواحي الأندلس، أخبره بذلك. لم يكن بوسع مَليكة، ابنة الرابعة عشرة، أن تبتعد كثيراً عن محيط منزل أختها، لكنّها انتبهت إلى وجود سلّم يفضي إلى سماءٍ صافيةٍ باستمرار. فراحت تتسلّقه في بعض الأوقات من دون أن تحدث ضجّة أو تثير شكوك صهرها، وتختلي بنفسِها لهنيهات. في الأعلى توجد شرفة ضيّقة، كانت مَليكة تسترخي فيها مغمضةً عينيها. نسائم عليلة تداعب شعرها المُسبَل، فتسرحُ بأفكارِها إلى أبعد الممكنِ دونما جُهدٍ، دونما صيحة أو كلمة. غبطةٌ تغمرها لأنّها تحلّق فوق بحرٍ رقراق الزُرقة.

لفرط ما قشّرت المزيد والمزيد من القريدس أضحت أصابعها شفّافة تماماً. كانت تخاف أن تفقدها، أن تتساقط

كأوراقِ الشجر الذابلة. تطويها قليلاً فتتألّم. ولكن حين تحلّق مع هبّات النسيم، يزول شعورَها بالألم. وفي تحليقها مع الهواء غالباً ما تصادفُ أطفالاً آخرين ملفوفين بملاءة بيضاء، قاصدينَ مكاناً ما، مُستغرقين في سهوِهم لكنَّ الدَعةَ تكتنف نفوسهم. قيل لها ذات يوم إنّ الأطفال حين يموتون يصبحون ملائكة ويذهبون مباشرةً إلى الجنّة. وأدركت مَليكة للتوّ أنّ طريق الجنّة يمرّ بشرفتها.

لدى عودتها إلى غرفتها الضيّقة ساورها ما يشبه الشكّ: إذ لم يكن الملائكة ذاهبين باتجاه أسبانيا، بل، على العكس، كانوا ذاهبين باتجاه الداخل المغربيّ.

وقطعت لنفسِها عهداً بأن تتثبّت، في المرّة المُقبلة، من الوجهة التي يسلكها الملائكة.

لم يُمهِلها السعالُ هنيهةً من الراحةِ طوال الليل، وأرعدَتها الحمّى. لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي تمرض فيها. ففتيات الجمبري جميعهنّ يُصَبنَ بالحمّى. امتحانٌ لقدرة جسدها النحيل وصحّتها العليلة على الاحتمال. ولكي تقاوم، لكي تنسى، جعلت تفكّر بالسلّم وبزرقة السماء. في تلك الليلة رأت نفسَها ملفوفة بدورِها بملاءة بيضاء، كانت تطفو على صفحةِ الماء. فَزِعت، واستيقظت باكية. فاحتضنتها أختها وأعطتها قرص أسبيرين.

13

سُمَيّة

قرّر عازل أن يقصدَ المبغى مرّةً في الأسبوع على الأقلّ. إنّها مسألة مهمّة في نظرِه. فهو يضاجع ميكال لكنّه لا يستمتع إلاّ مع النساء. ولمّا كان نادراً ما تحظى سهام بإجازة من عملِها، حَرص عازل كلّ الحرص على الحفاظ على هويّته الجنسيّة عبر علاقاتٍ مع فتيات مغربيّات كان يلتقيهنّ في مقهى **القصَبة**. حانة مشبعة بروائح الخمرة الرديئة والسكائر، ويرتادها مغاربةٌ في الأغلب، كما تلجأ إليها فتياتٌ يعشن حالة من العسر. صاحبُ الحانة الملقّب **إل كوديّو** بسبب شبهه بفرانكو، كان في الأصلِ غنّاماً من نادور. تزوّج من أسبانية ومنذ ذلك الحين لم تطأ قدمه أرض المغرب. كان يردّد على الدوام أنّه لا يفتقد حياته في المغرب. لقد عاش طفولةً قاسيّة وبائسة، أمضى صباه منغمساً في عمليات تهريب صغيرة بين الريف والأطلس. إذ ليس مقّدراً له بأية حال، كما كان يردّد بشيء من الاستهزاء، أن ينعم بـ«السعادة على الطريقة المغربيّة».

وعندما يُسأل عن بلده، يسترسلُ في ملاحظاتٍ عامّة مطعّمةٍ

ببعض الحقائق التافهة: في المغرب، يتعيّن على المرء أن يحيا كما يحيا جميع الناس، أن يذبح خروف العيد الكبير بيديه، وأن يتزوّج من فتاة عذراء، وأن يقضي في المقهى ساعاتٍ منصرفاً إلى اغتياب الناس، أو، في أحسن الأحوال، إلى المقارنة بين أسعار السيّارات الألمانية، والحديث عن التلفزيون، والتوقّف عن تعاطي الخمر لثلاثة أيام قبل رمضان وبعده، والبَصْق على الأرضيّة، ومحاولة تجاوز الآخرين، والتدخّل في كلّ شيء، وقولة نعم واللا هي المُضمَرة، وتذييل كلّ عبارة بعبارة «ما كاين مُشكِل»، ثمّ العودة إلى البيت مساءً بعد احتساء عدد من قناني البيرة بصحبة الرفاق، والجلوس إلى طاولة الطعام والأكل حتّى التخمة مثل خنزير. وختاماً لنهارِه الطويل يأوي هذا الخنزير إلى فراشِه وينتظر ريثما تنهي زوجته ترتيب البيت كي يدخل بها، لكنّها تبطئ قليلاً فيغفو ويعلو صوتُ نخيره.

كان عازل يَوَدُّ إلكوديّو، ولا يحرجه بأسئلةٍ حول حياته وماضيه أو أصوله. في حانته التقى سمّية وهي فتاة من وَجدة قَدِمت إلى أسبانيا مع زوجها الذي هجرها ولم يترك لها فلساً واحداً. قصّة لا تمانع في سردها وإنْ ارتاب السامعُ بأنّ بعضها مُختلَق. فحقيقة الأمر لا تتصف بهذا الطابع الحالِم الروائيّ. ومفادها أنّ عشيقاً كويتياً بذلَ لها وعوداً مبالغاً فيها، كالزواج والحياة المرفّهة... فقدما سوياً إلى أسبانيا وأقاما في أحد الفنادق. غير أنّه في إحدى الليالي، سدّد حِساب الغرفة لمدّة شهر، وترك لها مبلغاً كبيراً من المال، وتسلّل عائداً إلى أسرته الصغيرة في الكويت، من دون أن يُعلِمها بالأمر. وطبعاً لم

يمض وقتٌ طويل قبل أن تنفقَ مالَها كلّه، وعوض أن تقرّر العودة إلى المغرب لَبِثَت في أسبانيا مُفلِسة، مُنقادةً لحياة الفسق التي لا تتطلّب جهداً. وهكذا قادتها الصدفة ذات مساء إلى حانة القصبة. أحسنت زوجة الكوديّو وفادتها واقترحت عليها أن تعمل في المطبخ.

عندما رآها عازل للمرّة الأولى أدرك في سرّه أنّها ستغدو عشيقته. ذلك أنّ طريقتها في النظرِ إلى الرجال أشبه بدعوةٍ إلى الحبّ. كانت أحوالها قد تحسّنت على نحو ملحوظ منذ أن بدأت العمل لدى الكوديّو، فالأطباق المغربيّة التي تعدّها تلقى طلباً ملحوظاً. كما استأجرت غرفة متواضعة في الطبقة الأخيرة من أحد المباني المجاورة للحانة. ومع ذلك كانت تمرّ بأوقات تتحسّر فيها على مصيرها. تفتقد بلدها كثيراً، ولكن قبل اتخاذ القرار بالعودة إليه ينبغي لها أن تجني بعض المال. وعندما تخابر عائلتها تحدّث الجميع عن سليم، الزوج الكويتي المسافر، وتقول لهم إنّها ستزورهم عمّا قريب.

في إحدى الليالي استبدّ بها الحنين إلى بلدها، فطوّقها عازل بذراعيه وكفكف دموعها مُنشِداً في أذنها أغنية شعبيّة مكرورة أضحكتها. وباحَت له بشيء من الحرَج بمكنون صدرِها:

- لم أتصوّر يوماً أنني سأغدو خادمةً في حانة. لو علم أهلي بحالي هذه لجنّ جنونهم. أبي موظف كبير في ولاية طنجة، وأمّي تدرّس اللغة العربية في مدرسة خاصة. لطالما كنتُ الابنة المدلّلة ولعلّ هذا ما أورثني هذه الاستداراتِ البارزة في قوامي... فالرجال لا يكرهون المرأة ذات المفاتن البارزة. سليم

كان متيّماً بحبّي؛ كان يجثو على ركبتيه متوسّلاً: اطلبي فتنالي! لقد أحبّني ولكنّ الواجبَ دعاه، فرجال تلك البقعة من العالم ليسوا أحراراً، وكنتُ أعلم ذلك. يأتون إلى المغرب ويقضون أوقاتاً ممتعة ويُغدقون الوعود قبل أن يعودوا إلى بلادهم. ومع ذلك لديّ صديقة تُدعى وفاء وفّقت بالزواج من سعوديّ وهي تعيش هناك الآن، لا أدري إذا كانت سعيدة، لكنّها، في الأقلّ، لا تعمل طبّاخة في حانة أسبانية. هي أيضاً لم تعد إلى المغرب مطلقاً ولم يستطع أهلها الحصول على تأشيرة لزيارتها. لعلّها ميتة، أو حبيسة أحد تلك القصور ذات البوّابات المحروسة بشدّة.

- كم أنت طيّبة القلب! أقصد أنتِ حقّاً مفعمة بالطيبة!

- كما أنني بارعة في الفراش! الحقيقة أنّني نادراً ما أستطيع التحدّث إلى مغربيّ بتلقائيّة. ولكنّ الأمر معك مختلف. قل لي، لِمَ يُساءُ فهم المرأة التي تحبّ الرجال؟ لقد أخِذ عليّ مراراً أنني أظهر للرجالِ حبّي لهم. أنا لا أستطيع أن أخفي مشاعري، وعندما ألمح رجلاً يستهويني، أصارِحه على الفور. فما العيب في ذلك؟

المضاجعة على سرير ضيّق أشبه بالألعاب البهلوانية. آخر الأمر، افترش عازل وسُميّة أرضيّة الغرفة، وضحكا طويلاً من الوضعيّات المعقّدة التي اضطرّا إلى اللجوء إليها. استمتعا وعبّرا صراحةً عن مشاعرهما. كانت سُميّة تضع عطراً نفّاذاً لتزيل عن جسمها روائح المطبخ. ولكن مهما كرّرت الاستحمام، ومهما تعطّرت بماء الكولونيا والعطور، فإنّ الرائحة لن تزول. وهذا ما لم يجرؤ عازل على مصارحتها به.

14

عازل

- عندما تذهب في المرّة المقبلة للقاء قحبَتِكَ، أخطرني بالأمر أولاً لكي أشتري لها قارورة عطرٍ تقدّمها لها هدية من قِبَلي...

ميكال لم يكن غاضباً، وإنّما أزعجته تلك الآثار البادية للعيان المتبقيّة من مغامرات عشيقه.

عازل لزمَ الصمتَ مُطرِقاً، قبل أن يختلي بنفسِه في حجرة الاستحمام. لقد أدرك أنّه سينام الليلةَ في غرفته. والحقيقة أنّه، في قرارته، لن يُزعجه أن يكون وحيداً مجدّداً. كان يعلم جيّداً أنّه سينفصل عن ميكال ذات يوم، لكنّ هذا اليوم لم يأتِ بعد. لاسيّما أنّ أمّه وأخته تلحّان عليه كثيراً في هذه الآونة. تهاتفانه مراراً في الأسبوع الواحد. وفي كلّ مرّة تهمسُ أمّه، بلهجتها العَذبةِ المفعمة بالحنين، قائلةً:

- كيف حالك، يا ولدي الحبيب؟ أرجو أن يكون لديك كلّ ما تحتاج إليه؟ هل تأكل جيّداً، على الأقلّ؟ أخبرني كيف

تمضي أيّامك. هل تفكّر فيّ أحياناً؟ كم أتشوّق لرؤياك مجدداً! لا يُغمض لي جفنٌ قبل أن أدعو لكَ كلّ الدعاء! أنتَ تعلم أنّ الله يسمع دعائي! هل قمتَ بما طلبته منك في المرّة الماضية من أجل كنزة؟ هل كلّمت النصراني بهذا الخصوص؟ إنّه مُحِبّ وكريم ولن يرفض إسداءك الخدمة التي طلبتها منك، أليس كذلك؟ هيّا، تحدّث إلى كنزة، أمّا أنا فأضمّك بقوة إلى صدري، يا ولدي الحبيب.

تكلّمت كنزة مباشرةً، بلا لفّ أو دوران.

- هل سألته؟

- لا، لم أفعل بعدُ.

- ولكنّي أريد أن أعلم! ماذا تنتظر؟

- الأمر حسّاس، تعلمين...

- ما الذي تسعى وراءه، في آخر الأمر؟ أن يُسديك هذه الخدمة بعد أن يزول حبّك من قلبِه؟ بعد أن يلتقي شخصاً آخر، أجمل وأذكى وأمكر منك؟

- سوف أعاود الاتصال بكِ عمّا قريب، أعدِكُ بذلك.

كان عازل في حيرةٍ من أمرِه يتساءل كيف له أن يتصرّف بهذا الشأن. جلّ ما أراده هو أن ينتظر على الأقلّ مناسبة مرور عام على لقائهما. فهو من اقترح على ميكال أن يقيم حفلاً للأصدقاء في بيته. واستهوته الفكرة. حفلٌ يُنسيه نَكَد الأيّام،

ولقاء الأصحاب مجدداً، والتوهّم بأن الحبّ أقوى من أي شيء، لِمَ لا على كلّ حال؟

أمّا ميكال فلم يغترّ، في ما يعنيه، بجدوى الفكرة. كان يعلم علمَ اليقين أن عازل ليس مغرماً به، وإنّما يستغلّ الموقف. طبعاً لم تكن الأمور على هذا القدر من البساطة. فعلاقتهما يتخلّلها لحظات من الحنان الحقيقي، لحظات تشعرهما حقّاً بأنّ أحدهما قريبٌ من الآخر. لكنّ عازل لا يستسلم لمثل هذه اللحظات إلاّ بحساب، وسرعان ما يستعيد السيطرة على نفسِه، خشية الانقياد وراء نوازعه. لا يستطيع أن يكون تلقائياً أثناء المضاجعة. مع النساء هناك دائماً جنس وكلام منمّق. أمّا مع ميكال فقد كان عازل يغمض عينيه ولا ينبس ببنتِ شفة.

لم ير ميكال في يومٍ من الأيام أنّ فرق السنّ والثقافة بينهما قد يشكّل عقبة. ولم يَكن عازل في نظرِه سوى شاب حائر مصيره الضياع في قاعِ مدينة طنجة، على الرغم من شهاداته وما يتمتّع به من ذكاء وفطنة. فتى جذّابٌ بقدر ما هو مزعج، متناقضٌ وغير متماسك في وقتٍ معاً، هذا فضلاً عن ميلِه الواضح إلى سهولةِ العيش والكسل. كم كان يودّ أن يهزّ كيانه بعنف، أن يبثّ فيه المزيد من الحيوية، أن يجعله معنياً بما يشهد ويُقاسي. كم كان يودّ أن يلحظ تبدّلاً في شخصيّته، فيمسك بزمام الأمور، تماماً كما فعل هو لمّا كان في مثل سنّه. غير أنّه لطالما أحجم عن عقد هذه المقارنة. فالزمن الحاضر أشدّ صعوبة وقسوة مما كان عليه في الماضي، ويتطلّب من المرء كفاحاً متصلاً بلا هوادة، لا شيء مكتسباً سلفاً، لا شيء مِنْحة،

سواء كان من الهامشيين جنسياً أو سليل البورجوازية الصغيرة الكاثوليكيّة الفرانكوية.

كان عازل يُدير أعمال صالة العرض على نحوٍ متقلّب. وكان يُدهِش ربّ عمله لما يُبديه من براعة في مجالي التجارة والعلاقات العامّة؛ ولقدرته على جذب الزبائن مستغلاً مظهره الشرقيّ الذي يُعنى به كثيراً، ومُستعيناً، في الوقت نفسِه، بمزية الفاعليّة الغربيّة التي اكتسبها من خبرة ميكال في هذا المجال. سوى أنّه كان يختفي في بعض الفترات، ويتغيّب دون سابق إنذار، لأيّام عدّة، ثمّ يعودُ وَسِخاً نابتَ اللحيةِ كئيباً. ولا يتنازل حتّى بالإجابة عن استفسارات ميكال الذي يُرغي ويُزبد لشعورِه بالعجزِ ولشكّه المتزايد في أنّ عازل أضحى ألعوبةً بيدِ مهرّبٍ أو قوّادٍ ما. والحقيقة أنّه كان مخطئاً في ظنّه. الحقيقة أبسط من الظنّ بكثير؛ ففي فتراتِ تواريه عن الأنظار، كان عازل يلجأ إلى سُميّة. وكانت سُميّة تلقّنه فنون الشبق التي لم يُتح له أن يختبرها مع سهام. سُميّة لا تعرف حشمةً أو محرّماً، تستسلمُ فلا تكتم شيئاً من شغفها بما تسمّيه «الرذيلة». كانت تتفنّن في تمرير لسانها بارتخاءٍ على جسمِ عازل، متريّثةً عند مواضع منه أكثر من سواها كالفخذين وظاهر الإليتين. حتّى أنّه سألها مراراً أين تعلّمت هذه الفنون التي تمنحه ذروةَ اللذّة، وكانت تجيبُ أنّها تهتدي بالحَدْسِ. الحريّة لا تهتدي إلاّ بالرغبة!

ذات يوم، ولدى عودة عازل من إحدى فَلْتاتِه إلى أحضان سُميّة، أراد ميكال أن يضع حدّاً نهائياً لهذا التسكّع المتكرّر:

- تفوح منك رائحة امرأة! وليَكُن في عِلمِكَ أنّه ليس من حقّ أحد في هذا البيت أن تفوح منه رائحة أنثى. وللمناسبة لا تحلق ذقنكَ وخصوصاً شاربيك. غداً، سوف نمرح كثيراً!

استحمّ عازل ولَبِثَ منتظراً الأوامر. كان ميكال قد دعا نحو ثلاثين شخصاً إلى سهرة تنكّرية اختار لها عنواناً: **الشرق الورديّ**.

تنكّر ميكال في زيّ وزيرٍ من أجواء «ألف ليلة وليلة»، فيما ارتدى معظم أصدقائه الجلابية المغربيّة أو الجبادور والشراويل التركيّة. وهكذا بدا اللون الورديّ طاغياً بجميع تدرّجاته. لَبِث عازل حبيس غرفته لا يدري شيئاً عمّا يجري في الخارج. كان صخب السهرة يتناهى إلى سمعه ولا يحرّكُ فيه ساكناً. أحضرت له كارمن قفطاناً وشعراً مُستعاراً أميل إلى الحُمرة، وزنّاراً موشّى بالذهب، وبابوجين وخماراً. ملابس امرأة! فأدرك على الفور حقيقة نوايا ميكال.

- لن ترتدي هذه الملابس وتنزل إلاّ عندما أقرع لك الجرس، قالت كارمن موضحةً.

- سمعاً وطاعةً، أيتها الحيزبون!

تظاهرت بأنّها لم تسمع، وغادرت. في تلك اللحظة ألحّت عليه صورة نور الدين، صديقه الذي مات غَرَقاً. ولشدّةِ فَزَعِه هُرِعَ إلى المرآة فلم يرَ في انعكاسها إلاّ صورة وجهه المُجهَد، الموشِك على التحوّل إلى قناع.

وإذ تمالك نفسَه، قرّر عازل أن يلعب لعبةَ ربّ عملِه ويفاجئه. تَمَكْيَجَ كعروسٍ، وحرص على ارتداء ملابسه الأنثوية كما ينبغي، ثمّ سوّى شعرَه المُستعار، ولَبِثَ منتظراً التتمّة. نحو منتصف الليل قُرع الجرس أخيراً. فغادر غرفتَه ونزل الطبقات الأربع متمهّلاً. وعندما فتح باب الصالون، سَكَتَ الجميع. كانوا يتأملّونه بإعجاب. ثمّ راح بعض الرجالِ يُثني عليه:

- يا لرشاقة هذا القوام!

- وهذا المِزاج البديع، نصف رجل، نصف امرأة! ميكال يدلّلنا هذه الليلة!

- آهٍ من الشاربين! انظروا هذه اللحية النابتة، ذروة الإثارة!

- أجمل نجم صاعد في المغرب!

- لا، لا يغرّنكم المظهر، إنّه ليس نجماً صاعداً، ولا هوىً عابراً، إنّه حقيقة، صدّقوني!

كان عازل يخطر في مشيته كأنّه ممثّل أو راقص يستعدّ لأداء رقصة باليه.

وكان ميكال لا يُخفي دهشتَه حيال ما بدا له مفاجأة سارّة. فأمسك بيد عازل وخاطب الحضور قائلاً:

- يا أصدقائي يُسعدني أن أقدّم لكم غَزْوَتي الأخيرة: جسد رياضيّ منحوتٌ من البرونز، ممزوج بمسحةٍ من الأنوثة. إنّه فحلٌ نادر. متعلّمٌ لكنّه يعرف جيّداً قاعَ طنجة، مدينة جميع الأشقياء والغادرين. طبعاً عازل ليس شقياً ولا غادراً، إنّه ببساطة

شيء جميل جداً، شيء تتوافر فيه كلّ المغريات. انظروا إلى بشرته الساحرة! بإمكانكم لمسه. قفوا في صفّ أحادي ولا تتدافعوا، إنّه هنا، ولن يغادر. داعبوا وركَه مثلاً، واكبحوا جماح غرائزكم. إنّه ملكي أنا، ولا مجالَ للتنازع عليه!

كان ميكال يُمسِكُ بيد عازل بقوّة. وراح الضيوف يمرّون من أمامِه الواحد تلو الآخر، متظاهرين بلمسه. ثمّ همسَ في أذنه قائلاً:

- والآن سترقص. وسترقص كبغيّ. هل تذكر ذاك الفتى في سوق تطوان الذي كان يبيع أوراق اليانصيب مرتدياً زيّ امرأة، أنتَ ذاك الفتى، ذو شاربين وامرأة!

لم يفهَم عازل لِمَ يسعى ميكال إلى عَرضِه بتباهٍ وإذلاله. وخطر له لوهلةٍ أنّه ربّما أسرفَ في الشراب أو دخّن بعض الحشيش.

شرع في الرقص على ألحان موسيقى مصرية. كان يهزّ وركيه مُستَذكِراً أختَه الموهوبة في أداء الرقص الشرقي. ولكن سرعان ما اختلطت صورتها في ذهنه بصورة سُميّة. وعلى الرغم من أجواء التوتّر البادية، حاول التركيز قدر المستطاع على أداء رقصته. كان عازل يعتبر نفسَه أجيراً، عاملاً في خدمة ربّ عملٍ غريب الأطوار. ويلعن الحياة والقدر. يشعر بالخزي لكنّه مصمّم على عدم السقوط في هوّة الاكتئاب والنَدَم.

قُبيل الثانية بعد منتصف الليل، غادر ميكال الحفلَ، وتركَه وسط هؤلاء الرجال الذين تعتع السكرُ بعضَهم فيما تهالك

بعضهم الآخر على الكنبات، متعانقين أحياناً، شبه نائمين. ثمّ دلَفَت إلى الصالون مجموعة من العازفين الشبّان، وبدل أن يعزفوا توزّعوا على أرجاء المنزل وراحوا يتجامعون. تقدّم عازل نحو الباب قاصِداً غرفته، غير أنّ رجلاً أسودَ ضخم الجثّة، لعلّه أحد حرّاس النوادي الليلية المعهودين، قطع عليه الطريق. . .

متوجّساً من الفخّ الذي نصبه ميكال له، انتزع عازل شعره المُستعار وغسل وجهه ثمّ هرع إلى المطبخ مختبئاً في إحدى زواياه. انبطح، كطفلٍ مَنسيّ، بين قفف الطعامِ والقناني الفارغة.

في اليوم التالي حلق عازل شاربيه وجمع متاعَه كلّه عاقداً العزم على مغادرة هذا المنزل إلى الأبد. لا مكانَ محدّداً قد يذهب إليه ولكن ذكرى الأمسية الفائتة كانت تتصاعدُ في جوفه كطعمِ الحموضة، كشيء مُرّ كريه الرائحة. كان بقاؤه سجينَ ذلك الوضع يفوق طاقتَه واحتماله؛ ويشعر للمرّة الأولى منذ أسابيع برغبةٍ في فتح دفتره لكي يكتب. لم يكتب حرفاً واحداً. لم يُسعفه قلمه بغير خطّ، مجرّد خطّ، شاطباً الصفحة بأكملها.

بمضيّ أيام قليلة استدعاه ميكال. وتصرّف كأنّ شيئاً لم يكن بل راح يحدّثه عن خططه المستقبليّة:

- كانت فكرة رائعة، تلك السهرة! لِمَ لا نُقيم سهرةً مماثلة في طنجة، في دارتنا، أقصد في دارتي في الجبل القديم. . .

جاء ردّ فعل عازل على الاقتراح عنيفاً.

- أحسنت! وهذه المرّة سأتنكّر في زيّ قرد، أو فرس أو متسوّل، لِمَ لا!

- أنتَ لا تتمتّع بشيء من حسّ الفكاهة.

- ما أسهل الحديث عن حسّ الفكاهة عندما تكون في الطرف الآخر...

لم ترقه فكرة الرجوع إلى طنجة إلاّ جزئياً. طبعاً كان يشتاق للقاء أمّه، لملاذ أحضانها وتلاوتها آيات القرآن فوق رأسِه. لكنّه يخشى لقاء كنزة التي ما زالت تنتظر جواباً منه. يخشى أيضاً لقاء أصحابه الذين سيدركون حقيقة ما يجري حالما يرونه بصحبة الأسباني. كما فكّر في سميّة التي لن يتمكّن من اصطحابها معه.

- العودة إلى طنجة قد تكون فكرة جيّدة. ولكنّك قلت «دارتنا»؟

- أجل، قلت «دارتنا» كما قد أقول «الدارة»، ففي آخر الأمر أنت تعلم جيّداً أنّ بيتي هو بيتك سواء هنا أو هناك.

- ماذا تعني بقولك «بيتي هو بيتك»؟ هل يعني أنني أستطيع أن أفعل ما يحلو لي في البيت، أن أتصرّف فيه على سجيّتي؟

- إذا كان الغرض من سؤالك هو أن تعلم إنْ كان نصف البيت ملكك، فالجوابُ هو كلاّ.

- لأنّه ملكٌ لشخص آخر؟

- أجل، ملك أولادي!

كانت تلك هي المرّة الأولى التي يسمع عازل فيها أي ذكرٍ لأولاد ميكال.

- الحقيقة أنني تبنّيتُ طفلين يتيمين لم يجدا مَن يتولّى رعايتهما. ينادياني «بابا» وهذا الأمر يسعدني. طبعاً هما لا يعيشان معي خلال السنة، لقد وضعتهما في مدرسة داخليّة، في الدار البيضاء. ونلتقي في الإجازات فقط.

أثار الأمرُ فضولَ عازل.

- ما اسماهما؟

- إنّهما توأمان ويُدعيان حليم وحليمة. طفلان وسيمان وذكيّان. سوف أعرّفك بهما عمّا قريب. أفكّر في إحضارهما إلى برشلونة ليتابعا فيها دراستهما الثانوية. وهكذا يمكثان بقربي. كم أشتاقُ إليهما.

- هل يحملان اسمك؟

- لا، حتّى الآن. ريثما تنجز المعاملات الإداريّة المعقّدة على نحوٍ يفوق التصوّر، أنا الآن أرعاهما كأنهما ولداي. ولكنني لم أستحصل لهما بعدُ على بطاقات هويّة. إنّه أمرٌ عزيز على قلبي، ولا أتحدّث بشأنه ولكنّه يشغل بالي طوال الوقت.

تردّد عازل قليلاً قبل أن يسأله عمّا حدا به إلى تبني الولدين.

- أنا عضو في جمعيّة مغربيّة تشرف عليها سيّدات فاضلات. الجمعية ترعى الفتيات الحوامل من دون زواج، كما تُعنى بالمواليد اللقطاء. في كلّ مرّة أزور الجمعيّة ينفطر قلبي.

كنت أعلم أنه من الصعب جداً أن يتبنّى المرء طفلاً في المغرب. يستطيع أن يساعدهم غير أنّه لا يستطيع، على ما أعتقد، أن يحمّلهم اسمه. وشرح لي شيخ ذات يوم أنّ الإسلام يحتاط لكل شيء. حتّى أبعد الأمور احتمالاً. مثلاً للحيلولة دون إمكان أن يقيم أولاد بالتبنّي لا يعرفون هوية أبيهم وأمّهم، من دون علمهم، علاقات جنسيّة مع والِديهم، الأمر الذي يدخل في باب ارتكاب المُحارِم. ولكن قيل لي أيضاً إنّ هناك دائماً وسيلة لتسوية مثل هذه الأمور. في قلبي وعقلي، هما ولداي، ولكن لم يغدوا بعدُ كذلك على الورق. وفي نيّتي أن أعتنق الإسلام إذا كان أمراً يُسهّل الإجراءات. أصبحت تعلم كلّ شيء يا عازل. لا، بقي سؤالك لِمَ الإصرار على تبنّيهما مهما كلّف الأمر؟ ببساطة مطلقة أقول إني فكّرتُ في مصيرهما وفي شيخوختي. عملٌ أنانيّ وفي الوقت نفسه ينمّ عن نبل وسخاء. بلى، أعترف أنني فكّرتُ في اللحظة التي سأحتاج فيها إلى مَن يقيم معي ويرعاني. وهذا شعورٌ بشريّ محض، ففي آخر الأمر أنا لا أريد أن أموتَ وحيداً كالكثيرين من العجائز الذين لا يلتفت إليهم أحد. في مجتمعكم لا يُترَك المسنّون لمواجهة مصيرهم وحدهم. أمّا هنا فالأمر مختلف. اليوم أنتَ هنا، حاضر، بقربي. حتّى أننا نخطّط للمستقبل سوياً. ولكن قد يأتي يومٌ ترحل فيه على نحو مفاجئ، بسبب شخص آخر، رجلاً كان أو امرأة. عندئذ ستتخلّى عنّي كمتاع بالٍ. ولكن في انتظار مجيء هذا اليوم، عليك أن تعلم جيّداً أنني لستُ ملاكاً على الإطلاق!

كان عازل يُحدّق به بمزيج من الإعجاب والقلق. ولم يُحِر جواباً.

وصلا سوياً إلى طنجة في منتصف شهر آب. كانت الجادات والبولفارات تعجّ بسيّارات المهاجرين ما يُعيق حركة السير فيها ويسبب ازدحاماً خانقاً. الناس معتادون على إطلاق أبواق سيّاراتهم باستمرار، ورجال الشرطة يعجزون عن ضبط حركة المشاة الذين يعلو صراخهم غير آبهين. عند المفترقات، شبّان يعملون لحساب المجلس البلدي مزوّدون بمكبّرات صوت يطلبون من المارّة اجتياز الشارع في المناطق المخصّصة لعبور المشاة. يصيحون بأعلى الصوت بعبارات عربية فصيحة لا يسمعها ولا يحترمها أحد. كانت المدينة مكتظّة بالسكان وقذرة. ولكنّها، بحسب عبارة ميكال، تنضح حياةً.

ذهب عازل للقاء أمّه التي استقبلته كأنّه عائد من مكّة. ما إن لمحته مُقبلاً حتّى علا صوتها بالزغاريد. حاولت كنزة أن تسكتها. كانت عودته أشبه بعودة الابن الضال. تجمّع الجيران على الشرفات أو المصاطب. عازل عادَ حاملاً حقيبتين كبيرتين من الهدايا، لكنّ وصوله مستقلاً سيّارة أجرة لا سيّارة فخمة كبيرة، شكّل خيبة الأمل الوحيدة في مشهد العودة الميمونة. راحت أمّه تصيح بأعلى صوتها، لقد جاء بالطائرة، بالطائرة، وترك سيّارته في بيته في أسبانيا... عادَ فقط ليرى أمّه قبل ذهابها إلى الحجّ... حاولت كنزة أن تسكتها، ألا تخجلين، كفّي عن سرد خصوصيّات حياتك وحياتنا على سمعِ أهل الحيّ جميعاً...

في الليلة الأولى أقيم حفلٌ على شرف العائد. كان عازل يحكي عن حياته هناك، يتفوّه بترهات، يبالغ، يكذب حتّى لو لم يصدّق أحدٌ كلامَه. قبل أن ينام، انتحت كنزة به جانباً وقالت:

- ما عدت أطيق البقاء في هذه البلاد. منذ رحيلك والأمور تسير من سيئ إلى أسوأ، ما من مخرج، كلّ المخارج مسدودة. لحسن حظّنا أن السيّد ميكال يفكّر فينا بين الفينة والفينة، كنت أنت ترسل المال، أليس كذلك، ولكنّ الحوالات تحمل توقيعه هو.

لبثَ عازل صامتاً، فهو لم يكن يعلم بالأمر. ثمّ قال:

- ماله أو مالي، لا فرق. لكن طلبك صعبٌ جداً.

- مع أنّك الوحيد الذي يستطيع أن يُفاتحه بالأمر. معرفتي به لا تسمح لي أن أسأله، هكذا من دون مقدّمات، إذا كان يقبل الزواج منّي بموجب عقد صوري؟

- بلى، طبعاً أنت محقّة فيما تقولين، ولكن لا ينبغي لنا، برأيي، أن نبالغ في شدّ حبل.

- ميكال ليس حبلاً!

- لا طبعاً، أنت محقّة، ولكن لا ينبغي لنا أن نبالغ في الأمور التي نطلبها منه، فهو، في آخر الأمر، رجل ضنينٌ بمبادئه.

- إذاً سأطلب من أمّي أن تفعل.

- إيّاك أن تفعلي، سوف تفسِد الأمور، وقد تخسر رحلة الحجّ التي ينوي أن يقدّمها لها هديّة.

أثناء سهرةٍ قضياها سوياً في منزل صغيرٍ رائع في أصيلة، أطلعه عازل على طلب أخته.

لم يُبدِ ميكال لا دهشةً ولا انزعاجاً مما سمعه. كان يعرف جيّداً هذا الضرب من التداعيات ويؤثرُ الإصغاء إلى ما تمليه عليه مشاعره. هو يحبّ عازل ولذلك لا يستطيع أن يرفض له طلباً. الأمر الوحيد الذي كان يخشاه هو الغدر، الطعنة في الظهر، الخيانة. ولطالما استرسل في شرحِ أواليات الخيانة وحجم الدمار الذي ينجم عنها. ميكال قرأ جانْ جينِه ولطالما تساءل لِمَ يحلو له وصف طنجة بمدينة الخيانة. كان يرى بوضوح أنّ شيئاً غامضاً في نظرة عازل يُزعجه، ما يُشبُه ابتسامة مفتعلة، نحواً ضمنياً لإظهارِ شكلٍ مضمَرٍ من أشكال الخداع. غير أن ميكال يعرف جيّداً مكامن الضعف في شخصيّة عشيقه الشاب: المال، النساء، الكيف. وبموافقته على الزواج من كنزة كان يحسبُ أنّه يوطّد في البيت حالاً من الاستقرار قد تجعل عازل أكثر انصياعاً ورضوخاً.

- ولكن لا يحقّ لغير المسلم الزواج من مسلمة! لاحظ ميكال قائلاً.

- ما عليكَ إلاّ أن تعتنق الإسلام! وبزواجك تصبح حظوظك في التبنّي أوفر وأرجح... وهكذا بحجرٍ واحد تصيب عصفورين!

- وكيف يتمّ ذلك؟

- تذهب إلى اثنين من العُدول، وهم رجال دين وقانون، وتنطق أمامهم بالشهادتين: أشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله.

- هذا كلّ شيء؟

- سيتعيّن عليك أيضاً أن تغيّر اسمك و...

- ماذا؟

- يجب أن تُختَتَن!

- لا، هذا أمرٌ صعبٌ لرجل في مثل سنّي، ولا أعتقد أنّهم سيدقّقون في ما لو فعلت أو لم أفعل!

- عليك أن تبذل جهداً إضافياً في مقابلتك العدول، يجب أن ترتدي ملابس عادية، وخاصة تجنّب أن ترتدي قفطاناً لأنّ الأمر سيصدمهم والأرجح أنّهم سيوقفون الإجراء. كما لا ترتدي قلادة أو سوار مرجان أو كثيراً من الخواتم. فهؤلاء أناس تقليديون، والأفضل ألاّ يرتابوا في شيء.

- أعرف المغرب بمقدار ما تعرفه أنتَ وأعلم أن خير الأمور أن يظلّ المرء كتوماً. واسمح لي أن أسديك نصيحةً متواضعة للمناسبة: إيّاكَ أن تصدّق المظاهر!

- أجل، الثوب لا يصنع الراهب، **السّنة تضحك والقلب يذبح!**

- ترجم!

- السنّة تضحك والقلب يذبح! لقد ألّفته للتوّ. أعشق من حين لآخر أن أضرب مثلاً أو أن أستشهد بقول سائر. فإذا عزّ منها ما يوافق المقام ابتكرتها!

وهكذا حبّاً بعازل تزوّج ميكال كنزة واختار لنفسِه اسم منير.

15

مَليكة

منذ أن شاهدت مَليكة صور الجثث الطافية على سطح المياه والتي بثّتها «قناة سور»، ما عادت تحلم. أحصتها متخيّلةً نفسها إحدى ضحايا هذه المأساة. كانت تستلقي على ظهرها وتنفخُ بطنهَا مغمضةَ العينين وتطفو. ضبابة الصباح تداعب وجهها والمياه المثلّجة تتدفّق برفق على جسدها اليافع، ولا تشعر بشيء. تلعبُ لعبةَ الميت، مستسلمةً لحركة الموج مُصطدِمةً بأجساد أخرى قبل أن يستردّها عُرْض البحرِ إلى اتساعه. موجة عارمة تقذفُ بها إلى رمال الشاطئ. تكسوها طحالبٌ. ويُعاود الماءُ غَمرَها، يُهدهدها كأنّها غارقة في سباتٍ عميق. غير أنّه الفجر، ميقات الصلاة. جدّتها منصرفة إلى وضوئها لا تعيرها انتباهاً. مَليكة لا تراها، لا تسمعها. لم تكن في الحجرة ذاتها، وربّما لم تكن في البلاد ذاتها. كم ودّت أن تكلّمها أن تناديها، غير أنّ حلقَها لا يُسعفها بصوت. عندها تنصرف بدورِها إلى الصلاة، من دون أن تحرّك ساكناً، من دون وضوء. تخاطبُ السماء، تخاطب البحرَ، النوارسَ، مُستذكرةً كلامَ أبيها حين قال

لها ذات يوم كيف تغرق هذه الطيور في الماء ما إن تفقد شحومَ بدنها. حاولت أن تغسل نورساً بالصابون. وحين أطلقته غاص الطائر المسكين في اللجّة ولم تره بعد ذلك. بكت، وظنّت أنّ والدها اختلق هذه القصّة لسعةِ خياله. ومنذ ذلك الحين، كلّما رأت نورساً استذكرت النورس الذي ماتَ جرّاء صنيعها به. حتّى أنّها أعطته اسماً: «زبيدة».

أصبحَ نوم مَليكة خفيفاً وسَطحياً لشدّة ما يمازجه الحزن. لم تعد تحلم بالسفرِ خلسةً غير أنّها لم تتخلّ عن توقها لأن تحيا حياةً أخرى. كانت أختها توفّر لها الرعاية والحماية، لكنّ صهرها، وإن ردّد أنّه يعتبرها ابنةً له، لا يُكلّمها إلاّ أمراً ونهياً. فهو لضيق ذات اليد لا يفارقه سوء المزاج. ولن يعرف سعة العيش ما دام صيّاداً، وما دامت زوجته التي تبيع الخبز عند مدخل «الغران سوكو» عاجزةً عن المساعدةِ في شيء. لقد شاركت عمّة عجوزاً تقوم بخبزه، فيما لا يتسنّى لها هي أن تقصد السوق لبيعه إلاّ لأنّ مليكة تلازم البيت لرعاية الأولاد.

فور عودة أختها من السوق تعلم مليكة أنّها تستطيع أن تتفرّغ لنفسِها ساعةً من الزمن، فتهرع إلى الخارج راكضة عبر الشوارع حتّى بولفار باستور، عند ساحة الكسالى. فتجلس هناك بعد أن تشتري علبةً من البزر تقضقضُهُ وهي تتأمّل السفن مبحرةً من المرفأ. يحدث في جلوسها هناكَ وحيدةً أن يتحرّش بها رجال ظنّاً منهم بأنّها فتاة ضالّة. لا تجيبهم بشيء بل تبصُق البزور باتجاههم فيبتعدون.

ما عادت ترى السفن كما كانت تراها من قبل. تراها مبتعدةً، منزلقةً على صفحة المياه الراكدة، كالقناني الضخمة التي تكتفي بأن تضمّنها أحلامها. دَرَجت على تدوين هذه الأحلام على أوراق كبيرة، ثمّ تطويها، مرّةً واثنتين، وترقّمها قبل أن ترتّبها داخل دفتر.

الحلم رقم 1 أزرق. فيه البحر وعند أقصاه كنبةٌ معلّقة بين سماء وأرض. تجلس على الكنبة وتتأرجح. ثوبها هو أيضاً أزرق، فضفاض وشفّاف. من علوّ أرجوحتها تشاهد الشواطئ المغربية، طنجة، الجُرفُ، الجبل، الميناء. أثناء الليل لا تبرقُ أنوار. عتمٌ كالح. فتدفع أرجوحتها بعزم وتولي المغرب ظهرَها.

الحلم رقم 2 أبيض. هي في مدرسة الجميع فيها يرتدون الأبيض، طلاباً ومدرّسين. اللوح في غرفة الصفّ أبيض، والطبشورة سوداء. تُدرَّسُ فيها النجوم، حركتها، مداراتها وأسفارها، ثمّ الهبوط مجدداً على الأرض. عندها تدخل غابةً رُسِمَت فيها الأشجار بالكلس. يسحرها هذا البياض. تتوقّف، وتتسلّق شجرةً فتلمح من بعيد شرفة منزل أختها. شرفة ضيّقة تجفّف عليها جلود خِراف تتدلّى. مئات الكتب من أغصان الشجرات. أغلفتها من جميع الألوان. ويكفي أن تفتح كتاباً منها لكي تفهمَ ما جاء فيها. كتب سحريّة لا نجد مثيلاً لها في طنجة. فتقرّر مَليكة أن تذهب إلى البلد الذي تقع فيه غابة الكتب.

الحلم رقم 3 هو قطار يعبر مضيق جبل طارق. بين طريفة وطنجة يمتدّ جسر هو بروعة الجسر الذي طالعتها صورته، ذات

يوم، في إحدى مجلاّت السياحة. لا تستغرق الرحلة سوى 20 دقيقة. مَليكة جالسة في أولى عربات القطار، تراقب بانتباه كلّي، مسارَ الرحلة. لدى بلوغه الشواطئ الأسبانية، تكون لجنة استقبال في انتظار المسافرين الذين توزّع عليهم الزهور والتمر والحليب. مَليكة تعشق التمر. تأخذ ثلاث تمرات وتأكلها بسرعة. يقترح عليها الأسبان أن تلتحق بالمدرسة لكي تستأنف دروسَها التي هجرتها عقب مغادرتها طنجة. وإذ تلتفت إلى الوراء يتلاشى القطار وكذلك الجسر.

الحلم رقم 4 هو حقيبة، حقيبة بنية قديمة. خبّأت مليكة بداخلها ألعاباً وأشياءَ تحبّها. فيها من كلّ شيء: فرشاة شعر، كِسْرةٌ من مرآة، مبراة، ثلاثة أزرار بألوان مختلفة، وخمسة من فضّة هي هدية من جدّتها، ورقة صفراء مطوية مرّتين ومربوطة بخيط أحمر، دفترٌ صغير جُعِلَ على شاكلة جواز سفر أوروبي، إذا فتحته وجدت أنّ صورة شمسيّة لها ألصِقَت على إحدى صفحاته، وذكرت تحتها كلّ المعلومات التي ترد في جوازات السفر عادةً، ممحاة، مشبَك ومسامير. لكلّ شيء من هذه الأشياء معنى خاصّ في نظرها. إنّها سرّها الدفين. وقد كتبت بالحبر الأسود على ظهر الحقيبة عبارة واحدة: «هذه لي.»

16

مُنير

حمل ميكال على محمل الجدّ البالِغ مسألةَ اعتناقه الإسلام الذي كان، طبعاً، يعرفه بعضَ المعرفة. اشترى كتباً حول الثقافة الإسلامية، وسيرة النبيّ محمّد وترجمةً جديدة للقرآن. قرأ، وعاود قراءة بعض المقاطع. كان يهتمّ بكلّ ما يتّصل بهذه الديانة. ويُبدي فضولاً وحبوراً لافتين لاستغراقِه في عالمٍ يقاربه ويظنّ، مخطئاً، أنّه يعرفه حقّ المعرفة. اكتشف أنّ الإسلام لا يختلف حقاً عن المسيحيّة إلاّ في الجانب المتّصل بمريم ويسوع. ولدى قراءته سورة «النساء» استوقفته الآيات 156 و157 و158: «وقَولِهم إنّا قتَلنا المسيح عيسى ابن مريم رسولَ الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم (. . .) بل رفَعه الله إليه (. . .)». الأديان التوحيدية الثلاثة تدعو إلى القيمِ ذاتها. أمّا الإسلام فيعترف، فيما يعنيه، بالأنبياء الآخرين ويدعو المسلمين إلى إجلالهم وتعظيمهم.

كانَ يودّ اعتناقَ الديانة الجديدة بدافع الحبّ، لاقتناعِه بالفعل، أنّ أعظم الأمور لا تُطلَبُ ولا تُنجز إلاّ بدافع الحبّ أو

بسببه أو بفضله. هذه، في نظرِه، بدهيّة، لا بل حقيقة. فإذا ما أمعَن التفكير في ما انقضى من عمرِه لوجد أن حياته كلّها لم تكن سوى سلسلةٍ من المراحل غالباً ما كان الجنونُ الغراميّ هو الحاسمُ فيها. عازل يهديني اليومَ إلى الإسلام! آهِ لو يعلم أصدقائي القدامى الكاثوليك بما آلت إليه حالي! لقالوا حتماً إنّي فقدت صوابي، وقُضيَ أمري، ولا شكّ في أنّ والدة عازل قد ألقَت عليّ أذىً من السحر، وإنّي بلا ريبٍ أُطْعِمتُ نخاع ضبع أو ابن آوى، ولن يفهموا، مهما حاولوا، قبوليَ الفوريّ لعرضِ أسرة عازل. غير أنّ شيئاً من هذا ما كان ليُثنيني عن عزمي، لستُ موشكاً على الزواجِ فَحسب بل إنّي أيضاً موشكٌ عليه بطيبة خاطرٍ وحَسَب الأصول. هذا الزواج، الصوريّ بالمطلق، إنّما أقدم عليه بدافع الغيريّة، لكي أكون مُفيداً. ولا أجد فيه سوى منفعة شخصيّة واحدة وحيدة: فهو سبيلي لكي أبقي بجواري مَن يُعيدُ إليّ الأملَ والحياة. آه يا أصدقائي، يا مَنْ ارتضيتم العزلة في منازلكم الفخمة حيث تقضون أوقاتكم في استذكار أيام صباكم، تتبرّمون، وتعتقدون بأنّ الحياة جائرة، بأنّ أجسادكم تخلّ بكم،، وتتلاقون مُسنّين في مصحّاتٍ في انتظار الموت! فلتعلموا إذاً إنّي اخترتُ، إنّي رفضتُ الاعتزال في دار للمسنّين، ما زلتُ أنتصب، ما زلتُ قادراً على المضاجعة، ومُحاطاً، لا بل سأغدو محاطاً أكثر فأكثر، ستكون لي عائلة، وسوف يكون توأماي الصغيران بجواري إن شاء الله. يا أصدقائي، سوف أعتنق الإسلام، ما يُحيي في نفسي ذكرى أليمة، ذكرى حبّي الكبير، حبّي الكبير الأوّل، علي البهلوان، نجم سيرك عمار،

علي الذي أفقدني صوابي، أردتُ أن أعتنق الإسلام لأجله، لكي يعيش معي، ولكن لسوء الحظّ هجر كلّ شيء وتوارى عن الأنظار إثرَ حادث، ولم أتمكّن من العثور عليه، ولَبِثَ حسرةً في البالِ وحرقةً في القلب. فقط آمل أن تجري الأمور على خير ما يُرام، أن يكون العدول متفهّمين، والاّ أرتكب هفوةً في تلاوة الشهادة، أتمرّن على تلاوتها منذ الأمس: «أشهد أنّ لا إله إلاّ الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله»، أشهدُ. . . الأمر بسيط جداً، يكفي النطق بهذه العبارات لكي تغدو مسلماً، ولكن ينبغي للنطق بها أن يصدر صادِقاً من أعماق القلب، لأنّ الله يثق بك، وإذا نطقت بها زوراً أو لَهواً، فلن يكون لك مرادك، فلكي تكون مُسلماً حقّاً ينبغي لك أن تكون مقتنعاً، في أعماق نفسِك، بوحدانية الله.

كان ميكال غارقاً في تأملاته عندما طرق عازل وأخته بابَه. فموعده مع العدول في المندوبيّة، ناحية البوتي سوكو، عند الثالثة بعد الظهر. أولاً لإشهار إسلامه، وثانياً لعقد القران.

ارتدى ميكال ملابس بيضاء وفوقها جلاّبيّة.

كرّر عازل على مسمعِه ما سبقَ أن ردّده بشأن المغالاة. فخلَع ميكال الجلابيّة. ولكن قبل أن يغادروا البيت طلب إليه عازل أن يمسح ماكياجه. فمن عادة ميكال أن يضع على وجهه طبقةً من الفونديتان، وأن يُكحّل جفونه.

- اسمك مُنير، وتحب النساء، وتظهر في مظهر رجل، رجلٍ بحقّ، كلّه رجولة لا لبس فيه.

كان عازل يسيطر على الأمور بحزم، الأمر الذي فاجأ ميكال بعض الشيء.

في المندوبيّة كان اثنان من العدول ينتظران وصولهما. لقد أخطرا بالأمر وطلب إليهما أن يمتنعا عن طرح الأسئلة، وسوف يُجزل لهما العطاء.

كان الأصغر سنّاً من بين الإثنين يتقن لغاتٍ عدّة. واستقبل ميكال بحرارة. فيما لبِث الثاني صامتاً. وبعد شكليات التعارف، بادر إلى فتحِ دفترٍ قيودٍ ضخم ودوّن تاريخ اليوم والساعة. ثمّ اكتفى بالسؤال عمّا إذا كان ميكال قد توضّأ، لأنّه من المُستَحسَن عقِب دخول الإسلام أن ينصرفَ المعنيّ إلى الصلاة.

- طبعاً، قال ميكال. أنا جادّ في ما أقدِم عليه، نعم، توضأتُ. فهذا أمر طبيعي في حياتي.

وفي أجواءٍ من السكون المباغِت نطق بالشهادة التي ردّدها الجميع بعده كأنّما ليؤكّدوا صدقَها. بدا ميكال شديد التأثّر. كانت كنزة واقفة خلفَ الرجال، تنتظر، حاملة بطاقة هويّتها بيدها.

نهض العَدْلان وميكال وعازل قاصدين المسجد، أسفل ناحية الصياغين، للصلاة. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يدخل فيها ميكال مسجداً في المغرب. زار بعضها في مصر وتركيا، ولكن ليس في المغرب حيث لا يُسمَح لغير المسلمين بدخولِها. كان عازل يكتمُ رغبةً لا تُقاوَم في الضحكِ حيالَ تصرّفات صديقه التي توحي بأنّه مؤمن بما يفعل.

لدى عودتهم إلى حجرة المكتب الضيّقة في المندوبيّة، قرأ العدلُ الفتيّ الإعلان الرسميّ عن دخولِ نصرانيّ في الإسلام:

- بسم الله الرحمن الرحيم، نحن، محمد لعرايشي وأحمك الكوني، رجلا قانون ودين، نشهد بأنّ السيّد ميكال روميرو لوبيز قد نطق بالشهادتين وبذلك اعتنق الإسلام بحضور شهود. واختار له اسم مُنير، حماه الله وحفظه. وعليه، فإنّه يتخلّى عن انتمائه إلى الكاثوليكيّة وينضمّ إلى أمّة الإسلام التي تستقبله لكي توسّع صفوفها وتغتني بصدق إيمانه وصلاح نيّته.

«عزيزنا منير، أنتَ الآن أخٌ لنا، فمرحباً بك في دنيا إسلام النور وقيم الإخاء والكرامة والجلال الروحاني. نذكّرك هنا بأركان الإسلام الخمسة: التشهّد؛ الصلوات الخمس كلّ يوم بحسب حركة دوران الأرض حول الشمس؛ صوم شهر رمضان الذي يمتنع فيه المؤمن عن الأكل والشراب والتدخين والمواطأة من طلوع الشمس حتّى غروبها لفترةٍ تتراوح تسعة وعشرين وثلاثين يوماً. الزكاة، وهي اقتطاع نسبة من مداخيلك للفقراء؛ وأخيراً الحجّ إلى بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلاً.

ثمّ قرأ العدْلان الفاتحة، داعينَ له بالصلاح والاستقامة في حياته وحتّى يوم الحِساب.

على الأثر حُرّرت له إفادة ذيّلت بطابع أميريّ من فئة العشرين درهماً وبتوقيع العدلَين.

واستراح الجميع لفترة قصيرة من الوقت قبل الشروعِ في إجراءات عقد الزواج.

في غضون ذلك كانت الأمّ قد انضمّت إلى ابنتها، كنزة، ولبِثَت واقفةً على حدة. وأثناء تحرير العقد، مال كبيرُ العدْلَين هامِساً في أذن الخطيبة:

- حتّى لو اعتنق ديانتنا، يبقى أجنبياً نصرانياً، ولتعلمي، وإن لم يكن هذا من شأني، أنني أعرف نواياه.

- أنت مخطئ! أجابته بأعلى صوتها بحيث سمعه الجميع.

فجأة شعر ميكال بأنّه استبعدَ عمّا يدور من حولِه: لقد تكلّما بالعربية، ولم يفهم مما قيل شيئاً.

راح صغير العدْلَين يشرح لميكال الأسباب التي دعت الإسلام إلى تحريم زواج النساء المُسلِمات من غير المسلمين.

- أنت تعلم جيّداً أنّ المرأة سَهلةُ القِياد، فإنْ تزوّجت مسيحياً فلن يمضي وقت طويل حتّى تتبنّى معتقداته الدينية، والأولاد في هذه الحالة يتبعون الطرفَ الأقوى... المهمّ، لا بدّ أنّك تعلم بأنّ القانون يحمي المرأة لأنّ زوجتك العتيدة لها الحقّ في تضمين عقد الزواج بعض الشروط كالتعهّد مثلاً بعدم طردها، أو الزواج من امرأة ثانية...

- أوتعلم يا سيّدي، إنّ زوجة واحدة تكفيني وقد تزيد، لا بل قد أقول إنّني لن أعاني الأمرّين حتّى لو لم تكن هناك زوجة على الإطلاق!

- أرى يا سيّد منير أنّك عليمٌ بالنساء.

- أعرف النساء ما يكفي لتأكيد قناعتي بأنّ الحياة الزوجيّة

ليست دائماً مدعاة هناء ومسرّة. ولعلّ هذا ما جعلني أطيل الانتظار قبل اتخاذ القرار بالزواج أخيراً.

- هل تعلم ما هو حكم الزواج في الإسلام؟

- طبعاً: بالزواج يُكمل الإنسان دينَه.

- ولكن لا تبدو لي مقتنعاً بذلك!

بدت كنزة شديدة التوتّر. وقد عيل صبر أمّها وبدأت تكلّم نفسَها. كان عازل حاضراً، في الركن الذي انتحاه، يفكّر في سهام. ما زال عاجزاً عن مجرّد التفكير في طلب يدها للزواج. فهو يضنّ بحريّته ويتهرّب من تحمّل المسؤوليات. في خيالِه كانت صورتا سهام وسميّة تمتزجان فيضحك في سرّه.

أجاب كلّ من منير وكنزة العذلَين بـ «نعم» صريحة، ووقّعا على العقد. وغادرا، على مرأى من الحاضرين جميعاً، متشابكي الأيدي.

كان ميكال قد أعدّ لوليمة في دارته. فقد كانت تلك هي المرّة الأولى التي يستقبل فيها حماته. أذهل للاّ زُهرة ما رأته من بذخٍ ورهافة ذوق في المكان. لم تفهم لِمَ يجمع كلّ هذه الاشياء القديمة: قطع أثاث، حليّ، لوحات معتمة، ومرايا شبه مطفأة. حتّى أنها اقترحت عليه أن تصحبه إلى تاجرٍ من معارفها يبيع مرايا جديدة وقطع أثاث متينة رائعة التزويق. ابتسم ميكال وأجاب قائلاً:

- أحتفظ بها لأنّها تذكارات. كانت ملكاً لوالديّ وجدّي!

بعد فراغهما من الأكل، عادت كنزة وأمّها إلى منزلهما. بكت للاّ زُهرة، فهي المرّة الأولى التي تعود فيها عروسٌ للمبيت في منزل أهلِها.

كان نهاراً متعباً ومرهقاً للجميع؛ لذا توارى عازل، لشدّة ما كان يشعر بالضيق، تاركاً ميكال وحده.

17

عبد السلام

كان يحلو لعبد السلام أن يفردَ شرشفاً أبيض على أرضيّة شرفته، ويشرد مستغرقاً في أحلام يقظته. لا تراوده أي رغبة في الرحيل عن بلده. يكتفي بأن يتخيّل ما كانت لتؤول إليه حياته لو أنّه هاجر. منذ فَقدِه أخاه نور الدين، تخلّى عن كلّ مشاريعه وخططه. ولشدّة إحساسه بالذنب لإلحاحِه عليه بأن يجرّب حظّه على زورق الفجيعة ذاك، صار عبد السلام متديّناً يمضي معظم أوقاته في التعبّد والصلاة. حتّى أنه أعطاه قسماً لا بأس به من مدخّراته لكي يسدّد المبلغ الذي طلبه العافية، المُعبّر. . . ويسع عازل أن يروي تفاصيل ما جرى بحذافيره، فقد كان شاهداً على الصفقة.

- طَمّني، المركب ليس خردة على الأقلّ؟
- طبعاً لا!
- كم نفراً ستنقل على متنه؟
- العدد المسموح به، لا أكثر ولا أقلّ. لِمَ تبدي كلّ هذا الحذر؟

- لأن عدد الغرقى ازداد في الآونة الأخيرة.

- أنا رجل مهنيّ محترف، ولستُ من تجّار البؤس. أفعل ما أفعله خدمةً لشباب الناحية، ولم أجمع ثروةً من نقود هؤلاء الفتيان المعدَمين.

- مُعدَمٌ أو غير مُعدَم، أجاب عبد السلام، ليكن في علمك أننا ذقنا الأمرّين في جمع هذا المال. خُذْهُ، كأنّك تأخذ حفنةً من لحمي، هذا كل ما أملك، لذا فاحرص أن تجري الأمور على ما يرام، لصالحِكَ أنت، وخلِّ الفتى المُعدَم في حسابك.

- اسمع، إذا لم تكفّ عن شكوكك واتهاماتك هذه، فالأفضل أن تستردّ مالك، وتغرب عن وجهي الآن.

فهدّأ نور الدين من سورة غضب شقيقه وتمّت الصفقة.

كان عبد السلام بنّاءً. يعشق البناء، رصفَ الأحجار جَنبَ أو فوقَ بعضها بعضاً والتباهي، في سرّه، أنّ يديه هاتين قد صيّرتها بنياناً. كان حرفياً فنّاناً في مجاله. حتّى أن بعض العمائر التي رمّمها اكتسبَت قيمةً إضافيّة بعد فراغه منها. يعشق العملَ المُتقَن، ويكره أن يصل متأخراً إلى ورشته، ويهوى، إلى ذلك، ابتكار مساحاتٍ جديدة داخل المنازل التقليديّة القديمة. بعض الأوروبيين استعانوا به لترميم ملكيّاتهم، ما أشعره بالزهوّ وجعلَه أكثر تطلّباً من نفسِه ومن عمّالِه.

صورة نور الدين متبسّماً له قبل صعوده إلى المركب، لا تفارق خياله. حاول أن يُنشئ رابطةً لمكافحة عمليات العبور غير

الشرعيّة ونجح في جمعِ عدد من الأسر التي فقدت أحد أفرادها في عمليات مماثلة. يلتقون دَورياً في المسجد ويصلّون معاً. أمّا من الناحية العملية، فقد بادرت الرابطة إلى الطلبِ من السلطات التصدّي لهذه المشكلة، وتجرّأت على توجيه رسالة إلى الملك متوسّلةً أن يضع حداً لهذا النزيف. وكم كانت دهشتهم عظيمة عندما تلقّت الرابطة رسالة جوابية من أحد مستشاري الملك، رسالة تعاطف جميلة، غير تقليديّة، يُعرب فيها المسؤول عن أبلغ مشاعر التضامن الإنساني ويخطرهم بأن الملك سيعيّن لجنة تتولّى الإعداد لقوانين مستقبليّة سوف تناقش تحت قبّة البرلمان، كما يُعرب فيها عن أسفه الشديد لهذا الوضع الذي يؤلم المغرب ويُسيء إلى سمعته في الخارج.

كان عبد السلام فخوراً لأنّه هو من اقترح فكرة توجيه رسالة إلى الملك. حَجَرَ على عازل داخل إحدى الغرف ريثما يفرغ من تحريرها. طبعاً لم يكن عازل مقتنعاً بجدوى الفكرة. أتحسب أنّ ليس لدى الملك ما يفعله سوى قراءة رسالتك؟ حتّى لو بَلَغته بفعل معجزة ما، هل تظنّ أنّه سيفعل شيئاً، أو أنّه سيردّ برسالة جوابية؟ هذا فقط في أحلامك. لعلّ ازدحام الحاشية من حوله يحجبُ عنه المشهد بأكمله. يحجب عنه الرؤية، والسبب هو أنّ هؤلاء يخشون زوال حظوتهم ومناصبهم، لذلك يردّدون على مسامعه يومياً: الأمور على ما يرام، يا صاحب الجلالة، لا داعي للقلق، جلالتكَ، هل ترغب جلالتك في زيارة النواحي التي تشهد تسلّل المهاجرين غير الشرعيين في بني مكادة، أو الادريسيّة أو حيّ صدام، سمعاً وطاعة، يا صاحب الجلالة،

نحن منهمكون في تدارس الأمر وتدبيره من الناحية الأمنية. . . ويُطيلون انتظاره لبضعة أيام ريثما يُعاودون طلي الجدران، ومحاصرة الأحياء المعنية. . . وغير ذلك.

هكذا أصبح عبد السلام مناضلاً ضدّ الهجرة، وخصماً عنيداً للمعبّرين المهرّبين. يقصد الذين يعدّون العدّة للرحيل أينما كانوا ويشرح لهم أنّ حظوظهم في بلوغ شواطئ أوروبا لا تتعدّى الواحد من عشرة. ويوزّع عليهم، وعلى المقاهي، نسخاً من الرسالة الملكية التي تلقّتها الرابطة.

ولكن كيف يردّ على مَن يُبادر إلى القول:

- واحد من عشرة؟ هذا هو المطلوب! لعبة بوكر، جنون. ولكن، بالمقابل، إذا لَبثنا هنا، في هذا المقهى، لن يطرأ جديد، لن يطرأ شيء إطلاقاً، وبمضيّ عشر سنوات سوف تجدنا هنا نحتسي القهوة بالحليب الفاتر ذاتها وندخّن الكيف بانتظار معجزة، والمعجزة هي فرصة عمل، فرصة عملٍ مقبول، بأجرٍ معقول واحترام وأمانٍ وكرامة. . .

كان عبد السلام يودّ أن يجترح المعجزات، سوى أنّه بنّاء لا أكثر، رجل فقد أخاه ويعاني من فَقْدِه ليلَ نهار.

عندما يحاول إيجاد الحجج المقنعة ردّاً على قولٍ من هذا القبيل، كان يتلعثم ويتأتئ. فيسخر الحاضرون منه.

- هيّا، سوف تشنّف آذاننا بخطبتك المعهودة عن البلد الذي يحتاج إلى أبنائه، البلد الذي لا ينبغي أن يُهجَر، لأنّه إذا هاجر الجميع فلن يبقى بلد. بلى، بلى، نحن نحبّ بلدنا،

ولكن بلدنا لا يحبّنا! لا أحد في هذا البلد يحرّك ساكناً ليعطينا سبباً واحداً للتمسّك به والبقاء فيه، ألا ترى ما الذي يجري؟ إذا كنت تملك مالاً، تطعم وتداهن وترشو وتبدي تفهّماً وهكذا، ثمّ لا شيء، فكيف لنا أن نحبّه، هذا البلد؟

- ولكن ألا تفهمون أنّ البلد في آخر الأمر هو نحن وهو أولادنا، وأولاد أولادنا!

انضمّ عازل إلى عبد السلام في جلسته لحظة بلوغ النقاش هذا المستوى من الحدّة والغضب.

رمقته أعينهم التي لا تخلو نظراتها من الريبة والحسد. فهو في نظرهم الفتى الذي حقّق حلمه بطرقٍ مُلتبسة. طلبَ للجميع شراباً على حسابِه وخاطبهم قائلاً:

- صدّقوا أنني صادفتُ هناك مغاربةً بائسين، متشرّدين، أناساً بلا عزّة نفس أو كرامة، يتسكّعون في الشوارع، يعتاشون على أعمال التهريب التافهة، فلا أحسب أنّه العيش الكريم الذي تصبون إليه. انتظروا قليلاً، لقد بلغني أن أوروبا ستحتاج عمّا قريب إلى الملايين من المهاجرين؛ وسوف يأتي الأوروبيون بأنفسِهم إليكم سعياً وراء أيديكم العاملة، وعندئذ سوف يُتاح لكم أن تذهبوا بكرامة، من دون مخاطر...

علا صوتٌ من بين الحاضرين قائلاً:

- لكي يُتاح ذلك لواحد منّا، فلا بدّ أن يكون بمثل وسامتك!

ثمّ صوت آخر:

_ طبعاً الكلام سهلٌ لمن لا يكسب رزقه بعرق جبينه...

لم يردّ عازل، بل نهض وتبعه عبد السلام.

مساءً، أسرّ لصديقه قائلاً:

- هم محقّون في ما قالوا، أشعر بالخزي، ولكنّي واثقٌ أنّ دافعهم هو الحسد. ما كان أحد منهم ليُحجمَ عن فعل ما فعلتُ أنا لو أتيحت له الفرصة. في الوقت الحاضر أشعر بأنّ الأمور أصبحت معقّدة بعض الشيء، فميكال تزوّج من كنزة، على الورق في الأقلّ، وسوف تحصل على تأشيرة وتغادر طنجة، وطبعاً ستقيم معنا في برشلونة ريثما تجد عملاً ومسكناً. حتّى أمّي رجاؤها أن تلحق بنا! هل تتخيّل؟ هذا الجنون المطبق! هل أسرّ إليك بأمر؟ أنا لستُ على ما يرام، وما عدت أدري أين أقف بالضبط في هذه المعمعة كلّها. فالصو، زيفٌ متواصل، أقضي أيامي متظاهراً، هارباً، لا أجد من أرتاح إليه إلاّ سهام، ولكن سهام مرتبطة بعملِها ولا تقيم في برشلونة.

كان عبد السلام يصغي إليه صامتاً. ومع ذلك كان السؤال يتردّد في رأسه ويلحّ عليه، لكنّه لا يجد صيغةً للتعبير عنه.

- أنتَ تذكر نزهاتنا إلى الجبل؛ وطبعاً لم نكنن حينذاك، نصطحب فتياتٍ معنا؛ ولكن بعد فراغنا من تناول الطعام، كان قادر يختفي برفقة سامي، الفتى الممتلئ الجسم، وكان يقول لنا عندما يظهر مجدّداً، حان دوركم، وكنّا نذهب تباعاً لملاقاة سامي المنبطح سويّة الأرض الذي ينتظر قدومنا الواحد تلو الآخر...

- لم تحدّثني عن هذا الأمر؟

- كي أذكّرك بأننا سبق أن خضنا تجارب مع الغلمان؛ لذا فإنّ ما أودّ أن أعرفه هو ما الذي يجري بينك وبين الأسباني؟ من منكما الفاعل، ومن المفعول فيه؟

- أنا رجل ولست زاملاً!

- هذا ما كنتُ واثقاً منه! هل تعلم أن سامي قد تزوّج ورزقَ ولدين، أي أنّ لا شيءَ من هذا كلّه مؤكّداً أو نهائياً! وإذا كنت ترغب في لقائه، فهو يعمل الآن موظّفاً في وزارة الاقتصاد، يحتلّ فيها منصباً مرموقاً، ويُدير قطاعاً بأكمله حيث مال الصفقات غير المشروعة لا يَنْفُد. . . ويُقال إنّه نجح لأنّه يقيم علاقات جنسيّة مُريبة، ويُقال أيضاً إنّه يعيش حياة مزدوجة، وإنّ زوجته تعلم بالأمر لكنّها تؤثر السكوت عنه توقّياً للفضيحة. كما ترى جيداً، الأمور ليست دائماً بسيطة. في عرفنا نحن الزامل هو الآخر، السائح الأوروبيّ، وليس المغربيّ، والأمور كلّها تجري في الخفاء، هذا الاعتقاد خاطئ، فما يجري عندنا هو عينه ما يجري في بلدان أخرى، والفرق الوحيد هو أننا هنا لا نتحدّث عن هذه الأمور، ولا يذهب المغربيّ إلى التلفزيون لكي يقرّ ويعترف بأنّه يعشق الرجال!

نظر إليه عازل وسألَ عمّا يفعل هو في حياته.

- أنا أبني بيوتاً، غرفاً، أعشاشَ غرام؛ لستُ متزوجاً لأنني أعشق الغلمان. لا أحد يعلم، ولكن لا مانع عندي أن تعلم أنتَ بهذا الأمر.

- أنت مثليّ!

- لا، أعشق التنويع، أحياناً أضاجع الرجال وأحياناً أخرى أضاجع النساء، بحَسَب الطقس!

- وما صلة الطقس بالأمر؟

- لأنّ الصيف يُهيّج الفتيات؛ أمّا في فصل الشتاء فأفضّل عليهنّ الغلمان. أنت صديقي، أليس كذلك، لذلك أنا واثقٌ أنّك لن تطلع أحداً آخر على أمرٍ كهذا.

18

سهام

آثَر عازل أن يعود إلى برشلونة بالقطار. توقّف في ماربيّا واتصل هاتفياً بسهام. بدا صوتها مضطرباً. فالصغيرة رمتها بمنفضة سكائر أصابت وجهها. والوالدان غائبان في رحلة نقاهة إلى جنوب فرنسا. جُرحها يؤلمها، ولكن الأهمّ هو شعورها بالعجز التام، إذ اتضح لها أنّها لا تملك الخبرة الكافية التي تؤهلها لرعاية طفلٍ معوّق. تبذل كلّ الجهود الممكنة باستمرار، من دون شكوى، لكنّها لا تلحظ تقدّماً ملموساً، الأمر الذي يُحبطها. لذلك دائماً تنتظر بفارغ الصبر اللحظة التي تغفو فيها وداد، ففترة نومها هي فسحة الراحة الوحيدة المُتاحة وعندئذ تتهالكُ مُرهقة على إحدى الكَنبات قبالة التلفزيون لتشاهدَ ما يبثّه من برامج أيّاً كانت. وأحياناً تستغرقُ في أفكارها متخيّلة ما كانت لتكون عليه حياتها لو أنّها قرّرت البقاء في طنجة.

من المؤكّد أنّها كانت لتتكيّف هناكَ مع الأمر الواقع، راضخةً لمصيرِها، ولحذَت حذوَ الأخريات لا تفوّت دعوةً أو مناسبةً للخروج والانضمام إلى نساء أخرياتٍ يعانين ظروفاً

مماثلة، ولَكانت انصاعت لرغبات ربّ عملها الذي أتاح لها أن تحصّل رزقها كفاف يومها، لَغَدت عشيقته آملِةً في أن يصبح زوجها ذات يوم، ولوقَعت في جميع الأحابيل الممكنة واستعرضت في ذهنها كلَّ الكلام المُعاد وحلمت بجميع الأمور المستحيلة، ولاشترت أقمشةً مستوردة من الشرق وخاطت منها قفاطين لن ترتديها إلاّ مرّة في السنة، ولاقتنت، بالتقسيط، سيّارة لتصحب أمّها إلى موسم مولاي عبد السلام، ولَتبدّدَت أوهامها شيئاً فشيئاً ولتزوجت في آخر الأمر أرملاً نضِراً بعدُ وواجهت الكثير من المشكلات مع أولاده. . . بعد طول تفكير أدركت أنّها، في وضعها الحالي، ما زالت، على الرغم من كلّ شيء، أفضل حالاً من بنات عمّها ورفيقاتها اللواتي لَبِثنَ في البلد. إذ بلغها أن وفاء، إحدى رفيقاتها، التي لا تزال تلميذة في المدرسة الثانوية، قد حَبِلَت، وتعيش في هذه الأيام كابوساً حقيقياً. وفاعل هذه الفعلة لم يجد ما يُعالج به المشكلة سوى الضحك والموعظة: لا توجعي رأسي بهذه الحكاية، فالفتاة التي لم تتجاوز السابعة عشرة وتضاجع أوّل عابر سبيل تصادفه، لا بدّ أن تكون عاهرة، لذا تدبّري أمرَك بنفسِك، اذهبي إلى جليسة الحمّام وسوف تشير عليكِ بطبيبٍ كَيّسٍ، أمّا بشأن المال، فما عليك إلاّ أن تضاجعي نفرين أو ثلاثة ويُقضى الأمر بالتي هي أحسن. . .

كان الرجل يُخاطبها كأنّه واقفٌ على خشبة مسرح. لزمت وفاء الصمت، وذات يوم قصدت منزله طارِقةً بابَه وطلبت أن تقابل زوجته ورَوَت لها حقيقة ما جرى. الزوجة المخدوعة هي

التي ساعدتها على الإجهاض في ظروف طبيّة سليمة. لقد اعتدت مثلَ هذه الأمور، خاطبت وفاء قائلةً، هذه ليست المرّة الأولى، فزوجي مهووس بالجنس، إنّه لا يمارس الحبّ، وإنما يدسّ عضوَه في الثقبِ ويُفرّج عن مكبوت جسمه، إنّه رجل بائس، ما زلت أتحمّل العيش معه من أجل أولادنا الخمسة، ولكن عندما يكبرون، سأهجره إلى الأبد!

كان عازل ينتظر في الصالون ريثما تنام وداد فيتمكّن أخيراً من رؤية سهام. كان يتأمّل الديكور. عشرات من اللوحات غير الأصليّة ذات المنحى الاستشراقي، لكنّها نسخ متقنة. ما الذي يحدو بالناس إلى عرض لوحة غير أصليّة في بيوتهم؟ ألكي تذكّر بالأصل؟ لملء الفراغ؟ لإظهار اهتمام المرء بالطريقة التي كان رسّامو القرن التاسع عشر ينظرون بها إلينا؟ ميكال لا يعرض نسخاً في بيته، فقط لوحات أصليّة.

أعدّت سهام عشاءً وأحضر عازل قنينة نبيذ وتعشيا في أجواء هادئةٍ رقيقة. أخبرته أنّها أطلعت سيّدة البيت على علاقتها معه، وأنّه صار بإمكانه أن يأتي لزيارتها عندما لا تكون السيّدة هناك. الأمر الوحيد الذي حظرته عليها هو الكحول. ولكن لا بأس هذه المرّة، فمن غير المحتمل أن تعود إلى البيت على نحوٍ مباغت. لم يمارسا الحبّ بل تحادثا حتّى ساعة متأخرة من الليل. ثمّ نام عازل على الكنبة في الصالون فيما نامت هي في غرفتها.

في النهاية التحقت سهام بدورة تاهيليّة، لمرّة في الأسبوع،

في مركز للمعاقين في مالاغا. كانت تغادر صباح كلّ يوم اثنين وتعود في ساعة متأخّرة من المساء. ذات يوم اقترحت على عازل أن يلاقيها في آخر النهار لتناول العشاء معها ويمارسان الحبّ في غرفة الفندق التي يحجزها لها والد وداد. لم يكن عازل في أحسن أحواله ذاك اليوم. بدا متذمّراً عابساً، مُسرِفاً في التدخين غير قادر على التركيز. وللمرة الأولى تحدّث عن رغبته في استشارة طبيب، أو حتّى استشارة معالج نفسيّ:

- أنا أيضاً لم أعد قادراً على التحمّل، لستُ سعيداً، أعيش عيلةً كطفيلي، ومؤخراً ازدادت الأمور تعقيداً، سيتعيّن عليّ أن أجد عملاً لكنزة، وأن أستمر في التظاهر. ما أحتاج إليه هو بعض الاستقرار، بعض الوضوح...

- ماذا يعني لك ميكال؟

- إنّه شيء مهمّ في حياتي، أحبّه كثيراً، لقد ساعدني وهو الآن يساعد عائلتي. ولكننا لا نعيش إلاّ بمساعدة الآخرين. هو يقول إنّه يحبّني، إنّه مُغرَم، أمّا أنا فلستُ مُغرَماً، وفي بعض الأحيان لا أطيق أن يلمسني. لم أعد أنتصب، فأرغمني ذاك اليوم على ابتلاع قرص أزرق اللون، قرص فياغرا، أتجدين أن أمراً كهذا عاديّ في مثل سنّي؟ أنا عاهرة، هذا حقيقة ما أنا عليه، أو الأحرى ما أعتقد أنني أصبحتُ عليه.

حاولت سِهام ان تخفّف عنه. وعندما داعبته لاحظت أن عضوه لم ينتصب.

- ألا تشعر برغبةٍ في ذلك؟

- لا، ليست المسألة مسألة رغبة، ولكنّي مضطرب، ولا أنتصب!

- هذه مسألة عابرة، سببها الضغوط التي تتعرّض لها، لا تشغل بالك بي أنا، أعلم جيّداً أنّك رجل، وأعشق أن تضاجعني، حاول أن تنظّم أفكارَك بحسب أولوياتك وكُن واضحاً مع نفسِك، هذا هو المهمّ.

- يجب ان أستشير طبيباً.

- لو كنّا في طنجة لنصحتك باستشارة الحاج مبارك، إنّه شخص قدير، فقد تكون محصوراً بعَمَل سحر، امرأة ما لها مأخذ عليك وسَرْبَلَتْكَ بعَمَل سحر!

- كفّي عن هذا الهراء، أنت تعلمين جيّداً أنّه لا وجود لأمور كهذه.

في ساعة متأخرة استقل عازل القطار، وفي المقصورة نامَ ملء جفونه.

19

كنزة

بمضيّ ثلاثة شهور حطّت كنزة في برشلونة كأميرةٍ حقيقيّة. استقبلها ميكال في المطار محتجباً خلف باقةٍ ضخمة من الورد، وكانت يداها ورجلاها مزيّنتين بالحنّة. بدت شديدة التأثّر، كادت، لتعثّرها، أن تقع أرضاً. أسكنها ميكال في غرفة الضيوف. وكانت كنزة قد حملت معها صندوقاً من صنوف الطعام الذي أعدّته للاّ زُهرة. بدا عازل منزعجاً، حاول أن يبتسم، أن يُبدي سرورَه لقدومها. كان المغرب يحطّ في أسبانياً محمّلاً بصنوف طاجن الدجاج بالزيتون والحامض المحفوظ، وفطائر الجبن، وقرون الغزال، والكعك بالعسل لشهر رمضان، والتوابل، والنعناع الميبّس، والكزبرة المطحونة والبخور وملفّ يتوجّب ملؤه كتب عليه بحروفٍ بارزة للاّ زُهرة.

أغمض عازل عينيه. كان ميكال يُراقب حركاته وسكناته خلسةً.

- اعذرني يا ميكال، إني ذاهب إلى السوق لأشتري رطلاً من الصبر.

- وفي أيّ سوقٍ يُباعُ الصبر؟

- عند اليسوعيين!

- حقّاً. لقد فاتني هذا الأمر. المهمّ ألاّ تطول غيبتك.

تأقلمت كنزة مع إقامتها الجديدة بسرعة نسبياً. وقد يسّر لها إتقانها الأسبانية مشقّة التفتيش عن عمل. كانت تفتّش عن عمل في الشؤون الاجتماعية، من قبيل العمل كوسيطٍ بين المهاجرين والإدارات الحكوميّة؛ والأهمّ من ذلك أنّها عقدت العزم على تدبّر أمرِها بنفسِها. فمن غير الوارد بالنسبة لها أن تشكّل عبئاً إضافياً على ميكال. لقد ساعدها في حدود المستطاع فزوّدها برسائل توصية كما أجرى عدداً من الاتصالات بهذا الشأن. وبمضيّ شهر واحد، وظّفت في قسم الخدمات في الصليب الأحمر(*).

حاولت، بتكتّم شديد، أن تساعد كارمن في المطبخ، غير أنّ الأخيرة رفضت بحزم دلالةً على انزعاجها مما يجري من حولها. كان ميكال يُسمّيها «الزوجة السراب»، لشدّة ما ودّها على الفور، واستهواه ما تتمتّع به من حيوية وطاقة، وتصميمها على تحسين أوضاعها، وانفتاحها على الآخرين، ودائماً يردّد إزاء ما تبديه من نشاط وحيوية: أنت مغرب الغد، النساء سوف يُنعشن هذا البلد، إنّهنّ رائعات، وأعترف حتّى أنني أعاني ضعفاً حيال نساء جيلك، ولا يسعني إلاّ أن أُعجَب وأثق بهنّ.

عازل، من جهته، كان يزداد توتّراً، ويجتنب المناسبات

(*) Cruz Roja

التي قد تضطرّه إلى الانفراد بأخته وجهاً لوجه. أوفده ميكال إلى مدريد ليحلّ في صالة العرض محلّ المشرف عليها المصاب بوعكة صحيّة. وسرعان ما أدرك أنّ هناك مواقيت معيّنة تفتح فيها صالة العرض أبوابَها. ولذا اعتاد أن يُطيل السهر ولا يستيقظ إلاّ بعد الظهر. كان ميكال يعلم جيّداً أنّ لا جدوى من إثارة هذا الموضوع معه. فهو يزداد عناداً وشعوراً بالضيق. الأمر الذي آلم ميكال، فأسرّ لصديقٍ بما يعتمل في صدرِه، الذي بدورِه أجابَ بعبارات واضحة:

- إنّ هذه الحياة لا توافق طبع صديقك عازل؛ وأنا واثقٌ أنّك لو جعلته عاملاً يدوياً في ورشة، لَكان أسعد حالاً، فمن شأن هذا أن يشعره بأنّه مهاجرٌ بين آلاف المهاجرين من أبناء بلده. أمّا أنتَ فتوفّر له كلّ مستلزمات الحياة التي تليق بـ«باشا» لا بمهاجر؛ مالٌ وفير، ويُسر في الحصول على أي شيء، والأنكى في هذا كلّه هو أنّه ليس مثلياً حتّى! كأنّ أسرته التقت فجأةً «بابا نويل». صدّقني يا عزيزي، لن يطول بك الأمر حتّى يُقضى أمرك. بعد الابن والابنة، هناك الأمّ والجدّة إذا كانت هناك جدّة على قيد الحياة. فهؤلاء قومٌ إذا لاقوا فضلاً استنفدوا الفضلَ والمُفضِلَ ولم يتورّعوا!

- هذا كلام عنصريّ!

- لا، هذا كلامٌ ناجمٌ عن خبرة. هل تذكر أحمد الوسيم، أحمد الفاتن؟ كم عذّبني، وكم سلبني واستغلّ الموقف بوقاحة لا توصَف. لِمَ؟ لقد أدرك ببساطة أنّه قد ينال أي شيء بعضوِه. كنتُ ضعيفاً حياله، لا أرفض له طلباً. بعد ذلك هجرني وفي

جعبته الكثير من مالي. وراح يبتزّني، قال إنّه سيطلع ولديّ على حقيقة ما جرى بيننا، ولديّ اللذين أعاني من علاقتي الدقيقة، الصعبة معهما، واللذين تحرضّهما أمّهما على نبذي. تحاشياً للفضائح، سَدَدْتُ فمي. فكانت النتيجة أنّه سلبني ما استطاع إليه سبيلاً. هل تعلم ماذا أصبح اليوم؟ محتال عالمي، مختصّ بالمسنّين، يُقال إنّه استقر في مايوركا لأنّ معظم المثليين الأثرياء الألمان يقصدونها. إنّه قحبة، مومس من الطراز الرفيع. والحقيقة أنني لو عثرت عليه اليوم لقتلته بيديّ هاتين.

- أعلم، لقد جنى ثروة من خطّةٍ ولعه بالشيوخ. ولكن لا بدّ أن يقع ذات يوم على عظمةٍ ناشفة، على نصلٍ صدئ يمزّق أحشاءه.

- أعلم أن الغرض من قولِك هذا هو أن تعزّيني، لكنّ الحقيقة أنّه قويّ بارع التدبير، فهو يدّعي اليوم بأنّه مؤمن، ويصومُ شهر رمضان؛ كما بلغني أنّه فارّ من العدالة، مطارد من قبل عدد من أجهزة الشرطة العالمية. فهو متّهم بالتسبّب بوفاة محامٍ أميركي معروف بعد أن أقنعه بتناول عقارٍ لا يُنصح مرضى القلبِ بتعاطيه. أحد أبناء الضحيّة طلب من شرطة مايوركا أن تجري تحقيقاً في الأمر لاقتناعه بأنّ والده قد اغتيل اغتيالاً. أحمد قادرٌ فعلاً على ارتكاب مثل هذه الأعمال، فقد هدّدني ذات مرّة بعقارٍ مماثل عقب خلاف نشب بيننا حول مسائل مالية. إنّه رجل حقير، وأرجو أن ينال جزاءه في يوم من الأيّام. هو من طينة الرجال الذين يقضون برصاصة في أسفلِ الرأس، ويُعثَر على جثّتهم مرميةً بين سيّارتين في موقفٍ عموميّ.

- عازل ليس من هذه الطينة. مشكلته الوحيدة هي أنّه مُعوز تائه، يخجلُ من كونه عيلةٌ عليّ، وخاصّة منذ قدوم أخته وبداية عملها هنا.

- عندما يربو العمر على الستين، يا عزيزي، يُصبح الإغواء مُريباً.

- آهٍ من الحياة، كم هي جميلة!

- بلى يا عزيزي، آهٍ منها كم هي رائعة الجمال!

20

موحا

موحا، العجوز موحا، موحا المجنون، موحا الحكيم، خرج من شجرته، أشعث الشعر، خفيض الصوت، بارق العينين، ودخل مُسرِعاً، في كساباراطا، إلى مقهىً تُجرى فيه المساومات والصفقات بين المهاجرين غير الشرعيين والمُهرّبين.

كانت كاساباراطا، في الأصل، مدينة صفيح، ثمّ تحوّلت، مع الوقت، إلى سوق للمعوزين والفقراء، تُعرَض فيه كلّ أنواع البضائع، من الحذاء القديم البالي إلى جهاز التلفزيون. ثمّ تدريجاً جاورت هذه البضائع التقليديّة صنوفٌ من المنتجات الصينية، والسلع المهرّبة. غير أنّ السوق لم تكن محطّ اهتمام موحا في كاساباراطا بل الرجال الذين يحتسون الشاي ويدخّنون بيبّات الكيف.

أمسك بصحيفةٍ مُهملة على الطاولة، وطلبَ من النادل أن يعطيه قدّاحة، ثمّ رمقَ رجلين مسطولَينِ لفرط ما تعاطيا الكيف، ولوّح بالصحيفة قبل أن يضرم فيها النار.

إنّي أحترق أيضاً، أحترق مثل هذه الصحيفة التي لا تنطق

بالحقيقة، تقول إنّ الأمور على ما يرام، إنّ الحكومة توفّر ما أمكن توفيره من فرص العمل للشباب. إنّ من يعبرون المضيق خلسةً هم ضالّون، يائسون، أجل، ثمّة ما يدعو إلى القنوط من كلّ رجاء، لكنّ الحياة تمضي وتخلّفنا وراءها عند الحافّة، حافّة ماذا، لا أحد يدري، وأنا لن أقول، الحياة، أي حياة، تلك التي تسحقنا، تلك التي تمزّقنا؟ هيّا اجمعوا رماد الأخبار التي أحرقتها، هناك الكثير منها، أخبار كاذبة، مَثَل تلك المرأة التي كتبت في زاوية بريد القرّاء «قلب على قلب»، رِجْل على رِجْل، رِجلي رِجلك، سائلة عمّا إذا كان من واجبها أن تدع زوجها يُقبّل مِشْفَريها؟ وأخرى تسأل عمّا إذا كان ديننا يبيح إدخال عضو زوجها في فمها؛ ما هذا الجنون؟ يبدو أنّ هذه الرسائل لا وجود لها، وإنما شخص واسع الخيال يكتبها ويرسلها إلى الصحيفة. منذ تلك اللحظة وهذه الصحيفة اليساريّة تجني الثروات، عجيبٌ أمرُ الناس في تشوّقهم هذا لمعرفةِ ماذا يفعل الآخرون بأعضائهم التناسليّة، ولكنْ لا بأس، ليس الغرض من مجيئي أن أبذل لكم الموعظة الحَسَنةَ، فإذا أرادت امرأة أن تضاجع زوجها فلتفعل دونما حَرَج ولكن فلتكفّ في الوقت نفسِه عن إشهار ما تفعل على صفحات الجرائد. أمّا أنتم فمُرادُكم الفرار، الرحيل، مغادرة البلاد، الذهاب إلى ديار الأوروبيين، لكنّ الأوروبيين لا ينتظرونكم، أو الأحرى بلى ينتظرون لاستقبالكم بالكلاب، كلاب الراعي الألمانية، والأصفاد، والركل على المؤخّرات، تظنّون أنّ العمل متوافر هناك، والرفاهية، والجمال والأناقة، ولكن هناك سوف تلاقون يا إخوتي التعساء، الحزن والعزلة

والأوقات المكفهرّة، وثمّ أيضاً المال، ولكن ليس للذين قَدِموا من دون دعوة. حسناً، أنتم تعلمون ما القَصْد، كم وكم من الفتيان رحلوا وغرقوا؟ وكم منهم رحلوا ثمّ أُبعِدوا؟ كم منهم اختفوا في الطبيعة، ولا أحد يدري إذا كانوا على قيد الحياة، فأسرهم لا تعلم شيئاً عنهم، أمّا أنا فأعلم أين هم، إنّهم هنا في كبّوشتي، مكدّسون فوق بعضهم البعض، متوارون كلصوص، ينتظرون الضوءَ لكي يخرجوا، تبّاً لها من حياة. هه، أنت! السمين ذا الطاقية التي تحجب جبينه وحاجبيه، أتحسبُ نفسَك ماكراً، تجني منهم المال وترمي بهم إلى الموت، ذات يوم سوف يلتهمك الغرقى، سوف يأتون إلى فراشِك ويأكلون كبدك وقلبك وخصيتيك، سوف ترى، اسألني أين أصبح سيف، بلى، ذاك الذي أراد أن يتسمّى باسم الحسام لأنّه يتقن استخدام السيف كمسدّس، لقد ذبحه الموتى، بلى، مئات الجثث ظهرت فجأة كأنّما في يوم الحساب، استلّ سيفه لكنّ السيف ذابَ تحت أبصار الموتى الكابية والتصق بالحائط حيث امتدّت إليه أيادٍ قواطعُ كسكّين الجزّار ومزّقته. الرحيل، بلى، أنا أيضاً أمنيتي أن أرحل عن هذا البلد، ولكنّي سأسلكُ في رحلتي الوجهة المعاكسة، سوف أجتاز الصحراء، سوف أجتاز الصحراء كالرياح عاتية سريعة غير مرئيّة، سأعبر بين الكثبان، ولن أترك أثراً، لن أخلّف رائحةً ورائي، سوف يعبر موحا من هناك، ولن يلمحه أحد، ولكن إلى أين يا موحا؟ إلى إفريقيا، أرض أسلافنا، إفريقيا بلاد واسعة الأرجاء، وللناس فيها متّسع من الوقت للتأمّل في الحياة حتّى لو لم تكن الحياة سخيّة حيالهم، لكنّهم يستغلّون

وقتهم في إنجاز أمور لا جدوى منها، إفريقيا التي ألمّت بها لعنة السماء، إفريقيا المنهوبة من قبل سودٍ بربطات عنق، وبيض بربطات عنق وقرود بالسموكنغ. من قبل أناس غير مرئيين أحياناً. لكن الأفارقة يعلمون، ولا يتوقّعون ان يأتي أحد ما ويفسّر لهم ما يجري، إنّي اتحدّث عن إفريقيا لأنّ أناساً من تلك الأرض ساروا أياماً بلياليها لكي يبلغوا هذا المكان، لكي يبلغوا طنجة، قيل لهم إنّ طنجة هي باب أوروبا، فيها تشتمّون رائحة أوروبا، وتبصرون أوروبا وأنوارها، وتلمسون أوروبا بأصابعكم، يا لطيبِ رائحة أوروبا، إنها تنتظركم، يكفي أن تعبروا أربعة عشر كيلومتراً لكي تبلغوا برّ الأمان، اقصدوا سبتة فإذا بكم في أوروبا، بلى سبتة ومليلة هما مدينتان أوروبيتان، يكفي أن تتسلّقوا جداراً من الأسلاك الشائكة، حيث لا يستطيع الحرس المدني أن يفرض سيطرةٍ تامة على الأرجاء لذلك يعمد أحياناً إلى إطلاق النار عشواءً، وعندئذ لكم أن تختاروا بين الموت في مياه المضيق المثلجة، أو على زفت الحدود، لكم أن تختاروا يا أصدقائي، إفريقيا هنا. وحَسِبَ الفتيانُ أنّ حدود أوروبا تقع في طنجة، في الميناء، في السوكو شيكو، هنا، في هذا المقهى البائس، يتوافدون أخيلةً مترنّحة، أناسَ ريبة، أناساً جوّفوا من معدنهم، يتسكّعون في الشوارع، ينامون في المقابر، يأكلون القطط، بلى، هذا ما تقوله الشائعة، وأنا أصدّق الشائعة التي هي لؤمٌ مجّاني، يفقد الأفارقة قَدْراً إضافياً من روحهم، أمّا نحن العرب البيض، أو لنقل: أصحاب البشرة الكامدة أو البنيّة أو السمراء، فنشعر بأننا أعلى مرتبةً، ببلاهةٍ نشعر بأننا أعلى مرتبة، ويتراءى لنا أننا

وجدنا فيهم، أخيراً، مَن نزدري به، فلا بدّ لنزعاتنا العنصريّة أن تظهر وتُمارَس، قبل ذلك كنّا نسيء معاملة الفقراء، ولكن عندما يكون الفقراء أفارقةً ذوي بشرة سوداء، نفقد السيطرة على أنفسنا، ونحسبُ أنّ من حقّنا النظر إليهم باستعلاء، ونحذو بذلك حذوَ بعض الساسةِ الأوروبيين، ينظرون إليكم باستعلاء، والحقيقة أنّهم حتّى لا ينظرون إليكم، عَجباً، هوذا صاحب السلطان، الشرطي الخارق لا يوقف المهرّبين، ونسأل جميعاً لِمَ لا يعترض طريقهم، أجل، هذا ليس سرّاً ولكنّي أكتفي بهذا القَدْر، لن أضيف شيئاً، أسكت، أسدّ فمي، وإذا سمعتم كلاماً يصدر عنّي فلأنّه يخرج من تلقائه، كلامي يُبحرُ إلى عُرْض البحر، يتحرّر، ينطق بالحقيقة. حسناً، أعطني كوب ماء، مَليكة الصغيرة تحتاج إليّ، إنّها تسعل، مريضة، لفرط ما قشّرت القريدس في عزّ البرد أصيبَت بذات الرئة، يجب أن نوفّر لها الدواء، أهلها لا يملكون المال لشرائه، سأجمع تبرّعات، لَمّة، يجب أن ننقذها، إنّها فتاة جميلة تستحقّ أن تعيش، أن تضحك، أن ترقص، أن تتسلّق قمم الجبال وأن تكلّمَ النجوم. . .

الرحيل، الرحيل! الرحيل كيفما اتفق، وبأي ثمن حتّى لو كان الغرق، والطّفْو على سطح الماء ببطن منتفخ ووجه تأكّله الملح وعينين مجوّفتين. . . الرحيل! هذا هو الحلّ الذي تفتّقت عنه أذهانكم. أنظروا إلى البحر: إنّه بهيّ بثوبِه البرّاق، وعطورِه اللطيفة، غير أنّ البحر يبتلعكم ثمّ يلفظكم أشلاء. . .

والآن أودّعكم، مَليكة تنتظرني.

21

عازل

كارمن لم تكن راضية. فميكال الذي تعرفه جيّداً فقد صوابه. هذا الزواج من أخت الطفيليّ، كما كانت تسمّيه، يُثير حفيظتها. ترى جيّداً أن محظيّها يتعرّض للاستغلال والتلاعب منقاداً إلى مَن يحاول النيل منه ولا يتحمّل أي تلميح أو نقد بهذا الشأن. عقبَ اسشارتها ماريّا، العرّافة الغجريّة العجوز مُلقيةَ الأذى من السحر، عادت أدراجها عازمةً على وضع حدّ نهائي لهذا الوضع. أحرقت بخوراً ووزّعت أكباشَ قرنفل على مواضع بعينها من أرجاء البيت. وفي ظنّ ماريا أنّ ظهور مفاعيل هذا التدبير قد يستغرق وقتاً، ولم يبق إلاّ الانتظار والدعاء.

كان ميكال يمقت رائحة أكباش القرنفل التي تذكّره بعيادة طبيب الأسنان. بادر أولاً إلى سؤال كنزة إذا كانت هي التي تضع هذا الصنف من العطور، فهو المفضّل لدى فلاّحي الأطلس. فَعَجِبَت كنزة لسؤالِه وحاولت بدورها أن تهتدي إلى مصدر هذه الرائحة. ارتابت بكارمن التي لم تكفّ منذ وصولِها عن رمقها بنظرات لئيمة لكنّها لم تبح بشيء مما دار في خلدها.

كان بوسعها استغلال موقعها بوصفها زوجة ميكال وسيّدة المنزل، ولكن آثرت ألاّ تفعل. المطلوب أولاً هو أن تعمل على تهدئة الموقف؛ فكأنّ هذا المنزل يتحوّل تدريجاً إلى مسرَحٍ تدور على خشبته فصولُ مسرحيّة رديئة.

قرّرت كنزة أن تنتقل للسكن في غرفةٍ في مقرّ الصليب الأحمر وأن تحاول إقناع شقيقها بتغيير سلوكِه. فهي ما زالت تنتظر حصولها على بطاقة الإقامة والعمل التي تتيح لها، أخيراً، أن تقيمَ مطمئنة في أسبانيا، لكنّها تعلم في قرارتها أنّ المشكلة الحقيقية هي عازل الذي ما عادت تلتقيه إلاّ لماماً والذي لا تعرف حقاً كيف تخاطبه. كانت تتحرّج في حديثها مع أخيها من التطرّق إلى أمور الجنس. فمثل هذا التصرّف غير مألوف لدى الأسر المغربيّة؛ فهي تعلم حقيقة ما يجري ولكن بأيّ كلامٍ تصارحه؟ كان عازل يُنكرُ الأمرَ حتّى قبل أن تلمّح تلميحاً إلى المسألة؛ يحنق، يصيح قائلاً: ماذا، مَن تحسبينني بالضبط؟ أنا لستُ مهرّجاً، ولستُ متسوّلاً، ميكال صديقي، هديّة أرسلها الله لكي ينقذ عائلة، إنّه رجلٌ نبيل وسخيّ، فَلِمَ تلميحكِ إلى أنّ هذا النبل دافعه المصلحة، ثمّ أنّكِ في آخر الأمر لا تعرفين شيئاً عن حياتي، عن حياتي الحقيقية، تصدرين الأحكام، تقلقين، ولكن هل تعلمين إذا كنتُ سعيداً، إذا كنتُ أحيا حياة كريمة، إذا كانت حالتي النفسيّة مستقرّة، إذا كنت أودّ أن أطلق رصاصة على رأسي، أن أتوارى عن الأنظار، أن أكفّ عن الوجود. هل طرحت مثل هذه الأسئلة على نفسِك، ثمّ كفّي عن التفكير أنّني جئتُ إلى هنا لأسباب لا يجوز البوح بها. تساورك شكوك

بشأني، غير أنّ أكبر هواجسك هو نفسك، سُمْعَتُكِ، بقاؤك أنتِ، بلى، أنا أبذل ما بوسعي لكي أعيش، لكي أهتدي إلى معنى للأمور. لستُ بطلاً ولستُ وحشاً، أنا رهينُ مكامنِ ضعفي، أعشق المال، وأعشق يُسرَ الحياة، وأدرك الآن أنّ لهذا كلّه ثمناً، ولن أقول لكِ ما مقدار هذا الثمن وكيف أسدّده!

كان من الممكن أن أتّبع مساراً عادياً، أن أجد عملاً بعد إنهاء دراستي، عملاً محترماً، يوفّر لي مكانةً في المجتمع، ويشكّل ضماناً ويحثّني على السيرِ قُدُماً. كان من الممكن أن أنجز أموراً رائعة، أن أكون مستقيماً، أن أحافظ على وهمي وأبقى في الوقت نفسِه على أرض الواقع. أن أكون فاعلاً ومفيداً، ولكن لا، حُطِّمتُ، ولستُ الوحيد، كثيرون مثلي وقفوا عند أفقٍ مسدود، فاسِد، لا شيء يلوحُ في المستقبل. هل تدركين قسوةَ أن تنهضي كلّ صباح لكي تعيشي مجدداً ما عِشته بالأمس، عيش تكرار، عيش العَوْد الأبدي للأمور نفسِها، ويطلَب منكِ ألاّ تقنطي، ألاّ تستسلمي للمغريات، ألاّ تمسكي باليد الممدودة إليك لأنّ وراء اليد الممدودة نوايا مبيّتة، مضمرةً لا يجوز البوح بها. هل تدركين قسوةَ أن يقصد واحدنا المقهى كلّ يوم لكي يلتقي نفسَ الناس ويصغي إلى نفس التعليقات حول ما شاهدوه أمسِ على التلفزيون، أو يصغي إلى اثنين من حَمَلة الشهادات يتناقشان بحدّة حول أيّ المحرّكات أفضل، محرّك هذا الطرز من سيّارات المرسيدس أو ذاك الطرز من سيّارات الـ BMW. أو حول تقلّبات سعر العقارات في طنجة، وإذا ما كان الصيف سيأتي هذه السنة حاراً أو رطباً، وإذا كانت أسبانيا

ستقفل حدودها في وجه المورسكيين، واحتساء نفس القهوة بالحليب وتدخين السكائر الأميركية المهرّبة، والشعور بأنّ الوقت لا ينقضي، بأنّ الوقت يتطاول، يتكاسل، والساعات تبطئ في تعاقبها. نجلس هناك، ونتطلّع إلى مكان آخر، نقول أيّ شيء، ونتظاهر بالإصغاء، والحقيقة أننا نودّ أن نقلب الطاولة، أن نرشق المتحدّث طوال الوقت وقميصَه الأبيض بفنجان القهوة بالحليب، لذا نلعب بالورق، أو الدومينو، ننسى الوقتَ الذي يلتصق بنا كالعَلَقة، يمصّ حيويتنا، ولكن ما حاجتنا إلى هذه الحيوية التي تزعجنا، لذا نتكلّم على النساء، سواء كنّ حقيقيات أو من نسج الخيال، نتحدّث عن فروجهنّ عن أثدائهنّ، نصرّف مكبوتنا، وليس في ذلك ما يدعونا إلى الزهو، لا، أنا لا أشعر بالزهو... وعلى الرغم من ذلك ينبغي لواحدنا أن يصمد، أن يحفظ مكانته، أن يحافظ على مظهره. ولكنّ الفقر يا أختي البكر العزيزة، الفقر لا يتيح لكِ الحفاظَ على مكانتك، بل يُسمّرك في مكانك، هناك، على مقعدٍ خشبٍ، ليس من حقّك النهوض، أو العبور إلى مكان آخر لاستكشاف سماء قد تكون أوسع رحمةً، ولكن لا، الفقر لعنة، ولا أعاني منه وحدي، أنتِ أيضاً ضحيّته، أنتِ تستحقّين ما هو أفضل من هذه الخديعة، الزواج الصوري للحصول على أوراق ثبوتية، لمحو بؤسنا، مرارتنا. أجل، لستُ أنا الوحيد، أنظري ما يجري في المكسيك، أجل، على الحدود بين المكسيك وأميركا، أناس يتسلّلون، يُخاطرون، يهجرون أرضهم سعياً وراء فرصةٍ في بلد حيث المال هو الملك، في كلّ بقعةٍ من هذه الأرض هناك أناس يصبون إلى

اقتلاع جذورهم، إلى الرحيل كأنّهم يفرّون ناجين بأنفسهم من خطر وباء، من مرض ينبغي الفرار منه، بلى، الفقر مرض، أنظري الأفارقة الذين يمارسون الدعارة لقاء حفنة من النقود، أنظري المغاربة الذين يزاولون التهريب التافه كالأغبياء، ذات يوم سوف تعتقلهم السلطات، وإذ ذاك يقولون إنّ الأسبان عنصريون، لا يحبذون الموركسيين، هذا ما نلجأ إليه عادة، فعندما تنفد حججنا لا يبقى إلاّ تهمة العنصرية، نعم، نحن موركسيون ولسنا محبّبين إلى القلوب، لقد فقدنا عزّة نفسنا. آه لو رأيت يا أختي ما يجري في قاع هذه المدينة، في البلاد الداخلية لهذه البلاد، لما صدّقتِ عينيك! لو رأيتِ كيف يُعامَل الـ las espaldas mojadas، كما يسمّوننا نحن الناجين من بين خروم الشبكة، وهم محقّون في ذلك، فليس خافياً على أحد أنّ أكتافنَا مبلّلة، خرجنا لتوّنا من المياه، ومياه البحر لا تزول، لا تجفّ، يبقى أثرها على ملابسنا، على جلودنا. Las espaldas mojadas، هذه صفتنا، وقبل ذلك، قبل ذلك بزمن طويل، كان الإيطاليون يسمّون بـ«الريتال»، والأسبان بـ«اسبنغوينز» أو بـ«اليوبان»، وغير ذلك، ونحن أيضاً، ما زلنا على حالنا، نحن المووروس والزاراب. الزاراب ذوو الأكتاف المبلّلة، انبثقنا من البحر كوحوش أو أشباح! أمّا الآن، فإنّي أنسحب!

عند المساء اتصل ميكال هاتفياً بكنزة وقال لها:

- بالي مشغول، عازل متوار عن الأنظار وهاتفه النقّال مقفول، أخشى أن يكون قد أصابه مكروه.

طبعاً لم يكن الظرف مناسباً لكي تفاتحه بالعرض الذي تلقّته

من كارلوس، وهو صديق كانت التقته في منزلِه، اقترح عليها أن ترقص في مطعمه ليلةً أو ليلتين في الأسبوع لتجني بعض المال. لذا حاولت أن تهدّئ من روعه على الرغم من يقينها أنّها عبثاً تحاول لأنّ شقيقها لم يعد قادراً على تحمّل هذا الوضع. كانت قلقة عليه فعلاً، ذلك أنّ عازل من طينةِ الذين لا يتورّعون عن التورّط في أعمالٍ خطرة فقط لكي يثبت أنّه لا يزال هوَ. تعلم أنّه يعاشر منذ بعض الوقت زمرةً من المغاربة المتبطّلين الذين يتعيّشون على أعمال تهريب صغيرة. على الرغم من مقتِه لنمط حياتهم، كان غالباً ما يلتقيهم ويتقَوْلَب بقالبهم كأنّه يحتاج بين الفينة والفينة أن يحيا مجدداً، ولو لهنيهات، حياة البؤس التي هجرها. في عداد هؤلاء شخص يُدعى عبّاس، مقيم بصفة غير شرعية، ولا يُعرف له سكنٌ ثابت، عاطل عن العمل، يُفاخر بأنّه «يَنكَح» الجميع، الحرس المدني، وأجهزة الأمن، ومكتب الهجرة، والمخبرين، والشرطة المدنية، والقنصليّة المغربيّة، وأسبانيا الاشتراكيين وغير الاشتراكيين...

عقب فترة صمت، حدّثته كنزة عن كارلوس.

- إنّه عَرضٌ ممتاز يا عزيزتي، خاصّة أنّ المطعم المعنيّ يعدّ مطعماً للطبقة الراقية، وليس ملهى ليلياً. اقبلي العرض من دون تردّد، وسأكون في الصفّ الأول بين الحضور، فرقصُك رائع...

22

عبّاس

كان لسان عبّاس لا يكلّ عن تعداد الحسابات التي يزعم أنّه يصفّيها مع هذا البلد. قصير القامة، كامد البشرة، يَقِظُ العينين وإن شابهما احمرارٌ، في معظم الأحيان، بسبب ما يتعاطاه من صنوف المخدّر؛ كان مراهقاً بعدُ عندما عبر الحدود إلى أسبانياً مختبئاً في شاحنة بضائع. كاد أن يقضي اختناقاً أثناء الرحلة. ما أصبح مصدر تفاخر لديه، ولكن أيضاً مصدر ضغينة مَرَضيّة حيال أسبانيا التي أبعدته عن أراضيها في مرّة أولى، ثمّ اعتقلته وسلّمته إلى السلطات المغربيّة أثناء محاولة ثانية للدخول إليها بصفةٍ غير شرعية.

أنا أعرفهم جيّداً هؤلاء الأسْبَنيول، فقراء أصبحوا أثرياء ونسوا انّهم كانوا فقراء، أذكر أنّ والدي كان يخبرني بأنّ الأسبنيول كانوا يفدون إلى بلادنا كالمتسوّلين بثيابهم الرثّة يكنسون الشوارع ويقصّون الشعور ويقودون حافلاتنا. كانوا أسوأ حالاً منّا، نحن كنّا لا نملك شيئاً ولكن على الأقلّ كنّا في ديارنا، ومع ذلك كانوا يزعمون أنّهم أفضل منّا، تخيّل، اسبانيا،

بلد السراويل المرقّعة، والياقات البالية، وماء الكولونيا المقزّزة، في المغرب كانوا يعيشون عيشَ الملوك، يعتقدون أنّهم متفوّقون علينا. كان أبي يقول إنّهم هلعوا هلعاً لم يعرفوه من قبل عقِبَ استقلال المغرب، وظنّهم أننا هنا سنذيقهم ما كانوا ذاقوه في الجزائر، ولشدّة هلع من كان مقيماً منهم في بلدتنا لجأوا إلى الكنيسة. وعندها فقط أدركوا أننا أناس صالحون، وأننا لن نذبحهم. بعد ذلك بسنوات طويلة أردتُ أن أردّ لهم الزيارة، أعني أن أذهبَ إلى ديارهم، فذهبتُ إلى القنصليّة ووقفت في الصفّ ساعات تحت الشمس الحارقة، وملأت استمارة طُلِبَ فيها ذكرُ تفاصيل التفاصيل كما لو كنتُ مجرماً مطلوباً للعدالة، ثمّ بعد العذاب: والو، لا تأشيرة، لا مكان لأمثالك عندنا. عندها استبدّ بي الغضب، وأقسمتُ في سرّي أن أدخل بلدهم من دون أوراق، خلسةً، كسوبرمان، ليس أنني سأقفز بالمظلّة، وإنّما دبّرتُ خطة، قلتُ في سرّي إنّ أوروبا قد دلّلتهم حتّى أفسدتهم، أغدقت عليهم بالحنطة، لا بل حتّى أنهم أصبحوا ديمقراطيين، تخيّل، بهمّة خوان كارلوس، كم أحبّ هذا الرجل، أنا واثق أنني لو وجّهت طلبي إليه مباشرةً لما واجهت مشكلة، فهو الذي غرس الديمقراطيّة في رؤوس الاسبنيول، رجلٌ موهوب، وكذلك الأمر فيليبي، حتّى أنني قدّمتُ له ذات مرّة شاياً بالنعناع حين كنتُ نادلاً في الـ«كافِه دو باري»، بلى، كنتُ أعمل فيها ماسح أحذية معتمداً، كان لي صندوقي الخاص ومئزري الأزرق، ولكن ذات يوم لم يعد هناك أحذية جلدية، لم يعد هناك عمل، فبدّلتُ المئزر وصرتُ نادلاً، ولم يرق لي

الحال، ركبتُ السفينة بعد ذلك، لم أقطع تذكرة، اندسستُ بين البحّارة كأنني واحد منهم، وعند وصولي إلى ألجسيراس استقبلوني بأسلحتهم، ارفع يديك وكلّ هذا الهراء المعروف، أمر لا يُصدّق، بين ليلة وضحاها غدوتُ شخصاً مهمّاً، قلتُ تريّثوا، أنا لا أحمل سلاحاً ولا أوراقَ ثبوتية، ولا مالَ لأحنّن قلوبكم عليّ. سَلَّموني إلى قبطان السفينة، ابن زانية بحق، حبَسني ونسيني في القعرِ ثلاثة أيام بلياليها ولم يترك لي سوى قنينة مياه صنبور، لا مياه معدنيّة، المقتّر البخيل، كنت أصيح وأضرب الباب برجلي ويديّ، جائعاً كحيوان مطارد، الوغد، وعندما رآني مجدداً قال لي: «لا، لم أنس، وإنّما نَقَعْتُكَ بنقيعِكَ كي لا تحلم مجدداً بأسبانيا»، أعتقد أنّه لم يكن اسبنيولياً قحّاً ولا بدّ أن دماً عربياً يخالط دمه، من المؤكّد أنّ لديه شيئاً مما عندنا نحن، لأنّ سحنته لم تكن بيضاء، وبه شبَهٌ من الجنرال أوفقير. فلكي يكون المرء على هذا القدر من اللؤم، بأية حال، لا بدّ أن يكون ثمّ ما يزعجه، ما يضايقه، فلربّما كان يمقت سحنته ويريد أن ينتقم، وكنتُ سجينه؛ ذات ليلة، وفيما كانت السفينة راسية في مرفأ الجسيراس، أطلق أحد البحارة سراحي. وظلّ يردّد على مسمعي عبارة «هيا اهرب، أتمنّى لك التوفيق». الآن وقد أصبحت هنا أخيراً فلن أغادر، أعرف الاسبنيول جيّداً، لم ترق لهم كثيراً حقبة الذهب والفضّة أيام العرب في الأندلس، يقولون في سرّهم، غير معقول، أقوام المورسك احتلوا جنوب بلادنا، **لوس موروس ولوس خوديوس، اليهود**، جميعهم إلى خارج الحدود وإلاّ أحرقناهم.

لا أقصد أنّنا اليوم نعود إلى الأندلس، غير أنّهم يمقتون رؤيتنا ونحن نرودُ النواحي عند حدودهم، الأمر غريزيّ لديهم، لا يلمح أحدهم موريسكيّاً إلاّ وراودته الشكوك، إلاّ ورأى فيه نذير شؤم، علامةً سوداء، إنّهم متطيّرون ومن مصلحتهم أن يقيموا على حذرهم لأنّنا أناسٌ قساة. أنا أعلم جيّداً ما أقول، الاسبنيول حذرون متطيّرون لكنّهم سذّجٌ أيضاً، ألا ترى أعداد هؤلاء المسلمين الوافدين إليهم، وقناعة بعضهم أنّهم يعاودون فتحَ ما خسرَه أسلافهم من قبل، أنا أعتقد أنّ في الأمر مغالاة، لا شيء هنا يستأهل معاودة الفتح، ولكن هناك شرائط مسجّلة متداولة تتحدّث عن أمر كهذا، ولستُ واثقاً من أنّ الوضع لن ينفجر ذات يوم، البلد يبتعد بوتائر متسارعة، أوروبا ترفعه إلى الأعلى وتبعده عنّا، قبل ذلك كنّا نقول إننا قريبون، أقصد أننا جيران، أربعة عشر كيلومتراً، أربعة عشر خطوة، أربعة عشر لا شيء تفصل بيننا، والحقيقة أنّ آلاف الكيلومترات تفصل ما بيننا وبينهم، في نظرهم المغاربة يعني مسلمين، وتحضر في ذاكرتهم ما كانت تقوله الكنيسة بشأن المسلمين، ولم يكن قولاً يُشرّفنا، إذاً نحن مسلمون وفقراء وإقامتنا هنا غير شرعيّة، ما يعني أنّنا خطرون، ومهما حاولنا أن نشرح لهم بأنّ مسيحيين يعتنقون الإسلام بأعداد متزايدة يوماً بعد يوم، فإنّ خوفهم منّا يتعاظم هو أيضاً يوماً بعد يوم. . . أعرفهم جيّداً، أعلم ما يدور في رؤوسهم من أفكار وأتفهّم حالهم، فنحن في آخر الأمر لسنا هديةً من السماء، أنظر من حولك، جميع هؤلاء الشبان بلا عمل، يتسكّعون في المحطّات وفي الساحات الكبرى، حوّلوا

الباريّو(*) شينو إلى سوق، وحوّلوا الباريّو غوتيكو إلى مدينة قذرة، لا شغلَ لهم ولا مَشْغَلة، ينتظرون، يدبّرون أمرهم بما تيسّر، وأنا واحدٌ منهم، ولكن فيما يعنيني أنا فإنّي أفوقهم شطارة، أنجو بنفسي عبر خروم الشبكة، والشبكة حين أشعر بأنّها مُطبقة علينا لا محالة، أفرّ هارباً، أنام في المسجد وأتوارى عن الأنظار... على المرء أن يلزم حذره، إذ ليس في نيّتي أن أعود إلى البلد، لا رغبة لي في ذلك، لا رغبة لي إطلاقاً في العودة إلى البلد، لا رغبة لي، أعمل قليلاً هنا وهناك، آكل جيّداً، وأشرب جيّداً، وأدخّن قليلاً، والحياة جميلة، بلى الحياة جميلة جداً! أليس كذلك يا عزّ العرب؟ ألم تجد ما يُسعِدَك في هذا البلد؟ كأنّك محاصرٌ، فما خَطْبُك؟ ألستَ مسروراً بمضاجعة العجوز؟ مع أنّه يجزل لك العطاء، ويجب أن تكون راضياً، فيما يعنيني أنا فقد حاولتُ وابتليتُ برجلٍ بخيل مقتّر وارتخى عضوي على الفور، فتركته عاريَ العجيزة وسلبته ساعة يد، رولكس أصلية من ذهب وفضّة بعتها لعربيّ غير مقيم هنا كان في زيارة، وما جنيته منها أعانني على العيش شهرين من دون عمل، بعدها لم يجرؤ العجوز البخيل أن يطأ منطقتي، كان رجلاً يعمل في مجال السياسة حريصاً على سمعته، هذا فضلاً عن كونه رجلاً متزوجاً وله أولاد... اسمع، لا ينبغي أن تغضب، أقبِل على الحياة كما هي، خُذ مكانَك في هذه البلاد وسِر قُدماً، والأهمّ من ذلك كلّه: لا ندم، لا حسرة، وافعل مثلي، أنا أسرق،

(*) Barrio، هو الحيّ (من أحياء المدينة) بالأسبانية. م.

أهرّب على الخفيف، أنا لا أذهب مثلاً لبيع المخدّرات على أبواب المدارس، لا، فمثل هذا السلوك يقزّزني، ما أبيعه هو هواتف نقّالة مزوّدةٍ بشرائح إلكترونية مهرّبة تتيح لهم أن يخابروا مجّاناً، لا بأس بذلك، ألا تشاطرني الرأي! يظل الهاتف صالحاً لبعض الوقت، وبعد ذلك يُعتَلَم ويُعطّل، وليس عليّ إلاّ أن أكون حاضراً لاستبدال القديم بواحد جديد مع التكلفة، كما أبيع بطاقاتٍ للأجهزة اللاقطة للمحطّات الفضائية تتيح لمالكها أن يشاهد جميع محطّات التلفزة في العالم، وهكذا يُتاح لك أن يكون العالم بأسره في متناولك لِقاء ثمنٍ زهيد، يكفي أن تمتلك جهازاً لاقطاً للمحطّات المشفّرة، ولن تعود مضطراً إلى دفع بدلات اشتراك أو تأمين، أبداً، وبفضل البطاقات المقرصنة أجني ما يفيض عن حاجتي، ولكنْ يجب أن أقرّ هنا بأنني لستُ صاحب الفضل في إنجاز عملٍ كهذا، فأنا لا أجيد استخدام الأنترنت للعثور على الرموز المشفّرة اللازمة، وإنما صاحب الفضل والجهد هو باكستاني عبقريّ في القرصنة على الشبكة ارتضى أن يفعل ذلك لأجلي، وهو يردّد دائماً أنّ ما يفعله هو بمثابة ثأر لأننا لسنا أشد غباءً منهم، فأن تكون فقيراً لا يعني بالضرورة أنّك غبيّ، كم أحبّ هذا الفتى، شغّيل مُجِدٌّ وكتوم، عندما أستذكر حياتي هناك في البلد، لا أشعر باستياء لأنني في هذه البلاد وإنْ لم تكن، في حدّ ذاتها، جنّة الفردوس، يجب أنّ نكفّ عن تكرار هذا الهراء في بلادنا كأن نقول مثلاً إنّ أسبانيا هي الحلم، إنّها الفردوس على الأرض، حيث المال المُباحُ بيُسر، وحيث الفتيات في متناول اليد، والضمان الاجتماعي

وغير ذلك. ولكنّي أعتقد أنّ الناس يعرفون الحقيقة في قرارة أنفسهم، يشاهدون التلفزيون ويرون بأمّ العين كيفَ نُستَقبَل هنا، ويرون جيّداً أنّها ليست الجنّة، ولكن قُل لي للمناسبة أين يقع الفردوس الأرضيّ؟ هل تعلم أنتَ؟ أنا أعلم، الفردوس هو حين أكون مُستلقياً على فراشي منصرفاً إلى تدخين سيكارة ملغومة، وحين أفكّر بما قد تكون عليه حالي اليوم لو أنني بقيت في البلاد، ثمّ أحتسي كأساً أو اثنتين وأستسلم للنوم هانئاً، مطمئناً، سعيداً، غير متطلّب، أغفو وأرى منامات بالألوان، بالعربيّة والأسبانية، زاخرةً بأسماكٍ مبرقشةٍ ترقص في رأسي، وألحان تعزفها أجمل نساء العالم التي هي أمّي.

بينما كان مسترسلاً في موعظته المطوّلة، راح رجلٌ جالس على حصيرٍ في مؤخّر الدكّان الضيّق، يسعل سُعالاً متّصلاً. استفسر عازل عمّن يكون.

- إنّه حامو، شاب قطع نصف المسافة إلى هنا على متن مركب، ونصفها الثاني سباحة. أصيبَ بذات الرئة أو شيء من هذا القبيل؛ يسعل ويتفّ قذارات، يجب أن نجد له طبيباً لا يشي به لدى الشرطة، ماذا عن صديقك، لا بدّ أنّه قادر على تدبير هذا الأمر، أليس كذلك؟

لم يشأ عازل أن يورّط ميكال في مسألةٍ كهذه.

- بإمكاني أن أجمع بعض المال لكي نشتري له العقاقير اللازمة...

- لا، لا تشغل بالَك، أعتقد أنّ الأخوة سيتولّون أمرَه. ففي أحوالٍ مماثلة غالباً ما يُبدون استعدادهم للمساعدة.

أدركَ عازل أن عبارة «الأخوة» إنّما تشير إلى الإسلاميين. فلم يُعلّق، لكنّ عبّاس لاحَظ عبوسَه.

- اطمئنن، أنا أعلم جيّداً أنّ الأخوة لا يؤدّون الخدمات من دون مقابل، طبعاً سيساعدون ولكنّهم سيطلبون بالمقابل بعض الخدمات، حتّى يومنا هذا لم أطلب مساعدتهم، ولهذا سألتكَ عن صديقك، ولكن إذا كان الأمر مستحيلاً كما تقول، سأجد نفسي مضطراً لقبولِ عرضهم؛ ففي صفوفهم أطباء ومحامون ومتموّلون، وهم منظّمون جداً، أنا شخصياً لم أكن أعلم أنّ للمسلمين مثل هذه القدرة على تنظيم أنفسهم.

- أنتَ حقاً عنصري!

- لا يستطيع المرء أن يكون عنصرياً حيالَ الجماعة التي ينتمي إليها. هذه إذاً ليست عنصريّة، بل نفاذُ بصيرة. لم أحصّل تعليماً لكنّي أدبّر أمري على نحوٍ ما، لقد علّمتني مدرسة الحياة أموراً كثيرة، مثلاً: إذا أراد المرء أن يسير قُدُماً في هذه الحياة عليه أن يتقبّل الاستماع إلى أقوالٍ غير مُستحبةٍ جداً عن الجماعة التي ينتمي إليها؛ انتبه جيّداً، أنا لا أكلّم أحداً سواكَ بهذه الطريقة؛ أمّا الاسبنيول فأبدو أمامهم أشدّ تعصّباً للعروبة من القذّافي نفسِه.

- لأنّك تحسب أن القذّافي مرجع في هذا المجال؟

- لا، أعتقد أنّه يسبّب لنا ضرراً، لكنّه واحد منّا.

- لا، ليس واحداً منّا. هل تعلم أنّه ملياردير بالدولار؟

- وإذاً؟ أنا فقيرٌ باليورو!

وضحكَ عبّاس طويلاً مُربّتاً بيده على ظهر عازل.

- أنتَ رجل متعلّم!

- أجل، لكنّ العلم لم يُجدِ نفعاً.

- بصراحة، يحدث لي أحياناً، أنا الرجلُ الصلبُ، أن أبكي وحيداً في غرفتي الضيّقة. أجل، بين الفينة والفينة أذرفُ دموعاً حارّة على حياتي، على وضعي. أفتقد أمّي كثيراً، أكلّمها أحياناً عبر الهاتف، ولكن لا يسعني الذهاب لرؤيتها، لم يعد بحوزتي أيّ أوراق ثبوتية، لا جواز سفر مغربياً ولا بطاقة هوية، ولا تصريح إقامة، وإذا غادرت هذا البلد، فسوف أغادره مكبّلاً بالأصفاد مع ركلةٍ على مؤخّرتي. أتحسب حقّاً أنّ هذه حياة؟ أنا بطل جميع الأوزان في الإقامة غير الشرعية، أستترُ بحُلْكةِ الليل كي لا يروني، وبرُمْدَة الفجر والضباب لكي أعبرَ خلسةً، أجتنبُ الأماكن المقفرة، وأبقى طوال الوقت على أُهبة العَدْوِ، عرفتُ جميعَ مداخل الكنائس في الناحية، وهكذا إذا ساءت الأحوال أرتمي بلا تردّد في أحضان الكاهن، ليس من صلاحية أحد أن يُخرجني بالقوة من الكنيسة، هذا ما جرى لي فعلاً ذات يوم، وصودِفَ أنّه يوم عيد الميلاد، فاضطرّوا إلى التراجع والكفّ عن البحث والتحرّي، وأمضيت الأعياد بصحبة الرهبان، إنّهم ينعمون بحياة كريمة، حتّى أنني صلّيتُ معهم، فأنا قديرٌ على التكيّف باستمرار، بطل جميع الأوزان في التكيّف مع الظروف! أرادوا أن أعمل معهم، والقصد أن أعتنق المسيحية، لكنّه أمر مستحيل، قد لا أكون مُسلِماً صالحاً، فأنا أشرب الخمرة، وقد أغفل عن فعلَ الخير أحياناً، ولا أصلّي، ولكن أن أغيّر ديني

بدافع المصلَحة، أبداً، فأنا، على الرغم من كلّ شيء، لي مبادئي.

دعاه عازل لاحتساء الشراب بصحبته. وقال له إنّهما معاً قادران على التخطيط لعمليّة ما.

لم يأخذ عبّاس كلامَ عازل على محمل الجدّ؛ يشعر بمودّة غامرةٍ حياله غير أنّه يعتبره ممّن نالوا غرضهم من الحياة وكفى.

كان عازل يحسد عبّاس على قدرته على سرد وقائع حياته بسهولةٍ بالغة، مشكلاته، الصعوبات التي يواجهها، أن يُسرّ إليه بخفايا قلبه، أمّا هو فما كان ليجرؤ على ذلك. يشعر بأنّ شيئاً ما يجذبه في هذا الدكّان الذي لا يحتوي إلاّ على ما هو غير شرعيّ وخطر. كان المكان ملكاً لمغربيّ آخر مُطارَد ومتّهم بتهريب حشيشة الكيف وكان عبّاس يشغّله بانتظار عودته. أمّا الشرطة فغضّت النظر قليلاً أملاً في العثور على أدلّة ترشدها إلى مكان وجود المطلوب الفارّ. معظم الهواتف النقّالة مصدرها التهريب، وكان عبّاس ينجو كلّ مرّة بفعلته بسبب قدرته على التخفّي والتلاعب بالمظاهر حتّى أنّه تمكّن من رشوة عدد من المخبرين الذين حَموه. والحقيقة أنّه لم يكن لعازل أي شأن بهذا الدكّان، ومع ذلك كان يحلو له أن يقضي فيه بعض الوقت، وخاصّة عندما يشعر بأنّه على شفير الانهيار. ففي أوقات مماثلة كان يهمل مظهرَه، ولا يحلق ذقنه، ويُفرِط في التدخين.

23

ناظم

أطلق عليه أهلُه اسمَ ناظم إحياءً لذكرى الشاعر التركي ناظم حكمت. طويل القامة، أسمر البشرة، عينان ملوّنتان، شاربان كثّان، ويعمل نادلاً في مطعمٍ يُزعَمُ أنّه شرقيّ اعتادت كنزة أن ترتاده بين الفينة والفينة بصحبة زميلاتها في الصليب الأحمر. مطعم «كباب» مُلكٌ لقريبٍ له، من أصلٍ كرديّ، ومقيم في برشلونة منذ عشر سنوات. أمّا ناظم فقد غادر بلاده في ظروفٍ غامضة، فتارةً يقول إنّه غادرها لأسبابٍ سياسيّة، وطوراً يقول لأسبابٍ عائلية. فيختلط الأمر على سامعه. كانت كنزة مفتونةً بابتسامته وعينيه الجميلتين، فإذا لَمَّحت رفيقاتها إلى الأمرِ، ضحِكَت.

لدى خروجها ذات مساء من مقرّ الصليب الأحمر التقت ناظم. زَعمَ أنّه مرّ من هناك بمحض الصُدفة. دعاها لاحتساء فنجان قهوة بصحبته فرفضت لأنّه من المفترَض أن تذهب إلى مطعم كارلوس لكي ترقص. ألحّ عليها فقطعت له عهداً بأنّها ستلتقيه عمّا قريب في «كباب»، وعندها يتّفقان على موعد.

لحق بها. وعندما دخلت المطعَم أيقَنَ أنّ هناك من ينتظرها. دفعَ الباب برفق متذرّعاً بالبحث عن صديقٍ كان من المفترض أن يلتقيه هنا. فأجلسه النادل إلى طاولة مُنفردة في مؤخّر المطعم وقال له:

- بالانتظار تمتّع بالعَرْض! سوف تشاهد رقصة استريلاّ، أجمل راقصات الشرق.

بمضيّ عشرين دقيقة تقريباً ظهرت كنزة، بماكياج كامل، مُرتديةً غلالات ملوّنة، وشرعت في الرقص بأناقةٍ ورقّة. راح الزبائن يصفّقون، ودسّ بعضهم أوراقاً نقديّة حول حزامها. أمّا هي، الجميلة المُسَلْطِنة، فكانت غافلةً عن كلّ شيء ما عدا الإيقاع وحركاته لكي يُصاحبُه التمايلُ الرشيقُ لكلّ ثنيةٍ من ثنايا جسمها. كانت لها قدرة عجيبة على هزّ الكتفين كما الوركين من دون أن تخطو خطوةً واحدة؛ ثابتة في مكانها ترقصُ وترقص كأنّ الجسمَ بأكملِه سرت فيه رعشة. كاد ناظم ألاّ يتعرّف فيها على الفتاة التي يلتقيها في مطعمه. دام العرض ربع الساعة، قبل أن تحلّ محلّها راقصةٌ آسيوية. فاغتنم ناظم الفرصة لكي يُغادر خلسةً.

عندما رآها ميكال مُقبلة نحوه في ساعةٍ متأخّرة من الليل، بسط ذراعيه وضمّها إلى صدره. لقد سرّه أن يراها مجدّداً آملاً في التحدّث إليها بشأن عازل الذي أصبحت حاله مثاراً لقلقه المتزايد.

- إنّي أسفٌ جداً لعدم تمكّني من رؤيتك وأنت ترقصين، لقد وردني اتصال هاتفي من نيويورك استغرقني بعض الوقت. ولكن ها أنتِ هنا، وهذا المهمّ. أنا سعيدٌ جداً لقدومِك. هل ترغبين في التبرّد قليلاً، أن تستحمّي مثلاً؟ ففي آخر الأمر، هذا بيتُك!

تعشيا في الصالون، وجهاً لوجه. واحتست كنزة، للمرّة الأولى في حياتها، كأسَ نبيذ من تخميرة ريوخا لسنة 1995. موسم ممتاز، قال ميكال الذي راح يُحدّثها عن شغفه بالنبيذ الجيّد ويشرح لها فضائل هذه الهِبة من هِبات الطبيعة. أصغت كنزة مبهورةً بسعة اطلاعه وبالأسلوب الذي كان هذا الرجل المرهَف يتكلّم به عن شيءٍ ما زالت هي تنسبُه، بكل ثقة، إلى حياة الرذيلة والفسق.

- إذا كنتُ لم أقرب الخمرةَ من قبل، قالت، فذلك لأنّ الرجال عندما يشربون في بلدنا دائماً يُفرطون في الشرب ولا يعرفون متى ينبغي لهم أن يتوقّفوا، يشربون حتّى الترنّح وفَقدِ الرشد. الشائع عندنا لا أن يتذوّق المرء النبيذ أو أن يشرب، بل أن يشرب حتّى الثمالة.

والحقيقة أنّها كانت حائرة في أمر كأس الريوخا الذي شربته. فطعمُه الغريب لا زال في فمها، ولا تمانع في كأسٍ ثانية. بدت مبتهجةً، مغتبطة، آسِفةً لانشغال ميكال في ساعةٍ مماثلة بسلوك شقيقها.

تذكّر ميكال فجأة أنّه صار مُسلماً:

- أعلم، ستقولين إنني مُسلم غير صالح لأنني أحتسي النبيذ، ولا بدّ لي أن أقول لك إنّني استفسرتُ حول هذه المسألة: هناك تأويلات متناقضة لبعض الآيات الواردة بشأن الخمر. أنا أعتقد أنّ الإسلام لا يقبل حال السُكر، لأنّ الإنسان في هذه الحال يفقد وقارَه كما يفقد السيطرة على أفعاله، لاسيّما إذا وجب عليه تأدية فريضة الصلاة. إنّ سائر الأديان تجمع حول هذه المسألة: لا ينبغي للمؤمن أن يبتهل إلى الله إذا كان فاقد السيطرة على نفسِه. وهذا أمر طبيعي. أنا أشرب لأجل المتعة، لا لكي أفقد توازني كما تقولين.

- ألا تلاحظ أنّ أولئك الذين يسكرون يرفضون، هم أنفسهم، أكل لحم الخنزير، ومع أنّ الجانبون لا يُفقد الإنسان توازنه أو وقارَه فإنّهم يحرّمونه على أنفسِهم. أمرٌ غريب، أليس كذلك؟

- ولكن حذار، إنّ الإفراط في تناول الجانبون يُسبّب ارتفاع معدّل الكولوستيرول في الدم، ولكنّي أشكّ في أن يكون هذا هو السبب الذي يحثّ المسلمين الذين يعاقرون الخمر على الامتناع عن أكل الخنزير. حتّى أنّ عازل يزعم بأنّ هذا الصنف من اللحوم يسبّب له حساسيّة. يا لهذا النفاق!

بعد فراغهما من تناول العشاء، رافق ميكال كنزة إلى مسكنها. وأطلعها في الأثناء عن المشكلات التي يواجهها بسبب عازل وصالة العرض في مدريد. لقد بلغه أنّ عازل لا يتوانى، برغم مرتّبِه الكبير وبدل النفقات الذي يتقاضاه، عن اختلاس بعض المال من الصندوق.

- يحسب عازل أنني شبيه جان جينِه، الكاتب الفرنسي، الذي كان غالباً ما يزور طنجة، إنسان متمرّد، وشاعر كبير، ومِثْليّ، أمضى فترةً في السجن بتهمة السرقة؛ جينِه كان يهوى أن يسرقه عشّاقه، إذ يرى في ذلك خيانةً تطمئنه أو تستثيره، بحسب الظروف. أمرٌ غريب حقاً، وعلى الرغم من يقيني بأنّ عازل لم يقرأ جينِه يوماً، فالأرجح عندي أنّه يعتقد بأنّ تصرّفه كزُقاقيّ من شأنه أن يُرضيني.

صُدِمَت كنزة لوصفه شقيقها بالزقاقيّ. ومع ذلك فهي تعلم جيّداً كم أن شقيقها سيئ السلوك، وكم هو قادرٌ على ارتكاب أي فعلة، وكم هو سببٌ لخيبة أمل الجميع. حاولت عبثاً أن تتصل به. وفي الليلة نفسها تلقّت اتصالاً من والدتها أعربت خلالها عن قلقها هي أيضاً بشأنه. لقد علمت من نشرات الأخبار التي تبثّها الإذاعة أنّ الشرطة الأسبانية اعتقلت مغاربةً لاشتباهها بانتمائهم إلى منظمات إرهابية. فوجئت كنزة بالطريقة التي ربطت بها والدتها الأمور، وسارعت إلى تبديد مثل هذه المخاوف. فلا مجال لتورّط ابنها في أمور مماثلة. غير أنّها برغم تطميناتها ساورتها الوساوس، لكنّ عازل غائب عن السمع.

كانت ليلة طويلة من الأرق. صورٌ مقلِقة وبشعة راحت تلحّ على مخيّلتها. دماء على قميص أبيض، رؤوس مهشّمة، أيادٍ مقطوعة، ورجال الشرطة في كلّ مكان، عبارات بالعربيّة وأخرى بالأسبانية، وجوهٌ غُفْلٌ تعبر الليل، عينا عازل تتوسّلان جلاّداً، صوتٌ رخيمٌ يتلو آيات قرآنية، قط أسود يقفز فوق أجساد أطفالٍ لُقطاء، أخيلةٌ تلتصق بالحائط، وهرج ومرج.

لن تقوى على النوم. أخذت دُشّاً، وارتدت ملابسها ثمّ خرجت لكي تتمشّى قليلاً في الشارع.

برشلونة عند الفجر مدينة تفقد طابعها المعدنيّ، وتغدو عذبةً، متّسعة الأرجاء كحلم كلُّ ما فيه على خير ما يُرام. البيوت محتجبة. والجادات نظيفة. حفنة أنوار متلاشية في كنف الضباب. المدينة تستيقظ. تخلع رداءها وتستقبل المُغلِسينَ من المارّة. أكشاك الصحف تُعدّ نُصَبَها والمقاهي ترصف الطاولات على الرصيف، وروائح قهوةٍ وخبزٍ محمّص تُخالطُ الهواء. وئيداً تتشح المدينة بأضواء النهار الأولى. سَهَت كنزة عن أحلام الليلة المؤرقة وغمرها شعورٌ، حَيِيٌّ، بالغبطة. فجأة مَثُلَت صورةُ ناظم أمام عينيها. لمحته في عداد الجمع. كانت تتبسّم كما في تلك الأفلام الأميركيّة حيث يلتقي رجلٌ وامرأة وتنشأ بينهما قصّة حب، واحدة من تلك القصص التي لا وجود لها إلاّ في السينما. حتّى أنّها بدت مقتنعة بأنّ كاميرا تصوّر حركاتها وسكناتها منذ أن وطأت قدماها أرض الشارعَ، ما أشعرَها بشيء من الخفّة. صوت يهمسُ في أذنها قائلاً: على الرغم من كلّ شيء يبدو أنّك سعيدة في هذه المدينة، حسناً فعلتِ حين تحدّيتِ قدَرَك وغادرت طنجة والعائلة والمشاكل اليوميّة، أنتِ جميلة وحرّة، كنتِ محظوظةً بلقائك ميكال، هذا الرجل ذا المزايا الرفيعة، المهمّ ألاّ تتوقّفي حيث أنت، تابعي طريقك، قريرةَ العين، لَستِ مسؤولة عن أخيك، ولا ذنبَ لكِ في ما يرتكبه من حماقات، كنزة، هأنذا أخاطبك، أنا كنزة الأخرى، التي طالما حثّتكِ على المضيّ قُدُماً، التي علّمتكِ الكفاح،

وعدم الاستسلام، التي جعلت منكِ فتاة حرّة، لا تصغي كثيراً إلى ما تقوله لك أمّك، سوف تلتهمكِ، واحرصي على نفسِك، على حياتك، لا تنقادي إلى شباك القدر المحتوم، ارفعي رأسك وانظري الطيور المهاجرة التي تواعدت على اللقاء في هذه البقعة من سماء برشلونة، راقبي إيقاعَ تحليقها الذي يشبه رقصَ الباليه في هذا الصباح فقط لأجلِك، لأجل عينيك التوّاقتين إلى النور، الحياة جميلة وإنْ كان كثيرٌ من الحمقى يستعجلونَ رميَها بالشقاء، ونشرَه في حناياها، أنتِ في مأمن، سالمة غانمة، هيّا اسرعي، واقبِلي على الحياة واضحكي. . .

جلست إلى إحدى الطاولات في مقهى رصيف وطلبت قهوةً من دون سكّر وخبزاً محمّصاً. هُنيهة استمتاع، هُنيهة عزلةٍ محبّبة. ثمّ راحت ضوضاء المدينة تزحف في الأنحاء متبوعةً بالحركة المعتادة في ساعةٍ مماثلة من النهار. وكان عليها أن تتخلّى عن كلّ هذا لتذهب إلى مقرّ عملها، في الصليب الأحمر.

مساءً دعت زميلاتها إلى العشاء في مطعم «كباب». راحت تجيل بصرَها في الأرجاء بحثاً عن ناظم. لم تجده. ربّما كان يوم إجازته. لكن الحقيقة أنّه كان متوارياً عن الأنظار بعد أن بلغه أنّ مفتّشي وزارة العمل سيجرون تدقيقاً في أوراق العاملين في تلك الليلة. قبل أن تغادر تركت له الرسالة التالية: «نحن ثلاث نساء يبحثنَ عنكَ. الـ«كباب» لا يستحق العناء من دونك!»

بعد وقتٍ أدركت أنّ ما كتبته لا يخلو من جرأة غير معهودة، وكم ودّت أن تعود أدراجها لتستردّ الرسالة وتمزّقها.

لكنّها تمالكت نفسَها هُنيهات، وتخلّت عن الفكرة، تاركةً للأمور أن تسلك مجراها. بعد ذلك، فيما كانت متوجّهةً إلى مطعم كارلوس، سمعت خَفقَ خطوات متسارعة تدنو منها. لاهثاً، استوقفها ناظم مُعتذراً لتخلّفه عن لقائها في المطعم. كان يتكلّم فرنسيّةً متقنة تعلّمها أثناء دراسته الثانوية.

- لا أطلب منك سوى أن نحتسي كأساً سوياً، أو شراباً ساخناً، قبل أن تعودي إلى بيتك...

ألحّ عليها. غير أنّها لا يسعها قبول دعوته، كما لا يسعها مصارحته بأنّها في طريقها إلى أداء وصلة راقصة في مطعم للطبقة الراقية.

- غداً، الليلة أنا متعبة. غداً في الـ «كباب» نحو التاسعة مساءً، هذا وَعْدٌ منّي.

بدت مُرتبكةً. ففيما راحت تسوّي بدلة الرقص الشرقي التي ارتدتها، كانت صورة ناظم ماثلة في ذهنها. ثمّ دَلَفَت إلى المنصّة، خاطِرةً بين الطاولات كملاكٍ أوفدته النجوم إلى الأرض. كانت الموسيقى المصريّة رائعة. فأغمضت عينيها وأسلمت جسدها لإيقاعها متخيّلةً نفسَها في أحد الأعراس في بلدها. صفّق لها الحضور طويلاً، لاسيّما حين راح جسدها يهتزّ بكلّ ثناياه. ثمّ حيّت معجبيها ورَمَتهم بغلالاتها قبل أن تغادر. وراء الكواليس، سارعت إلى ارتداء ملابسها ثمّ وقّعت على ورقةٍ حملها النادل إليها، وتوارت تحت جنح الليل.

في اليوم التالي وصلت إلى الـ «كباب» متأخرة بعض

الشيء. وكان ناظم في انتظارها متبسّماً. وقبل أن يتبادلا أي كلامٍ خاطبها قائلاً:

- اسمعي ما قاله ناظم حكمت عن هذه البلاد:

أسبانيا وردةٌ مدمّاة متفتّحة على صدورنا
أسبانيا، صداقتنا في ظلّ الموت
أسبانيا، صداقتنا على ضوءِ أملنا الذي لا يُقهَر.
وأشجار الزيتون العتيقة الممزّقة، والأرض الصفراء والأرض الحمراء المثقوبة من جهةٍ إلى أخرى.

«إنّه يتكلّم على أسبانيا سنة 1939. ولا صلة لذلك بالديموقراطية الجميلة التي تنعم بها اليوم. لقد تغيّر الناس، وأضحت الأذهان أكثر عصريّة. ولم يبق سوى مشكلة وحيدة: وهي أنّ الأسبان لا يحبّون المورسك كثيراً. أعلم ذلك لأنهم غالباً ما يعاملونني كمورسكي. وعندما أقول لهم إنني تركي، يجيبون بأنّ الأتراك هم خير من خبروا المورسك. وذات يوم تلوتُ هذه الأبيات لشاعرنا العظيم على مسمع أحد الملاّكين الأندلسيين التقيته في قطار:

في داخلي شجرة
أتيتُ بغرستها من الشمس،
أوراقها مترنّحة كأسماكٍ من لهبٍ
ثمارُها عصافير مزقزقة.

«فنظر إليّ ضاحكاً، ثمّ ردّد «ثمار تزقزق»! ومدّ يده مُصافحاً وقال: «أنتَ لستَ من معشَر المورسك، بالتأكيد!» قالها في معرض امتداحي.

«هذه الكراهية حيال العرب لا أستطيع أن أفهمها.»

كانت كنزة تصغي إليه مُرتَشفةً كلماته حرفاً حرفاً. تبدّد شعورها بالنعاس، ومعه تلاشت رغبتها في العودة إلى مسكنها. كان الجوّ معتدلاً في الخارج. فتمشّيا جنباً إلى جنبٍ، يداً بيد. كان يحدّثها عن الأندلس العربيّة، عن تلك الحقبة التي كان فيها اليهود والعرب ينظمون الشعرَ ويؤلفون الموسيقى معاً في أجواء من الوئامِ المذهل.

24

كنزة وناظم

كان مطعم «كباب» يُغلق أبوابه يومَ الاثنين من كلّ أسبوع. وذات يومٍ من أيام الاثنين تلك طلبت كنزة من مديرتها أن تمنحها يوم إجازة وذهبت لملاقاة ناظم في مقهى المحطّة. كانا عقدا العزم على تمضية اليوم سوياً في قريةٍ تبعد نحو نصف ساعة عن برشلونة. لكي يتعارفا ويتحدّثا على سجيّتهما ويشعرا بأنّهما في إجازة. كان ناظم شاباً أنيقاً وجذّاباً. وصل إلى موعده مبكراً وبالانتظار راح يراقب المُسافرين المتشابهين فيما بينهم على نحوٍ لافت. غريبٌ حقّاً كيف يتدافعون ويتراكضون في حالٍ من السهوِ والشرود. ولكن لحسن الحظّ وصلت إلى المحطّة عائلة إفريقية وجلبت معها، بما ترتديه من ألوان مختلفة زاهية، نفحةً حارّة من نفحات الصحراء التي أشاعت في أجواء المحطّة المكفهرّة لمسةً من البهجة، وأنغاماً تدعو المُسرِعين المقطّبين إلى الرقص. بالانتظار اختلط ناظم بهؤلاء الزوّار المبتهجين المسرورين لوجودهم هنا. قَدِموا من مالي عبر المغرب. ليسوا من المهاجرين، الغزاة، كما قال ربّ الأسرة. اسمح لي أن

أعرّف بنفسي، أنا البروفسور محمد تورِه، مختصّ بتجبير العظام، ومدعو من قبل عميد كلية الطبّ في برشلونة لإلقاء سلسلة من المحاضرات. زوجتي طبيبة أطفال، جاءت لتفقّد أقسام الصليب الأحمر الذي يُعدّ برنامج مساعدة لمناطق إفريقيا الغربيّة. أولادنا غالباً ما يرافقوننا في تنقّلاتنا المختلفة. قبل شهرين كنّا جميعاً في برنستون، وكانت إقامتنا هناك مفيدة جداً لولا مشكلة وحيدة وهي أنّ الجميع هناك يتكلّمون الإنكليزية، وهي لغة أفهمها جيّداً غير أنني لا أتقن التحدّث بها، على العكس من الأسبانية التي لقِنتُها في المدرسة منذ أمدٍ بعيد. وأنتَ، ماذا تفعل هنا؟

عرّف ناظم عن نفسِه. وفي الأثناء لَمَح كنزة من بعيد وهي تبحث عنه. أعطاه السيّد تورِه كَرْتَه الشخصيّ. إذا قصدتَ مالي في يوم من الأيام، اتصل بي، سواء احتجت إلى اختصاصيّ في العظام أم لا. ثمّ غادرت الألوانُ ردهة المحطّة. اختفت كنزة. كانت جموع المسافرين والواصلين تزداد عدداً واكفهراراً. أو في الأقلّ هذا ما كان ناظم يراه من أحوال العالم المحيط به. أهو تشوّه في إدراكِه الحسّي، أم مجرّد رؤية زاخرة بالحيرة والإحباط؟ وعلى الرغم من يقينه بأنّه لَمَح كنزة قبل قليل، ساوره الشكّ. راح يركض في كلّ اتجاه، لا يُبصر شيئاً. ثمّ عاد إلى المقهى فجلس وطلبَ شراباً غازياً.

ظهرت كنزة فجأة كأنّها طلعت من صندوق ساحر. وبثوبها المزهر مالت على أذن ناظم وهمست قائلةً: دعنا لا نضيّع الوقت.

جلسا في القطار وجهاً لوجه، صامِتَيْن. بدا قَلِقاً بعض الشيء وراحت تتساءل عن السبب. لعلّه صُدِمَ لجرأة قراراتها. وحين يشملها بنظراته كانت تشعر بحنان غامرٍ يجتاحُ كيانها. يداه الجميلتان، الكبيرتان الرقيقتان. تحدّقُ بشفتيه اللحيمتين وتتخيّل أنّها تعضّهما. تضحك. يسأل عمّا يُضحكها. آهِ لو تعلم يا صاحبي! لم يفهم ما ألمحت إليه كلماتها، ولم يجرؤ على تأمّل صدرها المكوّر، وعينيها العسليتين الضاحكتين، وشعرها الأسود الكثيف، وساقيها، وفمَها.

منذ وصوله إلى أسبانيا لم يعرف ناظم سوى امرأتين. كانت الأولى مواطنةً له اعتقدت أنها وجدت فيه زوجاً وأباً لولدها التي كانت تربّيه بمفردها. وكانت علاقتهما قصيرة الأجل مضطربة. أمّا الثانية فهي امرأة من أصلٍ كوبيّ، موظّفة في أحد المكاتب. غادرت بلدها بعد أن وقعت في غرام أستاذ جامعيّ أسباني قَدِمَ إلى كوبا لإلقاء سلسلة من المحاضرات في جامعة هافانا. وعقب انتهاء صلاحية تأشيرتها رفضت العودة إلى بلادها، وغدت مقيمة بصفة غير شرعيّة شأن آلاف المهاجرين من أميركا اللاتينية والمغرب. وقد غلب على علاقتهما، هي وناظم، طابعها الجنسيّ المحض. ثمّ افترقا بعد شهورٍ قليلة دون حزن أو دموع. منذ ذلك الحين وناظم يبحث عن امرأة أقرب إلى ثقافته. يحتاج إلى أن يسمع اللغة التركيّة أو العربيّة في الأقلّ، إلى أن يطرب لموسيقى بلاده، إلى من يشاطره انفعالاته وأفكاره. وكنزة هي أقرب ما يكون إلى الصورة التي يصبو إليها. فهي عربيّة، وإن كان مظهرها يوحي بأنّها من جنوب أوروبا، حرّة وجميلة،

والأهم من ذلك كلّه أنّها مقيمة بصفة شرعية في أسبانيا. فقد كان يأمل، في قرارة نفسه، في الإفادة من وضع كنزة القانوني لتسوية وضعه، هو، غير القانوني. لقد تعب من كونه مقيماً غير شرعي. لكنّ ناظم كان حريصاً كلّ الحرص على عدم التطرّق إلى هذه المسألة، فهو لا يريد أن يظهر بمظهر الانتهازيّ، الساعي وراء منفعته الشخصيّة، غير الصادق في مشاعره.

لدى وصولهما إلى محطّة سباديل الصغيرة، كان رجال الشرطة يدقّقون في الأوراق الثبوتيّة ويستوقفون دونما تمييز كلّ الأفارقة وغيرهم من المغاربة والغجر. أمسكت كنزة بذراع ناظم وتقدّمت بثقة. انتابه الفزع لوهلةٍ، لكنّ ما أبدته كنزة من ثقة بنفسِها أمدّه بالقوة وراح يشدّ على يدها امتناناً.

تبادلا القبل على الرصيف. بدا ناظم متحرّجاً، أمّا كنزة فكانت تتصرّف على سجيّتها. هي التي جذبته نحوها وألصقت شفتيها على شفتيه. كمراهقٍ، احتقن وجهه، لشدّة انفعاله وحبورِه. اقترح عليها أن يذهبا لتناول فنجان قهوة بالحليب. رفضت اقتراحَه، فهي ترغب في تناول قشدة القهوة المثلجة.

عندئذٍ قرّرت كنزة أن تمسك هي بزمام الأمور. وبنبرة امرأة حرّة وعاقدة العزم، نهضت وخاطبته قائلةً: اتبعني، سوف نقضي اليوم في الـ «بريستول»، إنّه نُزلٌ ساحر، سوف ترى.

منذ ما يزيد على العام لم تلمس يدها جسدَ رجل. نزعت عن ناظم ملابسَه وراحت تلعق جسمَه وهي تشمّه كأنّه زهرة، تتشمّمه، وتداعبه وتمصّه. أمّا هو فلبث مُستَسلِماً لمداعباتها مُتسائلاً متى يُمسك هو بزمام الأمر. وعندما اعتلاها، جذبته

إليها بقوّة مردّدة، هيا اسحقني، أريد أن أشعر بكاملِ ثقلِك عليّ، لا أريد أن يفوتني شيء من جسمك، أريده فيّ، بأكمله، عميقاً.

تضاجعا كنَهِمَيْن. كانت هي تكلّمه بلهجة طنجة، وهو يُجيب بالتركية. كانت رنّة الألفاظ بلغتيهما تثير شهوتهما. وفي طريقها إلى الحمّام خطت بضعَ خطواتٍ راقصة مُدندنةً. كان ناظم يعلم جيّداً كم أنّها تتقن الرقص الشرقيّ ما يجعل كل حركةٍ من حركات جسمها مفعمةً بشبقٍ لا يُضاهى. انتهزت الفرصة لتخبره أنّها تؤدي وصلة رقص شرقي لليلتين في الأسبوع في مطعم «لويل دوليف»(*). أراد أن يخبرها بأنّه سبق أن شاهدها وهي ترقص هناك، لكنّه آثر ألاّ يفعل.

في طريق عودتهما لم يتبادلا إلاّ كلاماً قليلاً، لشدّة ما سكَنَ جسداهما إلى تعبهما اللذيذ، ولشدّة ما امتلأ واحدهما بالآخر.

(*) مطعم «زيت الزيتون». م.

25

عازل

تلقّى عازل صفعةً أوقعته أرضاً لَبِثَ على إثرها مشدوهاً. لم يخطر بباله قط أن ميكال قد يضربه يوماً. لا بل لبث لبعض الوقت غير مدركٍ حقيقة ما جرى. وعندما نهضَ عن الأرض جاءته كارمن بحقيبته وأشارت بيدها إلى الباب. لقد حذّرت ميكال مراراً من عواقب بعض تصرفّات محظيّه، غير أنّ الأخير كان، إلى اليوم، يكتفي بإيماءة عجزٍ من يديه وابتسامة. كان ذلك طوال الفترة التي أحبّه فيها.

كان عازل يُدرك جيّداً أنّه لا يملك هذه المرّة ما يساوم عليه. لقد تمادى في تصرّفاته، وأخلّ بوعوده، وهو الآن يجني ما زرعته يداه. توجّه إذاً نحو الباب صاغراً، مغمغماً أنّه قد يعود لحملِ ما تبقّى من متاعه. مدّت كارمن يدها لكي تستردّ منه مفتاحَ المنزل. تردّد عازل هنيهات قبل أن يدس يده في جيبه بحثاً عن المفتاح الذي ألقاه، في آخر الأمر، على طاولة المدخل. فجأة ارتسمت على محيّاه علائمُ أسى مثيرة للشفقة. لكنّ كارمن أطرقت واستدارت مغادرةً كأنّه لم يعد موجوداً

أمامها. كان على ميكال أن يسافر إلى مدريد للإعداد لمعرض ضخم للفنّان كلوديو برافو الذي لم يقم معرضاً في أسبانيا منذ ما يزيد على الخمسة عشر عاماً. فتوارى في غرفته ريثما يغادر عازل المنزل فيخرج. كان من عادة ميكال الذي يمقت لحظات النزاع الحرجة، أن يترك لكارمن حريّة التصرّف في ظروف مماثلة. ويبرّر جبنه عبر إقناع نفسِه بأن مواجهة إضافية مع عشيقه لن تجدي نفعاً. فشجارهما الأخير كاد أن يتحوّل إلى مأساة. ذلك أنّه يتحوّل إلى شخص لئيم وسوقيّ في المواقف التي تثير غضبه. ففي مواقف مماثلة تستيقظ في شخصيّته صفات الفتى الزقاقيّ من رامبلاس، وهو الجانب الذي طالما كبته لشدّة ما كان يمقته. وعندئذٍ لن يتوانى عن الإمساك بأي جسم حادّ ليضرب به من يستفزّه. وهذا بالضبط ما يُثيره سلوك عازل لديه.

كان عازل يتمادى أكثر فأكثر في ضَيَاعِه. يختلق لنفسِه عالما خاصاً به، يؤمن إيماناً قاطعاً بالقدر، وبالأحلام المُنذِرة، ويستسلم منقاداً إلى ما يحلو له أن يسمّيه بـ«فَوَحان عطر الموت». أصبح كذّاباً محترفاً، ألعبانَ تزوير يُتقِنَ قَلْبَ المواقفِ المعقّدة لصالحه، متّكلاً على سواد عينيه الباشّتَيْن، ورموشه المستطيلة. كانت أمّه تردّد على مسمعِه أنّه أجمل فتيان طنجة. وصار اليومَ مؤمناً بحرفيّة كلامها فيستغلّ ما حُبِيَ به كلّما سنحت سانحة.

أشعل عازل سيكارة. كان يعلم يقيناً أنّه يغادر حيّ أيهامبل السكنيّ إلى الأبد، وسلكَ اتجاه رامبلاس. سماء برشلونة مغمورة بضياء جليل، غير أن قلبَ عازل مقبوض، كأنّ يداً

غريبة أطبقت عليه وعصرته. الدموع في عينيه. رِيقهُ ناشف ومُرّ. راح يخفّف عن نفسِه بقولِه إنّ السبب هو التدخين والنبيذ الرديء الذي احتساه ليلة البارحة. يسير مُطرِقاً. لا رغبة له في التحدّث إلى أحد، لا رغبة له في التفكير. ومع ذلك كم يعشق السير في جادة «باسايغ دي غراثيا» حيثُ قد يسير المرء إلى الأبد. غير أنّ لا شيءَ على جريٍ عادته في هذا الصباح، الناسُ أشبه بأخيلةٍ، أجسادٍ شفيفة تنذر بشقاء وشيك. خيّل إليه أنّه يسلك منحدراً خطراً. فيتوقّف بين الفينة والفينة، متكئاً إلى جذع شجرة. فجأةً تناهت إلى مسامعه ضوضاء المدينة مُضخّمةً، مُردّدةً أصداءها في رأسِه كأنّها كابوس.

لدى بلوغِه أسفلَ حيّ رامبلاس، عند مدخل «باريّو غوتيكو»، تعرّف إلى بعض الوجوه، من المغاربة، مهرّبين صغاراً أو متبطلين يتسكّعون في هذه الأزقة طيلة النهار متحيّنين الفرصَ لمكائد أو مغامرات جديدة. لا رغبة له في التحدّث إليهم، هذا الصباح، لا بل يشعر بأنّه غريبٌ عن لغتهم، عن عاداتهم، عن عالمهم. يُشفق لحاهم. راح يحثّ الخطى لكي لا تُعرَض عليه سلع للبيع أو للمقايضة ببعض الكيف.

شربَ قهوةً من دون سكّر، وبصق على الأرض لاعناً الساعة التي أتت به إلى هذه الأرض. هرّ برّي اجتاز الشارع بسرعة. كم حسده عازل على حريّته.

قذراً، نابت اللحية، بعينين محاطتين بالزرقة، طرق عازل باب كنزة الغارقة في سباتٍ عميق تعويضاً لما فاتها من النوم

طوال ليالي خدمتها. رفضت أن تفتح الباب وطلبت منه أن يعرّج عليها فيما بعد. راح يطرق الباب بقوّة. استيقظ ناظم الذي كان يقضي ليلته عند كنزة، كي يضع حدّاً لهذه الضوضاء. وعندما فتح الباب تلقّى لكمة على وجهه.

- ماذا يفعل هنا، هذا اليهوديّ؟ أو لعلّه خوروطو يحيا عَيْلَةً على بناتِ العائلات؟

كنزة، شبه العارية، طلبت من ناظم أن يتنحّى، فهذه مسألة لا تعنيه. ثمّ مخاطبةً عازل، صاحت غاضبةً بأعلى صوتها:

- ليس يهودياً ولا خوروطو، هذا الرجل له كنية واسم وبلد، وهذا الرجل يعمل، تخيَّل...

- حسناً إذاً، ولكن لِمَ لم تخبريني شيئاً عنه؟ ما هو بلده الأصلي؟

- يُدعى ناظم، وهو تركيّ.

- هذا ما قصدت إليه إنّه خوروطو!

- لا تكلّمني بمثل هذه الألفاظ. إيّاكَ. أنتَ تخيّب أملي يا عازل، لن ينفع معك شيء، أنت تفسد كلّ شيء، تخرّب كلّ شيء.

- حسناً، ولكنّي لا أطيق أن يلمسك.

- من أنتَ أصلاً لكي تطيق أو لا تطيق؟ لا شأن لي بما تظنّ أو لا تظنّ. ثمّ هل شاهدتَ نفسَك؟ هل شاهدتَ ما آلت إليه حالُك؟

- أنا لا أحبّ الأتراك، ولا أحب راحة حلقومهم، ولا أحبّ نظراتهم.

- أنتَ عنصريّ!

- وماذا بعد؟ لي الحقّ بأن لا أحبّ الأتراك، واليونانيين أيضاً. . . لا أحبّ الرجال الذين يلمسونك إجمالاً، ولا أطيق أن تكوني لهم. . .

- ألن تضيف إلى لائحتك العربَ، واليهود، والأفارقة؟

- العرب؟ لم أستلطفهم يوماً. أنا عربيّ لا يحبّ نفسَه. هذا أنا والسلام. في الأقلّ أنا واضح وصادق مع نفسي. هذا ما أقوله، والآن سوف أذهب، لكنّ أحوالك لا تعجبني، من سيئ إلى أسوأ، سوف تصبحين غانية، وتورّثين أمّنا الحسرةَ.

- هيّا إذاً، كلّمني عن أحوال أمّنا! أنا أعرف أمّاً سوف تُفجَع بما آلت إليه أحوال ابنها الحبيب.

- كلّ هذا بسببك أنتِ! كان بوسعنا أن نبقى معاً، ألاّ نفترق، أن نبقى متحدّين كأصابع الكفّ الواحدة. ولكنّك توسّلت الخداعَ لكي تغادري البلد والعائلة، وها أنتِ الآن تسلكينَ دربَ الانحراف! تركي يُضاجع أختي، وتريدين أن أتحمّل كلّ هذا!

صفق عازل الباب وغادر عَدْواً. منتحباً. عرّج على حانة وراح يحتسي كؤوس الويسكي. وعندما تعتعه السكر استقلّ سيّارة أجرة وترجّل منها أمام منزل ميكال.

تقيّأ على سجّادة المدخل. حملت كارمن حقيبته ووضعتها

على الرصيف، طالبةً منه بحزم ألاّ يعود ثانيةً. أسعفته الصدمة في استرداد بعض صفاء ذهنه، ورأى الأمور بوضوح ودقّة. أدرك أنّها النهاية. أدرك أنّها المرّة الأخيرة التي يجتاز فيها تلك العتبة. وعندئذٍ شعر بارتياح. أخيراً أصبح حرّاً، وله إذا شاء أن يتعاطى الكيف وأن يحتسي النبيذ الرديء وأن يتسكّع في الأزقّة مع رفاقه الذين يشاطرونه قنوطَه. سيراً على قدميه، استغرقه الوصول إلى الحيّ الذي يسيطر عليه صديقه عبّاس بعضَ الوقت. وما إن لمحه حتّى صاحَ به منادياً:

- أنا حرّ، أخيراً أصبحت حرّاً، ولم أعد مضطرّاً لمضاجعة رجلٍ لكي أحظى بحياة مرفّهة!

26

مَليكة

كانت مَليكة تخشى الليل. ففي الليل تشتدّ عليها نوبات السُعال، حتّى تشعر أحياناً بأنّها على وشك الاختناق. وتدمع عيناها حين تحاول إخراجَ البلغَم الذي يسدّ قصبات رئتيها. تتداوى بجرعاتٍ من العسل الذي تعشقُ مذاقَه جارحاً سيّالاً عبر حلقها. كان العسَلُ يُخفّفُ عنها قليلاً، ولكنْ ما إنْ تستلقي مجدّداً حتّى تعاودها النوبة حادّةً متسارعة. زوج أختها يشكو مما ينتابها لأنّ سعالها يوقظه. لذا قرّرت أختُ مَليكة أن تصحبها، ذات يوم، إلى مستشفى القرطبيّ الذي لا يبعد أكثر من مائة متر عن المنزل. كان عليهما أن ينتظرا فترة ما قبل الظهر بأكملها لكي يتمكّن الطبيب من معاينتها. ولا سبيل لاجتناب فترة الانتظار الطويل هذه إلاّ برشوة الممرّض المسؤول بخمسين درهماً لا يملكانها. كان الطبيب فتياً، وعلائم التعب بادية على وجهه. المرضى كُثُر والإمكانيات محدودة. هو أيضاً يحلم بالانتقال إلى المدينة حيث فرص الكسبِ أوفر، وربّما العمل في عيادة خاصّة أو في أيّ من المؤسسات الاستشفائية

في أوسلو، على سبيل المثال. فالنروج التي تعاني نقصاً في عدد الأطباء قد استعانت ببعض الأطباء المغاربة ممن لا يخشون الصقيع. أمّا في الوقت الحاضر فهو مضطرّ إلى إتمام خدمته المدنيّة في هذا المستشفى الحكوميّ الذي أنشئ قبل أربعين عاماً بُعيدَ الاستقلال. كلّ شيء فيه متداعٍ، الجدران، الردهات، الموظفون، الأطباء المتمرّنون، القطط، والكلاب الشاردة. وحدها الأشجار تابعت نموّها، وكبرت، وتبدو سالمةً متعافية.

ما إن لمحَ مَليكة حتّى صاحَ متعجّباً:

- ضحية أخرى من ضحايا القريدس!

كان الفقراء وحدهم هم الذين يقصدون هذا المستشفى للمعاينة. وأبناء الفقراء وحدهم هم الذين يعملون في مصنع القريدس. كانت مَليكة خائفة، منتحبة. قال الطبيب إنّه لن يوجعها. سوى أنّ خوفها لم يكن بسبب المعاينة بل بسبب خشيتها من الموت، خشيتها من أن ترحل قبل تحقيق حلمها، أن ترحل قبل تمكّنها من مغادرة هذه البلاد، وأن توضَع في حفرة وأن تُطمَر تحت التراب البارد. كانت خائفة لأنّها استشفّت من نظرة الطبيب خطورةَ مرضها. لاحظت بأمّ العين كم أثّرت فيه حالتُها. فعلى الرغم من عملِه الشاق المتطلّب المزعج، بقي هذا الطبيب إنساناً في قرارة نفسِه. وما أثار فيه غضبةً صادقةً هو عجزه عن معالجة هذه الفتاة الصغيرة. ومع ذلك أجرى لها صورة شعاعيّة، وفحصَها، ثمّ اتصل بطبيب آخر وأجرى معه

حديثاً بعبارات تقنية مبهمة. سمعت عبارة «نيو» تتردّد على لسانه، ثمّ عبارة «بنومونيا»(*)...

قرّر إبقاءها في المستشفى، وأفرد لها سريراً في ردهة تضمّ أسرّة كثيرة لمرضى آخرين. وأعطى أخت مَليكة وصفةً طبيّة، موضحاً أنّه وصف لها عقاقيرَ قويّة، غير أنّها، لأسفه الشديد، غالية الثمن. سوف أدبّر أمري، أجابت. إذ أدركت للتوّ أنّ حالة مَليكة حَرِجةٌ. في الصيدلية تعدّت الفاتورة الألف درهم. فسارعت إلى انتزاع إحدى أساورها الذهبيّة وهُرِعَت إلى دكّان حسن، الصائغ في شارع الصياغين، لتبيعها. إلى جانب الأدوية اشترت بعضَاً من حلوى «النوغا» التي تعرف أن أختها الصغيرة مولعةٌ بها. في المستشفى لمّح الممرّض، ويُدعى برقاش، إلى استعداده لأن يتولّى بنفسِه رعاية مَليكة. فمنحته مائة درهم. وعندئذ أشار عليها خصوصاً ألاّ تترك كيس الأدوية على الطاولة بجنب السرير. هنا كلّ شيء معرّض للسرقة، قال محذّراً. من الأفضل أن تحضري كلّ يوم ما تحتاج إليه من أقراص، وأن تحتفظي بالباقي في المنزل. فأدويتها كناية عن مضادات حيوية مستوردة من فرنسا، وهي باهظة الثمن هنا، والناس في المستشفى يتحيّنون الفرص للحصول عليها بأية وسيلة. لا داعي للقلق، اطمئنّي، سوف أسهر على الصغيرة وأرعاها وإن شاء الله سوف تتعافى وتغادر هذا المكان كالفُلّة، لأنّ المضادات الحيوية قوية جداً، وباهظة الثمن جداً، وكلّما ازداد سعرها، ازدادت

(*) ذات الرئة.

قدرتها على الشفاء، هذا طبيعي، أليس كذلك؟ خُذي أقراص الأسبيرين مثلاً، ثمنها لا يُذكَر، ولذلك فهي لا تعالج شيئاً تقريباً. كما أنني سأحرص على إعطائها حصّة مزدوجة من الحساء، والحساء جيّد، سوف أرعى هذه الصغيرة، كوني مطمئنّة، والطبيب رجل صالح وسوف يُعالجها كما ينبغي.

لم تقوَ مَليكة على كفكفة دموعها المنهمرة كأنّما الخوفُ يتدفّق من عينيها وينهمر سيلاً على وجنتيها. تلفّتت من حولها. الجميع يتألّمون بصمت. وإذا مرّ طبيب بردهتم، هُنيهات، ارتفعت الرؤوس فجأةً ولهجت الأفواه متوسّلةً أن يغيثها.

خفّت حدّة السعال، لكنّ مَليكة لا يغمض لها جفن. تُبقي عينيها مفتوحتين وفي ظنّها أنّ الموت، في الممشى، متربّص بها، ولعلّه دخل الردهةَ بحثاً عن رفيق دربِ الرحيلِ الكبير. سدّت أنفَها. رائحة الموت تنتشر في الأرجاء. بلى، تقول في سرّها، الموت له رائحة، حرّيفةٌ، خبيثة، رائحة هي مزاجٌ من القَيْح والعَفَن، رائحة صيفٍ مكسوة برطوبة الشتاء، رائحة لها لون، ضربٌ من الأصفر الباهت المائل إلى الرمدة، رائحة تثقلُ على الأجساد. تساورها الريبة الآن من أنّ الموتَ اختطفَ المرأة العجوز التي تنام في السرير المجاور لسريرها. هَمَدت أنفاسُها. راحت مَليكة تحدّق بصدرها، لا حرَكة. ماتت. مدّت يدها لتلمس جبين المرأة العجوز. جبين بارد. وفمٌ فاغِر. صاحَت مَليكة بأعلى صوتها. جاء الممرّضون من دونِ عَجَلةٍ ومعهم نقّالة. لقد علّمتهم التجربة أنّ الصيحةَ المفاجئة في ساعات الليل إنّما تعني أنّ أحد المرضى قد قضى نحبه. كان حاملا النقّالة

يحدثان جلبةً ويتبادلان المزاح كأنّهما ينقلان بضاعةً تالِفة. وسارا باتجاه المشرحة. سَرَت رعْدةٌ في بدن مَليكة. لقد نفثَ الموتُ أنفاسَه المثلجة. تتخيّل الآن تلك المرأة في الحجرة الباردة. هناكَ، تقول في سرّها، لن تشعر بالبرد على الأقلّ. وغداً سوف تكون أسرتها هنا، مجتمعةً حولها، تبكيها. كيف ينام المرء عندما يحومُ الموتُ حولَه؟ كانت تشعر بأنّه ما زال هنا. الرائحة تفضح وجوده. فلاذت بأحلامها. فقط لو كنتُ في فرنسا لما كنتُ في مستشفى، لأنني ببساطة لما كنتُ مريضة، ولما اضطررت إلى العمل في مصنع مثلج، ولما ألمّ بي مرض الرئتين هذا، ولما كنتُ أستنشق رائحة الموت المقزّزة التي تمنعني من إغماض جفوني لأنّها قادرة على الاعتقاد بأنني كففتُ عن التنفّس فتحملني معها، فهي كثيراً ما تخطئ، كثيراً ما ترتكب هفواتٍ فظيعة، ولكنّها لن تنال منّي بأية حال، لن تنال منّي، لا هنا ولا هناك ولا في أي مكان آخر. كان حرياً بي أن أرحل، أن أمسك بيد عازل ولا أتركها، وعازل شاب وسيم ولطيف، وما كان ليتخلّى عنّي. آهِ يا عازل، أين أنت الآن؟ لِمَ لا تأتي لتعبر بي إلى الجهة المقابلة من البحر؟ كان حرياً بي أن أركب تلك السيّارة المزدحمة بأطفالٍ نيام، ولكنّي لم أُرِد يوماً أن أكون سبباً في شقاء أهلي، كانوا ليبحثوا عنّي في كلّ مكان، ولَجُنَّ جنون أمّي، لذلك رفضت، مع أن الأمر كان في غاية السهولة، فالرجل يحمل جواز سفر عليه صور ستّة أولاد، ويسافر ليلاً، والأولاد نيام، يلقي خفير الجمرك نظرةً سريعة إلى الداخل، ثمّ يختم الجواز. هذه القصّة سُرِدت على مسامعي أكثر من مرّة.

فالرجل المعنيّ من شمال إيطاليا، اعتاد أن يعهد بالأولاد، بعد تهريبهم عبر الحدود، إلى مغربيّ يستغلّ عملهم في الشوارع، أمّا أنا فقد تعهّدوا لي بأنني سأعمل لدى إحدى الأسر الإيطالية ما يُتيح لي أن أتابع الدراسة. أغوتني الفكرة، أن أتقن اللغة الإيطالية، أن أتعرّف إلى بلاد جديدة، ولكن عجزتُ عن التخلّي عن أهلي، لم أفاتحهم حتّى بالموضوع، فلا داعيَ لإثارة القلق في نفوسهم، وخاصّة أمّي، ولكني نادمة الآن، ليتني أصغيتُ إلى إغواء المغامرة... منذ أيّام أخبرتني أمّي أنّ أخت عزّ العرب سافرت إلى أسبانيا، وحتّى أمّها تعدّ العدّة للانضمام إلى ابنها وابنتها، وكلّ هذا لأنّ رجلاً ثرياً أراد أن يساعدهم، هنيئاً لهم! فقط لو...

أصبحت مَليكة قادرة على النوم، إذ بدأت العقاقير تفعل فعلها. تحلم. شفيَت تماماً من مرضها، وغدت طويلة القامة، جميلة، ترتدي ثوباً طويلاً أزرق، وتَخْطُر على بساطٍ أحمرَ فُرِد للمناسبة. نساء أخريات بمثل أناقتها يعرضنَ ملابسهنّ بجوارها، يتخطيّنها، ثمّ لدى بلوغهنّ طرف البساط الأحمر، يتوارينَ فجأةً كأنّ هوةً سحيقة ابتلعتهنّ فجأة. تقرّر مَليكة أن تبطئ في مشيتها، فلا رغبة لها في التواري هي أيضاً، تتلفّتُ حولها علّها تجد من تمسك بيده. قبل بلوغها نهايةَ المطاف يأتي رجل مسربلٌ بالبياض ويمدّ لها يده، يُمسكُ بيدها ليقودها إلى بوديوم حيث سيّارة فارهة سوداء تنتظرها. عندها فقط تُدرك أنّ الرجلَ هو الطبيب الذي اعتنى بها. تغيّرت سيماء وجهه كلياً، وبدا قرير العين، سعيداً. بَدَنُ مركبٍ ضخمٍ مفتوح. سيّارة الليموزين تكاد

أن تدخله. تنقاد مَليكة راضية لمرافقها. يتبسّم لها الطبيب، ويُكلّمها، ولكن كأنّما في فيلم صامت، فلا تسمع شيئاً مما يقول. تنطلق السيّارة التي استقلّتها الآن، وتدخُلُ، متمهّلةً، جوفَ المركب. سيّارات ليموزين أخرى مركونة هناك، في صفوفٍ متقنة. حركة خفيفة ثمّ السكون المطبق. تُبحرُ السفينة في سكون تام. اختفى الطبيب. وعندها تدرك انّها جالسة بجنب المرأة العجوز الميتة. تصرخ مَليكة، ولكن لا صوتَ يطلع من حلقها. تمزّق رداءها. تتبسّم العجوز فاتحةً فَمَها الأدرَد. بدل العينين لها ثقبان أسودان. كلّما تمادت في تبسّمها، علا صياح مَليكة واشتد. السفينة تبتعد عن ميناء طنجة. يغوص في قلبِ الليل. كفّت العجوز عن التبسّم. وكفّت مليكة عن الصراخ. في كنفِ سكونٍ أبديّ تغادر البلاد. أخيراً ترحل. إلى الأبد.

27

كنزة

كانت كنزة تنظر إلى نفسِها في المرآة، وللمرّة الأولى في حياتها ترى أنّها جميلة. تشعر بسعادة غامرة. ولكي تلهو قليلاً تغطّي شعرَها بشالٍ بشعٍ مقلّدةً المسلمات المحتجبات. لهنّ مطلق الحريّة فيما يفعلنَ، أمّا أنا فحريّتي تكمنُ في أن أحبّ رجلاً تتوافر فيه جميع الخصال التي تستهويني وتُسعِدني. أكثر ما تحبّ في ناظم هما عيناه الملوّنتان، الخضراوان تقريباً، وأصابع يديه الطويلة القويّة، وبشرته الكامدة وابتسامته. استحمّت، وألحّت عليها ذكرياتٌ من طفولتها. تسمع صيحة الفرح التي أطلقتها يومَ أهداها والدها درّاجةً هوائية لكي تذهب بواسطتها إلى المدرسة وتعود منها. كانت الوحيدة من بنات الحيّ التي تملك درّاجة. ثمّ تأمّلت طويلاً جسدها، وتحسّست بطنها براحة يدها، ثمّ رَزَنَت باليدينِ ثديَيها، لتجدَ في آخر الأمر بأنّها امرأة شهيّة.

كان ينبغي لي إذاً أن أهجر المغرب لكي أقع أخيراً في غرام رجل، لكي اختبر هذه الحالة الرائعة التي تجعلني على هذا القدر

من الخفّة والحضور. وكان ينبغي لي أن أتخلّص من كلّ ما يُثقِلُ كاهليّ، وكلّ ما يكبحني وما يُعيدني إلى الرضوخ والصمت لكي أغدو امرأة، عاشقةً في أحضانِ رجل ناضج، لطيف، مختلف عن جميع المغاربة الذين التقيتهم. معه تجرّأت على الفعل، وتوطّدت حريّتي. كنتُ أهجسُ بعذريّتي، ولمّا بلغت العشرين من عمري قرّرت أن أتخلّص من هذه المسألة برمّتها فوهبتُ نفسي لابن عمّي عبد الرحيم الذي كان يردّد قولَه إنّ حبّه لي أشبه بالوَلَه. ذكرى سيئة! لا بل مأساة! كان عليّ أن أعينه على فضّ بكارتي، لشدّة ارتعاده خوفاً! ثمّ حين شاهد الدماء ارتخى عضوه فجأة ضامِراً بين فخذيه. راح يتعرّق ويغمغم، حتّى أنني لم أكن واثقةً من أن العملية تمّت كما ينبغي. المهمّ هو أنني منذ تلك اللحظة بتّ أعتبر نفسي غير عذراء. مرّة ثانية، وقبيل رحيله، وهبتُ نفسي لابن عمّي نور الدين الذي كان عازل يأمل في تزويجي منه. كان قوياً، وربّما فظّاً بعض الشيء. لم أبلغ نشوتي معه، ولكنّه على الأقلّ ظلّ منتصباً طوال الوقت. ما زلتُ أراه، مزهواً بنفسِه، ماسحاً الشراشف التي بقّعها بمنيه، متحدّثاً عن سفرِه كما اعتاد أجدادنا الحديث عن حجّهم إلى مكّة. كان يعتقد أنّ مغادرته البلد سوف تحلّ جميع المشكلات. وطبعاً كنتُ جزءاً من خططه للمستقبل، زواج في طنجة، ثمّ لمّ الشمل في بروكسل، ثمّ الإنجابُ وإلى آخرِه... طبعاً كنتُ أتركُه مستغرقاً في أحلامه، ولكن لا رغبة لي في أن أجعل منه، هو على نحوٍ خاص، شريك حياتي. صحيح أنّه شابٌ حلو المعشر ووسيم، غير أنّي لم أكن مغرمة به. وحين فاتحتُ أمّي

بحقيقة مشاعري نحوه، أجابت قائلةً: وهل تعتقدين أنني كنتُ مغرمة بأبيك؟ الحبّ، ما تسمّونه أنتم الشبان حبّاً، هو مجرّد ترف، فإمّا أن يأتي مع مرور الزمن وإمّا ألاّ يأتي مطلقاً، مع والدك لم يمهلنا الزمن، لأنّه مات قبل أوانه، هيّا يا بنيّتي، لا تفوّتي عليك فرصة الزواج من هذا الفتى، تزوّجيه وبعد ذلك اصنعي به ما شئت، سوف أساعدك، وسوف ترين أنّ المرأة هي صاحبة القرار في كلّ شيء، توهم الرجل بأنّه الآمر الناهي، والحقيقة هي أنّها هي الآمرة الناهية!

عازل لم يعرف في البداية أنني ضاجعتُ نور الدين. إذ لم يكن في نيّتي أن أنشر حكايتي على السطوح، ولكن يوم وفاته لم أستطع إلاّ أن أخبره عن فترة بعد الظهر التي قضيتها مع نور الدين في كوخ آغلا. كنتُ أرى نعشَه وأقول في سرّي إنّني آخر امرأةٍ متّعته. بكيتُ طويلاً. أمّا اليوف فقد غدوتُ امرأةً أخرى، وأقول هذا لأنني خشيتُ لبعض الوقت ألاّ أشتهي رجلاً مجدداً. دمّرني موتُه. فعلى الرغم من يقيني بأنّ مشاعري نحوَه تكاد أن تقتصر على انجذابي الجسديّ إليه، فإنّ الموتَ شوّش انفعالاتي وأحاسيسي وأقنعني بأنني مغرمة بنور الدين. كان الأمر أقوى منّي. لشهورٍ طويلة عشتُ بصحبة طيفه، واستبدّت بي مشاعر غريبة عجيبة، إذ كنتُ أحبّ رجلاً لم يعد موجوداً، ميتاً، رجلاً غائباً، مدفوناً تحت التراب. وذات يوم قصدت الكوخَ الذي شهدَ غرامياتنا. فتحت بابَه واستلقيت على السرير الذي لم تُبدّل شراشفه. وشممتها، كانت الرائحة المنبعثة منها كريهةً جداً. فالموتُ مرّ بها، وخلّفَ أثراً من رماده فيها. عندئذ غادرت

الكوخ راكضة. لحق بي كلبٌ شارد. حتّى التقيت أحد نواطير الغابة وأنقذني، ثمّ عرض عليّ مشكوراً أن أمتطي فرسَه لكي أصعد الجرفَ مجدداً. صادفتُ في طريقي مجموعات من الأفارقة يستظلّون الأشجار الوارفة. ينتظرون. وعلى الرغم منّي ألحّت عليّ فكرة وحيدة وهي أنّ بعض هؤلاء سيغرق عمّا قريب في لجّة الليل الحالك. تخيّلتُ طفولتهم في قرية مالية أو سنغالية، حياة الفقر التي عاشوها والتي ليست بالضرورة حياة تعِسة، تخيّلتُ أمهاتهم، جدّاتهم، عمّاتهم منهمكات في إعداد الطعام، وخمّنتُ الأحلامَ المدوّمة في رؤوسهم، ولكني شعرتُ بأنّهم لا يخافون الموت. فعلى الرغم من وضعهم البائس وعزلتهم، كانوا يتبادلون الدعابات ويتضاحكون. . . لدى عودتي إلى المنزل جعلتُ أبكي مجدداً. يجب أن أنسى هذه الحكاية، أن أكفّ عن التفكير بنور الدين، أن أكفّ عن تسلّق جبل أحلامه الذي ابتلعته لجّة البحر الأبيض المتوسّط. لقد أراحتني رؤية أولئك الأفارقة وهم يتبسّمون ويضحكون.

كان ينبغي. . . كان ينبغي لي أن أهجرَ بلدي وعائلتي، وأن أصبح، في البداية، زوجة رجل فاتن، وأن تشاء الصُدَف بعد ذلك أن ألتقي ناظم، المهاجر أو المنفيّ، لستُ أدري إلى اليوم، أن ألتقي رجلاً حقيقياً لا لأبرأ من حكايتي المُحزنة وحسب، بل لأعرف الحبّ أيضاً، الحبّ الكبير، الذي يُثير فيّ الرعشاتِ، الذي يُرنّحني، الذي يجعلني شفّافةً، وهشّةً لا أحجمُ عن شيء. لم أعرف من قبل هذه الحالة التي يرتقي فيها الجسدُ، إذا كان

مُشتهىً ومحبوباً، قمماً ويُطلّ منها على المدينة ناظراً بشهيّة من يرغب في خوض التجارب كلّها، وابتلاع كلّ شيء، وتقبيل كلّ شيء، واحتضان كلّ شيء.

في البداية كان ناظم يبدي من الاهتمام بي والحرص عليّ ما حدا بي إلى الاعتقاد بأنّ تعامله هذا من قبيل التظاهر ليس إلاّ. في السرير يداعبني لفترات طويلة، يُعدّني، كما يقول، لبلوغ السماء، على ظهري، بين يديه، بين ذراعيه، يرقص، يضمّني إليه بقوّة، ثمّ يدخلُ بي من دون أن أعلم، يدخل وئيداً وئيداً حتّى يفقدني صوابي. لم أختبر أمراً مماثلاً من قبل. يُكلّمني بلغته ويُضحكني. فأجيب بعربيّة طنجة المحكية وكم كانت تستهويه مخارج ألفاظ هذه اللغة الحادّة. كنتُ ملكه. وكنت سعيدة. أطلعت زوجي على حقيقة علاقتي معه. وأبدى ميكال سروره بذلك. وقال لي أنتِ جميلة جداً، وتستحقين أن يُحبّك رجلٌ بهذه الصفات! آه لو تعلمين كم أحسدك!

خرجت كنزة من الحمّام وارتدت مئزراً قبل أن تعدو مسرعةً لالتقاط سمّاعة الهاتف. كان الاتصال من مخفر الشرطة حيث طُلبَ إليها أن تأتي لتصحبَ أخاها. هناك، وجدت عازل في حالٍ من السكر الشديد حتّى أنّه لم يتعرّف إليها إلاّ بعد جهد. أخبرها الشرطي أنّهم عثروا بحوزته على قصاصة ورق كتب عليها: «في حال الضرورة الاتصال بأختي كنزة على الرقم 93353654». اصطحبته إلى بيتها، ووضعته في السرير ريثما يصحو من سكره. وحرصت على عدم الاتصال بميكال.

عندما استيقظ عازل أخيراً، استحمّ وطلب فنجان قهوة وأصرّ على كنزة بأن تستمع إليه. في البداية رفضت أن تصغي إليه متذرّعةً بعملِها. فأرغمها على الاتصال بمقرّ عملها لكي تستأذنهم بالتغيّب ساعة إضافية. كان عازل يشعر بحاجةٍ ماسّة إلى الكلام.

28

عازل

يا أختي، يا أختي البكر، يا صديقتي، يجب أن تصغي إليّ، إنّي في حاجة إليك، لا يجوز أن تستمرّ الحالُ على ما هي عليه، أشعر بأنني أهوي إلى قاعِ جحيمٍ يفوق تصوّرك. أخْفِقُ في كلّ ما أفعل. الأسبوع المنصرم، ذهبتُ للقاء رفيقتي سهام التي تعمل في ماربيّا. هناك ودّ كبير بيننا، وأنا أحبّ رفقتَها. . . أعذريني يا أختي، يجب أن أبوح لك بأمور لا تقال عادةً بين أخ وأخته، فعلاقتنا أنا وسهام هي أولاً علاقة جنسيّة، وكنتُ أحتاج إلى علاقةٍ من هذا القبيل لكي لا أفقد رجولتي، وهي أيضاً كانت تنال مبتغاها، أشبه بالتواطؤ بيننا، يُسدي أحدنا الآخر خدمةً متبادلة، وينال مبتغاه من المتعة. ولكن في الأسبوع المنصرم، **والو!** أتعلمين ماذا تعني **والو**؟ لا شيء. عجزتُ عن التصرّف كرجل، أعذريني، ولكن يجب أن أتكلّم، يجب أن أخرج ما يعتمل في نفسي، العار، **الحشومة!** هي تصرّفت بلطف، لم تعلّق على الأمر، واكتفت بالقول إنّ الأمرَ بسيط، لعلّه التعب أو الضغوط النفسيّة أو تغيير المناخ. أي تعب، وأي ضغوط نفسيّة؟

ولِمَ لا يكون السبب سعر صرف الدولار أو غزوة الجراد؟ لقد قُضيَ أمري، بتّ عاجزاً عن ممارسة رجولتي، ولا أدري ماذا أفعل، وأمسِ، قصدتُ المغربيّة الشابة التي تمارس الدعارة منذ أن هجرها زوجها الكويتي المزعوم، ما عدتُ أذكر اسمها، ولكن ما أعلمه جيّداً هو أنّها كانت تتلوّى شبقاً حين أضاجعها، وتصرخ بأعلى صوتها حين تبلغ نشوتَها، ما جرى، هو أنني التقيتها مساء أمس، بعد أن أفرطت في الشراب قليلاً لكي أستعيد ثقتي بنفسي، لشدّة خوفي من فَقدِ رجولتي إلى الأبد، وعندما نزعت عنّي ملابسي، أطلقت ضحكات مدويّة وقالت: ولكن ماذا حلّ بصاحبِك؟ فسألت: أي صاحب هذا؟ صاحب الرجل، ذاك الذي يصحو كلّما لَمَحَ امرأة، فيُكرمها بأن يلقي عليها التحية منتصباً كالعصا لكي يُفقدها صوابَها... والو! والو! غَدوتُ والو، أي لا شيء، غَيْبَة، ذكرى رجل، ظلٌّ... وأنا واثق من أنّ تلك العجوز الداعرة كارمن هي السبب، كارمن التي تتحكّم بميكال وشؤون حياته، التي لم تستسغ وجودي أصلاً، ولطالما نظرت إليّ كأنني دخيل، متطفّل، لصّ، ولا بدّ أنّها أطلقت عليّ لعنات ساحراتها، فَحصَرَتْني. مثل هذه الأمور لا تقتصر على بلادنا، حتّى الأوروبيون يلجأون إليها، سوى أننا لا نرتاب في أنّهم يفعلون، لأننا نعتقد أنّهم متمدّنون، وعقلانيون، وغير ذلك، ولكن في قرارة أنفسهم هم مثلنا، وردود فعلهم مماثلة لردود فعلنا لاسيّما في قضايا الجنس والمال!

أعلم بالضبط متى بدأ كلّ هذا. ذات مساء، في ليلةٍ مُرعبةٍ حقّاً، جاء لزيارة ميكال أصدقاؤه البرازيليون، وهم زمرةٌ من

المعتوهين المهجوسين بالجنس، وطلبَ إليّ أن أضاجع امرأةً رائعة الجمال كانت في الحقيقة شاباً، كان الأمر مُرعباً، مقزّزاً، جلسوا جميعاً يُراقبون ما نفعل، وكنّا في وسط الصالون، في البداية بدا لي الأمر مسليّاً، كنتُ ألهو، على أحسن ما يُرام، ثمّ طلب إليّ الشاب المرأة باللغة البرازيليّة أن أبول عليه، لم أفهم للوهلة الأولى، فأمسكَ بعضوِه وحاكى حركة التبوّل، فقال لي ميكال إفعل له ما يريد، بوّل عليه، أفرغ مثانتك عليه، الأمر يُثيره، فما شأنك أنتَ، لا أحد يطلب إليك أن تشربَه، فقط رُشَّه ببولِك! وجدتُ الأمر مقزّزاً، ولم تكن بي حاجة إلى التبوّل، ولم يستجب عضوي لطلبهم. فَصُحتُ بهم وغادرتُ الصالون. برازيليون معتوهون حقّاً؛ لِمَ دعاهم ميكال؟ أعذريني، ولكن الكلامَ يُريحني، هذا ما آلت إليه حالي، سوية الأرض، بتّ لا أساوي شيئاً، فقدت كلّ احترام لذات نفسي. على الأثر قصدتُ صاحبي المغربي، تعرفين جيّداً مَن أعني، الشاطر، المُتنفِّذ العظيم، لم أجرؤ على التحدّث إليه بشأن ما جرى، ولكن لاحظ أنني تعيس فأعطاني شيئاً أشربه وأدخّنه، لا أذكر بالضبط ما هي المادة التي تعاطيتها، ولكن عند العاشرة مساءً عثرت عليّ الشرطة مستلقياً على الرصيف، حسبوا في البداية أنني أصبتُ بعارض صحّي، ولم يكن حسبانهم خاطئاً على نحوٍ ما، إنّه عارض قديم، قديمٌ جداً، عارضٌ مستمرّ منذ زمن طويل، عارضٌ هائل، عارضٌ موجِع، كأنّه إبرٌ تنغرز في قلبي، في كبدي، وارتجاعات حموضة وغثيان ورغبة في التقيؤ. حاولت الشرطة أن تستجوبني ولم تقدر لأنني كنت غارقاً في سباتٍ

عميق، ثمّ استقدموا طبيباً وحقنني بعقار فصحوتُ قليلاً ولم أكن على خير ما يُرام، كنتُ في أسوأ حال، أشعر برغبة في الموت، في أن أرمي بنفسي تحت عجلات حافلة... وعندها اتصلوا بك. ولحسن الحظّ وجدوك يا أختي البكر!

هل أستطيع المبيت عندك؟

لبثت كنزة مذهولةً لما سمعته؛ إذ أنّها لم تتخيّل يوماً أن أخاها الأصغر سيسرد على مسمعها قصصاً مماثلة. ولم تدرِ ما تقول أو تفعل، غير أنّها ترى جيّداً أن حال عازل لا تُطمئن، لا تُطمئن على الإطلاق. عقب فترة صمت، نهضت وأمسكت بحقيبة يدها وأفهمته أنّها لن تستقبله لمدّةٍ طويلة. فالأحرى التفكير جدياً في عودته المحتملة إلى البلد. صاح عازل وجعل ينتحب مثل صبيّ صغير. ولكن كنزة مُرغمةٌ على الذهاب إلى عملِها. فطلبت إليه ألاّ يردّ على الهاتف وأوصته حازمةً بأن يأخذ قسطاً من النوم.

من مقرّ عملها اتصلت بميكال. كان طريح الفراش لإصابته بالتهاب الشعب الهوائية. هو من بادر إلى سؤالها مباشرة عن عازل، لكنّها لم تجرؤ على إزعاجه لعلمها بأنّه مريض. حالُه غير مُرْضية، أليس كذلك؟ سأل قائلاً. كنتُ أرى هذا اليوم آتياً للأسف الشديد... وأعترف لكِ بأنني أحمّل نفسي بعضاً من مسؤولية ما جرى له، اعتقدت مخطئاً حين أتيت به إلى هنا أنّه على قدرٍ من النضج، وأنّه يدرك جيّداً عواقب ما يُقدم عليه... لكنّ توقه إلى مغادرة المغرب كان من القوة والإلحاح بحيث

أعمى بصيرته وأفسد كلّ ما كان يسعى وراءه. لا أريد أن أراه بعد اليوم، لقد تمادى كثيراً. لم أخبرك من قبل، ولكن عازل سرق أشياء ثمينة من ممتلكاتي ولا بدّ أنّه باعها فيما بعد بأبخس الأثمان، لقد تصرّف كزقاقيّ من أسوأ طينة، كان يعلم أنّ المالَ ليس مشكلة في تعاملنا كصديقين، لكنّه أراد المزيد، أراد أن يذلّني. وفي إحدى الأمسيات أساء لبعض أصدقائي، شتمهم، وحطّم قنينة نبيذ محاولاً أن يفتعل شجاراً معهم. لا، يا كنزة، يا كنزتي، يا صديقتي، يا زوجتي الحبيبة، أخوك حالة ميؤوس منها، وأنت محقّة فعلاً عندما تقولين إنّه ينبغي أن يعود إلى البلد، فهناك قد يستردّ صفاتَه ويلزم حدودَه. هنا ينال كلّ ما يبتغيه بيسرٍ ما بعده يُسر. وهو يجهل طبعاً كم عملت بكدّ وكم عانيتُ حتّى بلغتُ ما أنا فيه اليوم، ولكن المشكلة أنّ مَن يُحبّ لا يُتقن استخدامَ عقله، بل ينصاع إلى مشاعره، إلى أحاسيسه.
كنت مغرماً بعازل، وهو لم يُغرَم بي في يوم من الأيام، وكان يعتقد أنني غافلٌ عن حقيقة تصنّعه وتظاهره بحبّه لي. أنا عَظْمَةٌ ناشفة، كما تعلمين، ولا أخدَعُ بسهولة! ولكن، حسناً، دعينا من سيرته الآن. واخبريني متى ستأتين لتغنّجي زوجك؟ وللمناسبة، لم أطلعك على المستجدّات بعدُ، ولكن اعلمي أنّ ملفّك قد أنجز، وبفضل بعض الوساطات النافذة، أصبحتِ أسبانية، أصبحت مواطنة أوروبية، تلقّيتُ إشعار المحافظ بالموافقة يومَ أمسِ، ولم يبق إلاّ توقيعك على بعض الأوراق وسحب الملفّ الذي يخوّلك الحصول على جواز السفر النبيذي المدوّن عليه بحروف مذهّبة: «الاتحاد الأوروبي»! وبعد ذلك

يمكننا إنجاز معاملات الطلاق حين تشائين، فأنا أعبدك، يا جميلتي، أنتِ امرأة رائعة!

قبل عودتها إلى مسكنها، عرّجت كنزة على منزل ميكال. عند الباب أجابتها كارمن أنّه غارق في سبات عميق. فأطرقت وغادرت. عندها فقط تذكّرت أنّها وعدت بأداء وصلة رقص في المطعم هذا المساء. فهُرِعَت إلى المطعم مباشرة ووصلت في موعدها. تحت أبصار المتفرّجين استمتعت بإطلاقها العنان لجسدها في مجازٍ رائعٍ من الشهوةِ والحلم. أدّت عدداً من الرقصات في تلك الليلة وجنت كثيراً من المال.

29

ناظم

كان ناظم واقفاً أمام العمارة التي تسكن فيها كنزة، قلقاً، عصبيّ المزاج. فناظم من طينة البشرِ الذين دائماً يتوقّعون الأسوأ. هذه خصلة من خصالِ فطرته وربّما كانت السبب في الشيبِ الذي ألهبَ رأسه باكراً. قرّر أن يسيطرَ، هذا المساء، على شعورِه الدائم بالقلق فما من سببٍ يدعوه إلى مثلِ هذا الحَصْرِ والاضطراب. سوف تحضر كنزة بين لحظةٍ وأخرى، ويعانقها رافعاً جسدَها عن الأرض، ويرحل بصحبتها بعيداً. كم يودّ أن يكون طليقاً، أن يستحصل على أوراق ثبوتيّة قانونية، وأن يجني بعض المال. فبهذه الطريقة سيُتاح له أن يصحبَ كنزة إلى مسقط رأسه، الأناضول، لكي يُريها بهاءُ جبالها البرّي وكثافة أشجارها. فجأةً الحّت عليه ذكرى أهلِه الذين لم يرَ أحداً منهم منذ ما يزيد على السنتين، الذين يفتقدهم ومع ذلك لا يأتي أبداً على ذكرهم، كأنّما بذلك يهتدي إلى وسيلةٍ سحريّة لإقصائهم عن تفكيره، وإبقائهم في حيّز انتظار، مقتنعاً في قرارة نفسه بأنّه سيلقاهم ذات يوم، ذات يومٍ باذخٍ تكون فيه القلوب

مُشرقةً والعيون مغرورقة بدموعِ السعادة، ذات يوم مختلفٍ حقاً عن الأيام الأخرى، يوم يعودُ فيهِ مجدداً إلى طبيعتِه، إلى ما كان عليه، يومٍ يمّحي فيه منفاه من ذاكرته مرّةً وإلى الأبد.

لمّا بانت كنزة عند ناصية الشارع مُقبِلةً، هُرع لملاقاتها وطوّقها بذراعيه. قالَ لها كم إن سعادته غامرة لرؤياها، وكم يكون بائساً في غيابها، مُقبّلاً يديها، تالياً مرّة أخرى على مسمعها إحدى القصائد التركية. ولكن كنزة بدت مرتبكة، فعازل مقيم عندها ولا يسعها أن تدعوه إلى الصعود معها إلى مسكنها. هيّا، لنقصد فندقاً! اقترح ناظم قائلاً. بدت كنزة متردّدة، ولِمَ لا نذهبُ إلى بيتك أنت؟ فأنا لا أعلم حتّى أين تسكن؟ الفندق يرتاده العشّاقُ السرّيون أو البغايا، أمّا في سباديل فكان الأمر مختلفاً، لقد كنّا مُسافِرَين. أصرّ ناظم على موقفه، الحقيقة أنّ بيتي متواضع جداً وأنتِ تستحقّين ما هو أفضل من جُحرِ جرذ. طلبت إليه أن ينتظرها قليلاً ريثما تحضر من شقّتها بعض الحوائج لأجلِ الغد.

راح ناظم يذرع الشارعَ جيئةً وذهاباً. بدا نافد الصبر. لعلّ عازل منعها من النزول مجدداً لملاقاته، أو لعلّها بدّلت رأيها. كانت الشقة منارة. وبمضيّ عشرين دقيقة متطاولة كأنّها الدهر، عادت كنزة. كان ناظم مستثاراً لمجرّد أنّهما سيقضيان ليلتهما مرّةً ثانية في غرفة فندق. وفي طريقهما راح يُغنّي بالتركية والعربيّة:

أنتِ ثمالتي

ومن ثمالتي لم أصحُ

لا يسعني أن أصحو

لا أريد أن أصحو.

كانت تضحك وتودّ لو يضاجعها على الفور، ثمّ تبدو متردّدةً، مثل هذا الأمر غير جائز، وغير مقبول، وخاصّة إذا صدر عن امرأة، فضلاً عن كونها عربيّة. ليس من العسير عليه أن يتفهّم موقفها وإن لاحظَت أنّه في سلوكه لا يقلّ عن الرجال المغاربة غيرةً ونزوعاً إلى التملّك والاستحواذ. كانا يسيران جنباً بجنب، ويداً بيد. مالَت عليه وأسرّت في أذنه هامسةً: «أشتهيك الآن.» فتوقّف ومتبسّماً جذبها إليه سانداً ظهرها إلى الجدار. وراح يقبّلها بنهم. أناسٌ يمرّون بهم متظاهرين بأنّهم لا يرون شيئاً. وعندما بلغا الفندق، سدّد إيجار الغرفة سلفاً وطلب قنينة ماء. فقد أحضَرَ معه، في حقيبته، قنينة عَرَق.

كانت الحجرة ضيّقة، عاديّة، ليست مجهّزة بأي من وسائل الراحة. رائحة عفونة، وموكيت بالية، وضوء خافت، لكنّ شهوتهما كانت متأجّجةً عمياء. طلب ناظم إلى كنزة أن يتولّى هو زمام الأمور. فنزع ربطة عنقه السوداء وعصبَ بها عينيها ثمّ راح يصف لها، على طريقته، ما يحيط بهما: الحجرة ضيّقة لكنّها فاتنة، الجدران مكسوةٌ بحرير سلمونيّ اللون، وفي ركنٍ كنبة من الجلد لِصقَ خزانة عتيقة، بقرب النافذة علّقت على الجدار نسخة جميلة من لوحة استشراقية، أمّا غطاء السرير فمنسوج من مخمل نادر. سجادة فارسيّة تغطّي الأرضيّة. والآن سأنزع عنك ملابسك كما تُنزع بتلات وردة جميلة، الواحدة تلو

الأخرى، لذلك أرجو ألاّ تحرّكي ساكناً، أنزع عنكِ أولاً سترتك، ثمّ صِدارَك، وتنّورتك، ونعلَيكِ وجوربيك، ثمّ دعيني أنزع حمّالة صدرك، ولكن مهلاً أنت لا ترتدينَ كيلوتاً ولا حتّى «سترينغ»! جنون، هذا يُثير جنوني! أنتِ رائعة، لقد حَزرتِ ما أشتهي، كم أنت جميلة، حبّنا أقوى من كلّ شيء، أنتِ جوهرة ولا أدري ماذا أفعل لكي أكون أهلاً لك، لكي أرتقي إلى مصافِك، إنّي محظوظ حقّاً! كم أودّ أن أصرخَ بحبّي لكِ!

كانت تمدّ يديها متلمّسةً مكانه، فيبتعد عامداً، ويضحك، وتصرخ، كانا سعيدَيْن، وقعا فوق السرير ومارسا الحبّ طويلاً، وبقيت عينا كنزة معصوبتين.

كانت الأنوار مطفأةً، والستائر مسدلةً، وكانا ينتظران بصمتٍ طلوعَ الصباح. ثمّ فجأةً انبلج الفجر: أترينَ يا حلوتي، إنّها اللحظة التي تهبط فيها الجيادُ المطهّمة من السماء، تكتسي ألوانَ الخريف وتعدو خَبَباً حول باقةٍ من غيوم. أترين يا حلوتي هذه الناقة المحمّلة صندوقاً من أثواب الحرير والساتان، المقبلة من أفقٍ بعيدٍ بحثاً عن عاشقين اتّحد جسداهما اليوم؛ ذَهَبُ الفجرِ انتثر بدداً على ذُرى الأشجار؛ وأنتِ، أنتِ جميلة كملمسِ هذه الضياء، أنتِ هنا وأنا أُنشِدُ لكي لا تهجريني أبداً، أواهِ يا كنزة، استحلفكِ بهذه الصبيحة البهيّة، بهذا الحلم الذي يترك علاماته في السماء، هلاّ أصبحتِ امرأتي، زوجتي الحلال؟

نزعت كنزة العصابة عن عينيها، ورفعت رأسها قليلاً وسألت:

- هل أنت جاد في ما تقول؟

- إنّي أحبّك. الحقيقة أنّ من عادة الرجال في بلادنا أن يجدوا مشقّة بالغة في الاعتراف بحبّهم لامرأة، فهذه في عرفنا أمور لا تُقال صراحةً، إذ يكفي الإلماحُ أو الإشارة، ولكنّي الآن بعيدٌ عن الأناضول، مُقيم هنا في أسبانيا، وقد اختلفت أحوالنا، ولم نعد مطوّقين بمحرّماتنا، وبتقاليدنا، ويقيني أنّ مجرّد هجرتنا من بلدينا قد أتاحت لنا أن نكون صادقين مع أنفسنا، أن نكون أنفسنا، نتحابّ دون أن نخشى نظرات الآخرين، دون أن نخشى القيل والقال من قبل الجيران والمنافقين. أسبانيا تحرّرنا، ولذلك، سوف نتزوّج، أنا التركي وأنتِ المغربيّة، وسوف ننسى المكان الذي قدمنا منه.

- مهلاً، مهلاً، لا تتسرّع. فلا أحد ينسى المكان الذي قَدِمَ منه. جذورنا تطاردنا أينما حللنا، وليس من اليسير أن يتخلّص المرء من جذوره. غالباً ما يظنّ واحدنا أنّ عقليّته تغيّرت، غير أنّ العقليّة لا تتغيّر بسهولة، بل تصمد، وتقاوم، وصدّقني أنا أدرك تماماً ما أقول، فالمرأة العربية مضطرّة هنا إلى تغيير سلوكها. وإن لم تفعل سُحِقَت، وغُلِبَت على أمرها، ولم تحظ إلاّ بالازدراء. هذه مسألة معقّدة وشائكة، أمّا بشأننا نحن فأنا أحتاج إلى التروي والتفكير ملياً في الأمر، وعليّ قبل ذلك أن أسوّي عدداً من الأمور العالقة. امنحني بعض الوقت. فكما تعلم أنا امرأة متزوجة.

افترقا على عتبة الفندق. شعرت كنزة عندها بكثير من التردّد. أمنيتي أن أكون سعيدة، راحت تقول في سرّها، أن

أنسى الماضي، أمنيتي أن أحيا، أن أنجز أموراً كثيرة. وينبغي لي الآن أن أتخذ قراري. ومع ذلك كانت عاجزة عن حسم أمرِها حيال عرضٍ ناظم. فهي تكاد لا تعرف شيئاً عن هذا الرجل. وحين تسأله عن حياته السابقة في تركيا، تأتي أجوبته غامضة غير محدّدة. علّمتها التجربة أن تكون حذرة، محتاطة. غير أنّها موقنة من أمر وحيد على الأقلّ، وهو أنّها تستمتع معه في السرير، ففي كلّ مرّة يكتشف جسدها لذّةً مختلفةً عن سابقتها. وطبعاً هناك مشاعرها حياله، لا بل لعلّها تحبّه، ومع ذلك لديها شكوكها. فما الذي أتى بهذا الرجل المتعلّم إلى برشلونة، ولِمَ هجر بلده؟ كان يُجيبُ أنّه غادر لأسباب سياسيّة، غير أنّ الإجابة لا تقنعها. كانت تسيرُ وأفكارها تستعيد وقائع هذه الليلة، إحدى أجمل ليالي حياتها. ألم تقل لها، ذات يوم، امرأة فرنسيّة مقيمة في طنجة هجرها زوجها المغربيّ لاشتباهه بأنّها تخونه، إنّ أجمل ليالي الحبّ هي دائماً تلك التي يقضيها العاشقان سرّاً؟ الحبّ يكون أقوى إذا تحرّر من أسر العادة. فلِمَ الزواج إذاً؟ كي لا يلبث المرء وحيداً؟

شعرت بأنّها تحتاج إلى مناقشة الأمر مع ميكال، أقرب أصدقائها.

30

ميكال

كان ميكال يرتدي برنساً أبيض من الصوف، جالساً إلى طاولة مكتبه منصرفاً إلى تحرير رسائل وتوقيع شيكات وتصنيف أوراقه وملفّاته. اقتربت منه كنزة وقبّلته. كانت تجد صعوبةً بالغة في تصوّره محاطاً بعواهر البرازيل في حفل مجون. ولم يسبق لها أن تجرّأت على سؤالِه بشأن حياته الحميمة الخاصّة.

- جئتِ في الوقت المناسب! لقد عثرت للتوّ على دفترٍ اعتاد والدي أن يدوّن عليه ما يُشبه اليوميات. اكتشفتُ فيه أموراً مذهلة. يجب أن أطلعك عليها، لا بل الأحرى أن أقرأ لك بعض ما ورد فيها حول المغرب:

«24 حزيران 1951: أنا اليوم في الرباط، في إحدى غرف فندق «باليما». قنصليّة بلادنا هي التي دبّرت إقامتنا في هذا الفندق ريثما ينتهي التحقيق.

نحن عشرة أشخاص من التابعية الأسبانية كنّا استقلّينا زورقاً من ميناء طريفة ليلة 22 إلى 23 حزيران. خوسّيه عامل المطبعة

الذي تجرّأ على الدعوة إلى تأسيس نقابة، وشقيقه بابلو الصحافيّ المُراقَب من قبل الشرطة، وخوان المحامي الممنوع من مزاولة المحاماة، وبالتاثار الشاعر الذي لا يجد ناشراً لقصائده، ورامون صاحب المكتبة المُحارَب من قبل الناشرين الفرانكويين وصحفهم، وإغناسيو الطالب في كليّة الطب المتخاصم مع أهلِه، وبيدرو سائق سيّارة الإسعاف اليهودي المؤمن الذي تعرّض للاضطهاد مراراً، وغارثيا الساقي في إحدى الحانات، وأندرِه وهو كاتب فرنسيّ مقيم في أسبانيا ويزعم أنّه أسباني. نحن جميعنا شيوعيون، مناضلون ضدّ النظام الفرانكوي، وخبرنا فترات من الاعتقال والسجن. لا أدري كيف تقرّر الأمر، ولكن خوسّيه اقترح علينا ذات يوم أن نغادر أسبانيا لأجل الإقامة والعمل في المغرب. فالمناطق الشمالية وتلك الواقعة في أطراف الجنوب خاضعة للاحتلال الأسباني، أمّا الباقي فتحتلّه فرنسا. كنّا نخضع لمراقبة مشدّدة، وللمداهمات المستمرّة. نحيا في حالٍ من الخوف الدائم من أن يجري اعتقالنا وتلفيق التهم لنا. فالشرطة خبيرة في تدبير مثل هذه الأمور؛ إذ يصل واحدنا إلى مخفر الشرطة ليجد ملفّه جاهزاً وحافلاً بالوقائع والجنح التي لم يرتكبها. لم يكن بحوزتنا جوازات سفر أو تراخيص لمغادرة الأراضي الأسبانية، ونعقد اجتماعاتنا في أماكن سرّية ولكن سئمنا التخفّي والاختباء. غارثيا كان بحاراً قبل تحوّله إلى العمل كساقٍ في حانة، وهو الذي تدبّر لنا الزورق. لم يكن أحدٌ من الناس قد أقدم من قبل على ما انتوينا الإقدام عليه: أي الانتقال بصفةٍ غير شرعيّة من أسبانيا إلى المغرب. طبعاً كنّا نستطيع أن نختار

اللجوء إلى فرنسا كما فعل كثيرون من رفاقنا، ولكن نحن اخترنا هذا البلد حيث الشمس ساطعة طوال أيام السنة. المغرب يعني إفريقيا، يعني المغامرة. وهكذا انطلقنا ليلَ 22، تحت جنح الظلام. وتولّينا التجذيف مداورةً طوال الليل. وضيّعنا مسارنا في عُرض البحر. لقد نسيَ غارثيا كيف يحدّد مسارات الملاحة فإذا بنا قبالة شاطئ سلا، وهي بلدة جميلة على مقربة من الرباط. طبعاً اعتقلتنا الشرطة الفرنسيّة فادّعينا أننا شلّة من الأصدقاء في رحلة صيد وقد ضللنا مسارنا في عُرض البحر. وصدّقتنا الشرطة. وكذلك القنصل الأسباني. ولم يُخيّل لأحد أنّنا أوّل دفعة من المهاجرين غير الشرعيين في التاريخ الأسباني المغربي.

قبل أن يكشف القنصل حقيقة أمرنا، غادرنا الفندق وافترقنا سالكين وجهات مختلفة من البلاد، وخاصّة نحو مناطق الشمال. وفي اليوم التالي قرأتُ في صحيفتي «لو بوتي ماروكان» و«أسبانيا» وهي صحيفة يومية تصدر في طنجة، الخبر الآتي نصّه: «عشرة مهاجرين أسبان كادوا أن يقضوا غرقاً قبالة شاطئ سلا. وبعد ان جرى إنقاذهم وتقديم الإسعافات اللازمة لهم تواروا عن الأنظار؛ وتقوم الشرطة حالياً، بمساعدة عوائلهم، بالبحث عنهم.»

26 حزيران 1951: ركبتُ القطار متوجهاً إلى طنجة. وفي عرباوة، كان عناصر الحرس المدني الأسباني يدقّقون بشكل خاصّ في هويّات المسافرين المغاربة. تعمّدتُ أن أتحدّث إلى خوان بالاسبانية وبصوت مسموع. ولدى اقتراب رجال الشرطة منّا، اكتفوا بإلقاء التحية علينا حتّى أنّ أحدهم طلب أن نعطيه

سيكارة فأعطاه خوان علبةً بأكملها. ولدى وصولنا إلى طنجةٍ، بمضيّ عشر ساعات، فُتنّا بجمال هذه المدينة المطوّقة بالبحر. الجميع فيها يتكلّمون لغتنا باعتبار أن البيزيتا هي عملة التداول الرئيسيّة فيها. مدينة مدوّلة، تعجّ بالناس. كانت طنجة بالنسبة لنا مدينة الغربة والحريّة. شوارعها تعجّ بالسيارات الأميركيّة الفاخرة الفارهة؛ من بينها أذكر سيّارة كاديلاك مطلية بلون زهريّ، ديكابوتابل(*)، يقودها رجلٌ بالغ النحولة في ملابس فاخرة وبجنبه امرأة أوروبية فاتنة تدخّنُ سيكارة كأنّها تؤدّي مشهداً في شريط إعلاني. بلغني فيما بعد أنّ هذا الشاب هو الابن الوحيد لأسرة يهوديّة واسعة الثراء من طنجة. وأنّه يُدعى مومي.

في الأسبوع نفسه وجد خوان عملاً في مكتب محاماة محترم يعمل فيه أسبان وإنكليز وفرنسيون. وفي الوقت نفسه كان فندق المنزه يحتاج إلى محاسب، فعملتُ فيه، وهناك التقيتُ شخصيّاتٍ من الوسط الأدبي والسياسي، وأذكر خاصّة أنني التقيتُ كاتباً أميركياً لا يصحو من سُكرِه الدائم؛ كان يردّد بأنّ المكان يعجّ بالجواسيس ولكنّي لم ألتقِ أحداً منهم، باستثناء أحد السقاة الذي كان واضحاً أنّه يعمل لحساب الشرطة، ولكن أي شرطة، فلكلّ أمّةٍ من الأمم شرطتها الخاصّة هنا، ولا بدّ أنّه يزوّد أياً منها بالمعلومات لقاء مبالغ مالية. لقد ساورتني شكوكٌ في عملِه كمُخبِر للشرطة عندما راح يوجّه الانتقادات للكوديّو لكي يستدرجني إلى الكلام، فهذا أسلوبٌ متّبعٌ في أحوالٍ مماثلة،

(*) سيارة بسقف متحرك من الجلد. م.

فقلتُ له إنني لا أتعاطى السياسة، فأدركَ على الفورِ أنّه لم يخدعني. لقد استمتعتُ كثيراً بإقامتي ثمانية أشهر في المدينة: أحببتُ الـ «غران سوكو» وفلاّحيه الذين يبيعون الفواكه والخضار وجبن البقر والورد والشتول؛ كما أحببتُ السوق الأخرى، الـ «سوكو شيكو»، حيث يستطيع المرء أنْ يدخّن ببيات الكيف وهو مطمئنّ البال لأنّ الكيف لم يكن مُصنّفاً من بين الممنوعات، بل كانت هناك لوحات إعلانية بالأزرق تمثّل خارطة المغرب مرسومة بدخان سيكارة وقد كُتِبَ فوقها «الإدارة المغربيّة لحصر التبغ والكيف». أجل، في تلك الحقبة كان تدخين الكيف لا يُعدّ جنحةً. كما أحببتُ الجبل القديم وفيلاّته المبنية على الطرز الكولونيالي، وحفلات الاستقبال المتصنّعة التي تقام فيها، وصباياها الإنكليزيّات المتعجرفات، وأسبانياتها الجميلات اللواتي يخدمن المدعوين. في إحدى هذه الحفلات وقع خوان في غرام ستيفاني، الفتاة الفرنسيّة التي قدِمَت إلى طنجة لتمضية فصل الصيف في ضيافة عمّها، وهو مهندس ديكور لا تستهويه النساء. خوان وستيفاني عقدا قرانهما في فرنسا ورزقا، على ما بلغني، عدداً من الأولاد. وهناك أيضاً ذلك الرسّام الإنكليزي وزوجته، وكان يرسم لوحاتٍ من وحي المدينة ومن مشاهد الحياة اليومية في المغرب. وكذلك الأمر أحد أفراد العائلة المالكة البريطانية الذي ما كان يخفي عشقه للسهرات الصاخبة والغلمان. كما تردّدت أقاويل في تلك الحقبة عن كاتب أميركي مقيم هناك منذ سنوات عدّة يعيشُ مع غلام مغربي أمّي، فيما انتقلت زوجته للإقامة مع امرأة من عامّة الشعب. كانت طنجة

أشبه بسيرك يضمّ أناساً يعتاشون على هامش المجتمع. وكنتُ أرى إلى هذا العالم بعين الريبة فلا أخالط أولئك الناس.

13 شباط 1952: من هنا غادرتُ على متن سفينة تابعة لشركة «باكِه»؛ نزلتُ في مرسيليا حيث استقبلني أصدقاءُ من الحزب ودبّروا لي عملاً في محطّة «سان شارل». كانت حقبة عصيبة. شهدَتْ أعداداً كبيرة من اللاجئين الأسبان. بلغني ذات يوم أنّ والدي نُقِلَ إلى المستشفى، فعدتُ إلى أسبانيا، للمرّة الأولى منذ رحيلي عنها، مزوّداً بأوراق ثبوتيّة مزيّفة. في دارِنا التقيتُ مجدداً مرسيدس، زوجتي، التي كانت تشقى في عملها لكي تربّي ولدَينا؛ كان ميكال في الخامسة عشرة، فتى متمرّداً، وماريا أخته التوأم، مجدّة في دروسها. تغلّبت الحياة على مُثُلي، ولم أنقل البندقيّة من كتِفٍ إلى كتف، غير أنّي ابتعدتُ تدريجاً عن الحزب لاسيّما عقب غزو المجر من قبل القوات السوفياتية.

إنّما حرصتُ على سردِ وقائع هجرتنا غير الشرعيّة في شهر حزيران 1951. لأنّها كانت هجرة فريدة من نوعها وتاريخية.»

أغلق ميكال الدفتر، فركَ عينيه، ثمّ نظر إلى كنزة:

- غير معقول! مَنْ يُصدِّق؟ مهاجرون غير شرعيين منذ سنة 1951، ولكنْ ليس من الجنوب باتجاه الشمال كما هي الحال في يومنا هذا، أمرٌ لا يُصدّق، أليس كذلك؟ لم يحدّثني والدي عن هذه الفترة في يومٍ من الأيام. أمرٌ غريب، أليس كذلك؟

لم تدرِ كنزة بماذا تجيب. فهي كانت تعتقد، شأن الجميع، أنّ المغاربة هم الذين اخترعوا الهجرة غير الشرعيّة.

- أتعلمين يا حلوتي أنّ الأسبان الذين احتلّوا المغرب كانوا أناساً مُعدَمين لا يمتلكون الإمكانات التي امتلكها الفرنسيون. جنّد فرانكو أفضل عناصر جيشه من الريف، ثمّ أهمل كلّ ما من شأنه مساعدة هذا البلد على النموّ، على الحياة. لم يبنِ هناكَ منشأةً تُذْكَر، لا سدودَ ولا طرقات؛ صحيحٌ أن المستشفى الأسباني كان موجوداً غير أنّه كان في عهدة الراهبات. كانت حقاً حقبة عصيبة! وربّما لهذا السبب لم يرَ المغاربة يوماً إلى الأسبان بوصفهم مستعمرين حقيقيين. وبالمقابل احتفظ بعض الأسبان بعقدة تفوّقهم على المغاربة، لوس موروس، كما يقولون. وما عدا ذلك، كيف حالك أنت؟

كانت كنزة تودّ أن تحدّثه عن طلب ناظم الزواج منها. غير أنّ ما لاحظته من تعبٍ بادٍ على محيّاه الشاحب أقنعها بأنّ الوقت غير مناسب. فلا شكّ في أن ميكال مريض.

كانت تهمّ بالمغادرة عندما أخبرها أنّه طلب من محاميه أن يباشر بإجراءات الطلاق. فأجابت:

- ليس عليك إلاّ أن تطلّقني، يكفي أن تقول، في حضور ثلاثة شهود، «أنتِ طالق» وينتهي الأمر، عقب ذلك ترسل إليّ ورقة الطلاق بواسطة العدول الذين يبلّغونني رسمياً بقرارك. هكذا تجري الأمور في المغرب.

كان ميكال قد سجّل زواجَه في دار محافظة برشلونة، فهو يعلم أنّ الزواج المغربي ليس عقداً بل إجراءٌ لا قيمة قانونية له خارج نطاق العالم الإسلامي.

كنزة لم تحاول يوماً أن تستغلّ مثل هذا الواقع. فقبّلت ميكال ثمّ قالت:

- ناظم، صديقي التركي، طلب يدي للزواج.

- سوف تنجبين أولاداً، وسوف أكون أباً أو جدّاً!

- ما زال الوقتُ مبكراً لمثل هذا الكلام. الرجلُ يُعجبني غير أنني لا أعرفه جيّداً. ولا أدري إذا كان صادقاً. ينتابني شعورٌ غامض بهذا الشأن. ومع ذلك أعترف لك أنني ربّما انطلق في كلامي من أحكام مُسبَقة لا أساس لها من الصحّة نظراً لكونه أوّل تركي أعرفه.

- هل تريدين أن أتحرّى بعض المعلومات بشأنه؟

- لا، لا تتعب نفسَك.

- مع ذلك أعطني اسمه وتاريخ مجيئه إلى أسبانيا.

- لقد دخل البلاد خلسةً. إقامته هنا غير شرعيّة.

- ومن أين لسعيِه أن يكون ممكناً؟ فإذا كان لا يملك أوراقاً ثبوتية قانونية لن يتمكّن من الزواج بصفةٍ قانونية.

- لا، إنّه يعرض عليّ أن نتزوّج وبعد ذلك يتقدّم بطلبٍ لتسوية وضع إقامته.

- لن يسعك الزواج من آخر ما لم تنتجز إجراءات طلاقنا. أمّا هو فلا يمكنه القيام بأي عمل قانوني قبل أن يسوّي وضع إقامته بحسبِ ما يقتضيه القانون. يبدو لي الأمر معقّداً بعض الشيء.

- أنتَ محقّ في ما تقول. وعلى كلّ حال إنّه مجرّد عرض، ولم يُحسمُ قرارنا بعد.

- هل أنتِ مغرمة؟

- أجل يا ميكال.

- تريّثي قليلاً. فما إن يصبح وضعك القانونيّ ناجزاً مائة في المائة، افعلي ما يحلو لك. مغربيّة وتركي! يا له من مزيج رائع، والمؤكّد أنّكما سوف تنجبان أولاداً رائعي الجمال!

31

عازل

كان عازل يعلم، لكثرة ما تردّد إليه، أنّ الـ «باريو شينو» لم يعد ملكاً للأسبان. ففي أسفل الـ «رامبلاس» الأزقّة التي تذكّر حيناً بمدينة فاس وأحياناً بمدينة نابولي القديمة، والتي أضحت ملاذاً لصفقاتٍ يجريها تجّار هنود وباكستانيون. لا شيء فوق العادة. الجدران بالية. الناسُ بؤساء وحفنة الأفريقيات اللواتي ينتظرنَ الزبائنَ في وضح النهار هُنّ الدلالة على خراب هذا الحيّ الذي استملكت البلدية قسماً منه لإنشاءِ مكتبة سينمائيّة. مغاربة يتسكّعون في الأنحاء لا يدرون كيف يمضون أوقاتهم. بعضهم يتشمّس سانداً ظهره إلى الجدار، وبعضهم الآخر يشمّ الهواء، كأنّهم ينتظرونَ مجيء النبيّ. محلّ لبيع التلفونات ذو إسمٍ عجيب، «**الانتصار**»، هو نقطة لقائهم. دكّان ضيّق لا متّسَع فيه، يقع في الـ «كارير سانت باو»، بين دكّان حلاّق أطلق عليه اسم «**ما شاء الله**» وبين مصلّى أطلق عليه اسم «**مسجد طارق بن زياد**».

كان عازل يلجأ باستمرار إلى هذا الحيّ. لا يقصده لأجل

غرض معيّن، وإنّما ينتظر شأن الآخرين. قال له عبّاس ذات يوم: الانتظار هو مهنتنا الجديدة! كان عازل واقفاً هناك إذاً، لا يحرّك ساكناً، مُطرقاً، محدّقاً بالأرض، وبين شفتيه سيكارة تحترق من تلقائها، مهمَل الهندام، لم يستحمّ منذ أكثر من أسبوع. اقترحت عليه عزّيّة، المومس النيجيرية، أن يهرب معها إلى الهند أو أستراليا. فهزّ رأسه متبسّماً وسألها ما إذا لمحت عبّاس هذا الصباح. ابتعدت قاصدةً بار «أليغرا» لاحتساء كوب من البيرة.

سميّة! صاح فجأةً إذ تذكّر اسمها للتوّ. فإذا كان لا يزال على هذه الأرض مَن يستطيع إنقاذي، فهي التي تستطيع بالتأكيد. وحدها القادرة على إحياء رميم روحي، وعلى منحي مجدّداً إحساسي بالرجولة. يجب أن ألتقيها فوراً! ولا بدّ أن عبّاس يعلم أين تقيم. ولكن أين عبّاس؟ هل هو متوارٍ عن الأنظار؟ تردّد كلام في الآونة الأخيرة عن مداهمات تجريها الشرطة. ولعلّه توارى تحسّباً؟

كان عازل يتسكّع في الزقاق مُطارداً شُعاعَ شمس. توقّف أمام مغربيّ يعرض أسقاطاً للبيع: حذاء بالٍ، جهاز تلفون أسود غير صالح للاستعمال، صحون سيكارة من البلاستيك، ثلاث ربطات عنق متّسخة، كَسْكِت عسكريّة، دليل هاتف إشبيلية، مخطّط سياحي لمدينة برشلونة، كُمّة مصباح، لمبات غير صالحة على الأرجح، شرشف مطويّ، أربع علاّقات ملابس إحداهما من خشب. تبادلا النظرات وتبسّما ثمّ تصافحا.

كان عازل يأمل بالعثور على عبّاس في أحد نُزل الـ«باريو

غوتيكو». كان يسير مطرِقاً وصورة سميّة لا تفارق ذهنه، يراها أمام عينيه، يستذكر رائحتها فتسري الحرارةُ في أحشائه، هذا هو المطلوب، يقول في سرّه، سوف تعرف كيف تعيد الأمور إلى نصابها، ثدياها الكبيران خَطِران، وهي تتقنُ استخدامهما، هذا هو المرجوّ بالضبط، سأكتفي بثدييها كما في المرّة الأولى عندما أصرّت أن أبلغ نشوتي بينهما، لقد حزرت موطن الضعف فيّ، ولكنْ ألم تغادر بعدُ برشلونة؟ لطالما حدّثته عن رغبتها في العودة إلى المغرب حيث تخطّط لافتتاح صالون حلاقة؛ عبّاس يعرف كلّ شيء، وسوف يُعلِمُه بما آلت إليه حالها.

في الـ «كارير ديل بيسبي»، التقى مغاربةً واقفين مسندين ظهورهم إلى جدار منزل، ثابتين في أماكنهم كأنّهم دعائم تحول دون انهياره. رجل باكستاني يبيع مناديلَ حرير اصطناعي. لا يكلّم المارة بل ينتظر توقّف الزبون أمامه ليُسارع إلى لفّ أحد هذه المناديل الملوّنة حول رقبته.

كان عبّاس لا يزال نائماً. والنزل الذي يقيم فيه يُديره أناس من أميركا اللاتينية. أيقظه عازل وجرّه من سريره جرّاً إلى أحد مقاهي الـ «رامبلاس».

- أحاول أن أبقى متوارياً عن الأنظار، بلغتني معلومات عن عربٍ قَدِموا من أفغانستان عبر إسلام أباد ودخلوا البلاد خلسةً. والشرطة تخشى من تفجيرات إرهابية، أنت تعلم أنّ مَن يُسمّون بـ «الأفغان» هم قتلة لا يردعهم رادعٌ أو ضمير؛ إنّهم متشدّدون متعصّبون. لذلك تقوم الشرطة بعمليّات تمشيط واسعة وتعتقل أعداداً من المورروس. وأنتَ، ما الجديد بشأنك؟

- لقد هجرتُ الأسبانيّ، فمضاجعة الرجال ليسَ أمراً يستهويني.

- حسناً! لقد أخبرتني بذلك من قبل، ولكن كيف كنتَ تنتصِب؟

- كان يمصّ عضوي فأغمض عينيّ وأفكّر في سهام أو سميّة، وهو، على كلّ حال، يفوقهما براعةً في هذا الأمر.

- آهِ، يا لسميّة المسكينة!

- أين هي؟ إنّي أبحث عنها؛ أحتاج إليها.

- الأفضل أن تنسى أمرها، لقد أصيبت بذلك المرض الذي لا شفاء منه، المسكينة، أدمنت المخدّرات ثمّ راحت الأمور تتعاقبُ من سيئ إلى أسوأ، إن صادفتها لن تتعرّف عليها؛ هزال شديد، ثديان مترهّلان، عينان كابيتان؛ لا تملك ما يُعينها على متابعة العلاج، ناهيكَ عن خوفها من قيام السلطات بإبعادها إلى بلدها. لِمَ كنت ترغب في رؤيتها؟

- لا لشيء محدّد، لكي ألقي عليها التحية، لقد عاملتني بلطفٍ بالغ.

- غداً أصحبك لزيارتها، إذا شئت، ولكن من الأفضل أن ندعها وشأنها؛ المسكينة، مرضها شديد وقاتل. وهي الآن تشاطر امرأةً مكسيكيّة مدمنة سَكَنها.

سميّة الجميلة، الشهيّة الزاخرة بالحيوية، أضحَت خَيالاً كابياً؛ وجه متغضّن، ونظرة ساهمة، وجسدٌ يتأكّله الجوعُ وآلام المرض. كانت نائمة، أو ربّما في حال غيبوبة. أغضى عازل

على الفور وقد اغرورقت عيناه. غادر الغرفة مُسرِعاً. لشدّة تأثّره أراد أن يفعل شيئاً لأجلها، أن ينقذها إذا كان ذلك ممكناً. فقال له عبّاس إنّه لا سبيل لإنقاذها.

تذكّر عازل أنّه يعرف طبيباً فرنسياً من أصدقاء ميكال، مقيماً في برشلونة ربّما استطاع أن يطلب منه المساعدة. من المستحيل أن ينسى المرء اسمه، فهو يُدعى غابريال لومرفايو(*). هذه كنيته الحقيقية. وهو يتحدّر من أسرةِ «بيي نوار»(**) من مدينة مستغانم في الجزائر. رجلٌ مثقّف، ظريف، ذو نزعة إنسانية عميقة، متفانٍ في خدمة الناس، يُقدّس الصداقة من دون أن يغذّي أوهاماً حول طبيعة الجنس البشري. يُحاول ألاّ يحتلّ عملَه سوى الأقلّ الممكن من وقتِه، مُبَدّياً غرامياته العديدة الصاخبة مع الرجال. إلى كفاياته المهنيّة، كان غابريال، اليَقِظ، الذكيّ، يُبدي شغفاً طاغياً بالآخرين. وكان يوصف، من قبل البعض على سبيل الفكاهة ومن قبل البعض الآخر على سبيل السخرية، بأنّه مُصابٌ بـ «حبّ الغَير»، وإن كان الجميع يقرّ له بموهبته التي تخوّله سبرَ أغوار الناس من نظراتهم، وأن يكون حاضراً على الدوام إذا احتاجوا إليه. كان عازل قد التقاه في إحدى السهرات التي اعتاد ميكال أن يقيمها في منزله في طنجة. فسارع إلى دليل الهاتف وعثر على عنوان عيادته في المدينة.

عندما قصد عازل عيادتَه، لم يكن، في حالٍ من الأحوال، في واردِ ما سيطّلع عليه منه.

(*) الخارق. م.

(**) pieds-noirs، اسم يُطلق على أوروبيي الجزائر. م.

32

غابريال

كان غابريال بالتأكيد هو أكثر الناس عِلماً ودراية بطويّةِ ميكال. فقد استمرّت الصلاتُ وثيقةً بينهما على الرغم من نُدرةِ الفُرص التي تدعوهما إلى التلاقي. غابريال يعرف الكثيرَ عن صديقه ميكال، ولكنّه يرفض الخوضَ في حديثٍ عمّا يعرفه. ومع ذلك حين فوجئ بعازل داخلاً عيادته، ذاك الصباح، تمنّى عليه أن ينتظره، وألاّ يُغادر خاصّةً قبل أن يراه، فثمّة ما يودّ أن يطلعه عليه.

- جئتَ في الوقت المناسب يا عازل. عبثاً حاولتُ، ولم أعثر عليك. ولكن قل لي أولاً ما الذي أتى بك إلى هنا.

تردّد عازل قليلاً ثمّ أطلعه على حالة سميّة. فطمأنه غابريال على الفور. فالحقيقة أنّها جاءت إليه قبل بضعة أيام واتضح انّها لا تعاني إلاّ من التهابٍ حاد في الكبد. وهي تتبع علاجاً لهذا المرض وسوف يُكتب لها الشفاء عمّا قريب.

- ولكنّي رأيتها بعينيّ هاتين، إنّها مريضةٌ جداًا!

- لا تشغل بالك، سوف تنجو. لقد سلكتُ بعضَ السُبُل، على الطريقة المغربيّة، وتمكّنتُ من إدخالها إلى عيادةٍ تابعة للصليب الأحمر، المهمّ أن تحظى ببعض الراحة، وبظروف حياةٍ صحيّة، لفرط ما استسلمَت لمجرياتِ الأمور وأهملت نفسها. لقد أشرت عليها حتّى بأنّ خير بدايةٍ لعلاجها هي أن تغتسل. كان مظهرها أشبه بمظهر المشرف على الموت.

عقِبَ هنيهة صمت، أردف غابريال قائلاً:

- الحقيقة أنّك آلَمْتَ ميكال بشدّة.

- هيا، دعنا من المبالغة، جلّ ما في الأمر هو أنني أذِنْتُ لنفسي بالتصرّف ببعض مقتنياته النفيسة لسداد بعض الديون المترتّبة عليّ. ميكال كان مِثال السخاء مع عائلتي، أمّا أنا فقد خسرتُ كلّ شيء، أصبحتُ ركاماً. فإذا كان ثمّ من يستحقّ الرثاء لحاله فهو أنا وليس هو.

- إذاً اصغِ في الأقلّ إلى القصّة التي سأسردها على مسمعك. ميكال ليس هو الشخص الذي تعرفه، لقد ابتكر لنفسِه شخصيّة ما، لكنّه، على نحوٍ ما، يسلكُ الطريق الذي سلكته أنتَ. لقد نشأ في كنفِ عائلة فقيرة. وكان على والده أن يهاجر إلى المغرب ثمّ إلى فرنسا، وأن يعمل هناك في مرفأ مرسيليا. وكانت أمّه تعمل حاجباً لعمارة سكنية، ولكي تبقى على قيد الحياة اضطرّت إلى التخلّي عن ولديها لتتعهّدهما مصلحة «الرعاية الاجتماعية». وفي مثل سنّك كان ميكال مُعوِزاً

أكثر مما أنت عليه اليوم. وحين تسنّى له أن يُغادر أسبانيا غادرها طلَباً للنجاة. وكانت فرصته شبيهة بفرصتك أنت، إذ كان عليه أن يرتبط برجل، هو لورد إنكليزيّ، ثريّ ومتنفّذ، معقّد وصارم. أراد اللورد أن يجعله محظيَّه لأنّ ميكال كان وسيماً جداً، ولدى وصوله إلى بريطانيا أسكنه إحدى ممتلكاته. كان ميكال عشيقه وعبده المتفاني، خادمه وفرّاشه وكان اللورد يُرغمه أحياناً على مضاجعة شقيقته العانس العجوز التي نفر الجميع منها. على النقيض منكَ، كان ميكال قد أقام بعض العلاقات الجنسيّة مع رجالٍ في أسبانيا، وكان ذلك يستهويه ولا يكتم الأمر، وإن كان المجتمع في ذلك الوقت لا يتساهل مع علاقات مماثلة. خضع ميكال لسيّده وأشبعَ رغباته. ومع ذلك كان يعلم أنّه ذات يوم سوف يجني ثمرات أفعاله. فاستغلّ، بذكائه وحنكته، اللحظات التي لا يستطيع اللورد أن يرفض له طلباً فيها. فالهدف الواحد الوحيد الذي وضعه ميكال نصبَ عينيه هو التغلّب على أوضاعه المزريّة، وألاّ يعيش ثانيةً حياةَ العوز والبؤس. ولكي يبلغ هدفه لم يتوان عن استغلال شقيقة اللورد للحصول على ما يضنّ به اللورد كثيراً، وهي لوحة صغيرة من أعمال بيكاسو كان ميكال مولعاً بها. وثِق جيّداً أنّ خوض مثل هذه اللعبة حتّى النهاية والخروج منها غانماً يتطلّب قوّة استثنائية وطاقةً لا تُضاهى. بالاختصار، عقب وفاة اللورد ورث ميكال ثروةً طائلة. لقد ورّثه اللورد كلّ ممتلكاته، وحاولت الشقيقة أن تطعن بالوصيّة أمام القضاء لكنّها خسرت القضية. حتّى أنّها روّجت شائعة مفادها أنّ أخاها قد مات

مسموماً على يد ميكال. عقب ذلك، غادر ميكال إلى طنجة حيث اشترى منزلاً فخماً لإقامته ومزرعة صغيرة في مالاغا لإقامة أهله، وراح يُرتّب أمورَ حياته. بدايةً غيّر اسمه، ثمّ تدبّر عملاً وزوجاً لشقيقته، وتقرّب من الأسرة المالكة في أسبانيا، حتّى قيل إنّ الملكة تكنّ له مودّةً خاصّة وإنها تسهّل له بعض العلاقات والارتباطات، كان يعشق أن يتألّق نجمُه، وأن يقيم الحفلات، ويعشق إنفاق المال وبذل كلّ ما يُبذَل لإرضاء الشخص الذي يقع في غرامه. ومعك أنتَ يا عازل أعتقد أنّه عاشَ ثانيةً بعضاً من ذلك الصبا، ثمّ خيّبتَ أملَه.

لبثَ عازل مذهولاً لما يسمعه. ولم يستطع إلاّ أن يُفكّر في ما قد يرثه عن ميكال إثر وفاته. بل راودته حتّى فكرة الرجوع إليه، وطلب المغفرة منه، ونيل رضاه ثمّ دفعه إلى تجرّع ذلك القرص الصغير الذي يُسكِت القلبَ ولا يخلّف أثراً.

الآن وقد اطمأنّ إلى حال سميّة، بحسبِ ما قاله غابريال، راح يفكّر في مصيره هو. وعندما همّ بالمغادرة، أغضى وغمغم قائلاً:

- الحقيقة أنني ما عدتُ أنتصِب!

- وما المشكلة في ذلك؟ هذا أمرٌ قد يحدث للناس جميعاً، عطلٌ طارئ، جميع الرجال يمرّون بهذه التجربة في يومٍ من الأيام، أمرٌ عاديّ، لا تشغل بالك.

- المشكلة ليست عضوية، السبب هو رأسي المضطرب.

لقد قضيَ عليّ، فقدتُ كلّ ثقة بنفسي، إنّي هالكٌ حتماً، وكم أشعر بالخزي.

- اتصل بي في غضون الأسبوع المقبل، وسوف نناقش الأمرَ بروية.

33

فلوبير

كانت مُصادفةٌ غريبة حقاً أن يلتقي عازل وفلوبير ذات صبيحةٍ باردة على أحد مقاعد حديقة عامة. كان عازل يُدخّن، وفلوبير لا يدخّن.

- هاه، أنتَ! طريقتك في التدخين قاتلة!

- ماذا تعني بأنّها قاتلة؟

- أنتَ تتنشق الدخان بنهمٍ ما بعده نهم لكي يرسب كلّ ما فيها من قطران في رئتيك. لا يغفلون عن شيء. لا بدّ أنّك قانطٌ من نفسِك وتسعى وراء هلاكها. على كلّ حال، هذا ليس من شأني، ولكن بحسب القولِ السائر عندنا في الكاميرون، لا بل الأحرى في بلاد الـ«بانغانتي» في الـ«نْدِه»، لعلّك ممّن يخشونَ العزاءَ البارد.

رمقه عازل متبسّماً ثمّ ربّت على كتفه.

- أنتَ إنسان غريب! مَنْ أرسلكَ لكي تعظني؟ أمّي، أختي، أم أنّه وليّ نعمتي؟

- لا أحد، أنا عابر سبيل، جئتُ أبحث عن أندرِه ماري، وهو ابن عمّ لي تبحث عنه العائلة لأسبابٍ تتعلّق بـ «الجمعيّة». أندرِه ماري هو أسود عملاق، أعتقد أن طول قامته يبلغ المترين، هاجر ذات يوم سعياً وراء فرصة عملٍ في أوروبا، دخل المغرب عبر الحدود الموريتانية، وأقام بضعة أشهر في طنجة حيث عانى الأمرّين، وفي آخر الأمر تمكّن من عبور البحر. لا بل أعتقد أنّه أفلح في ذلك من المحاولة الأولى. أو في الأقلّ هذا ما كان يدّعيه في الرسائل الشفوية التي حمّلها لأحد أبناء عمومته الذين عادوا إلى البلاد.

- أجل، أجل فهِمتُ، إفريقيّ آخر من أكَلَةِ قطط طنجة الذين لا يملكون ما يسدّ أودهم! وبفضلهم عادت الفئران والجرذان للتكاثر في نواحي الميناء. وأنتَ، ما الذي أتى بك إلى هنا؟

- أنا أعمل لحساب منظمة غير حكومية فرنسيّة ألمانية، وكنتُ في تولوز عندما تلقّيت اتصالاً من العائلة تطلبُ إليّ البحث عنه، وقد قيل لي إنني قد أجده في برشلونة في الحيّ الإفريقي. فركبتُ القطار وها انذا أبحث عن أندرِه ماري. ألم تصادفه في هذه النواحي؟ رجل مثله يبلغ طول قامته المترين، لا بدّ أن يلفت الأنظار!

- كلاّ، أنا لا أعرف أفارقة. أو بلى، بلى أعرف عزيّة، وهي مومس نيجيرية.

- عزيّة ليس اسماً إفريقياً!

- بالضبط! المغاربة هم الذين أطلقوا عليها هذا اللقب،

ففي بلدنا غالباً ما يطلق على السود اسم «عزّي»، من قبيل الازدراء، وقد يُسمّون أحياناً عبيداً. ولكن لنعد إلى موضوعنا، فما قصّة «العزاء البارد» و«الجمعيّة» هذه؟

- في بلادنا، بلاد الباميليكِه، من واجب المرء احترامَ كلامِه، وألاّ يمسّ شرف العائلة. ولعلّ أشدّ ما قد ينالُ الباميليكِه من عارٍ هو امتناع الناس عن المشاركة في عزائه، أقصد جنازته. فإذا أخل المرء باحترام كلمتِه والتزامها يفقد انتماءَه إلى العائلة والقبيلة. والعزاء البارد هو عندما يأتي الناس إلى الجنازة لكنّهم يمتنعون عن الشراب وعن الأكل، ولا يبقون لفترة طويلة.

- وما همّ الميت سواء حضر الناس أو لم يحضروا شعائر دفنه.

- المسألة عندنا مختلفة، لأنّ الموتى في عرفنا ليسوا أمواتاً على الإطلاق، وإنّما يُبدّلون صفتهم بأخرى ويغدون أسلافاً يُستشارون عند الاقتضاء.

- وماذا عن «الجمعيّة»؟

- الجمعية هي نظامُ قروض. إذ يجتمع عدد معيّن من الأشخاص ويلتزم كلّ منهم إيداع مبلغ معيّن شهرياً في صندوق مشترك. ومن ثمّ يستطيع كلّ واحد من أعضاء هذه الجمعيّة أن يحصل على المبلغ الإجمالي الذي يحتويه الصندوق، ومداورةً، بوصفه قرضاً. ويتم ذلك طبعاً من دون أوراق أو تواقيع أو أي شيء من هذا القبيل، وليس على المقترض إلاّ أن يتعهّد شفاهةً بسداد المبلغ. وإذا أخلّ أحدٌ ما بتعهّده هذا يمسّ شرف العائلة بأسرها، وعندها يضطرّ أشقاؤه وشقيقاته إلى سداد القرض لإنقاذ

شرف العائلة. جئتُ أبحث عن أندرِه ماري لأنّه حظي بقرض مماثلٍ لكي يتسنّى له الذهاب للعمل في فرنسا، لكنّه اختفى ولم يسدّد مال الجمعيّة. واليوم والده مريضٌ، لم يمت بعد، لكنّه يخشى في حال وفاته أن يحظى بعزاء بارد بسبب فعلة ابنه اللعين. طُلِبَ إليّ أن أعالج الموقف قبل حلول موسم الأمطار. ما يعني أنّ أمامي أسبوعين أو ثلاثة لا أكثر. وإلاّ حلّت المأساة حقاً، فلن يعود بإمكانه الزعم بأنّه متحدّر من الـ «نْدِه».

- هذه الـ «نْدِه» هل هذا اسم قريتك؟

- إنّها أكبر من قرية، لعلّها أشبه بالمقاطعة واسمها يعني **النُبل، الكرامة، الأناقة.**

حَسِبَ عازل أنّ في الأمر دعابة ما.

- ولكن ما الذي يدعوكم إلى الرحيل عن بلادكم وفي معتقداتكم كلّ هذا المخزون من القيم التقليديّة؟... لطالما شعرتُ بالأسى لحال هؤلاء الأفارقة المتسكّعين في شوارع طنجة كظلالٍ تائهة؛ إنهم أناسٌ لطفاء، غير عدائيين، وليسوا أشراراً. يتسوّلون، ينظفون المدافن، يقومون بالأعمال الشاقة ويقبلون بالأجر الزهيد. بعضهم ينتشر على طول الطريق، وخاصة تلك المؤدية إلى سبتة، مشيرين إلى السائقين وراكبي العربات بإشارات من أيديهم بأنّهم يريدون طعاماً. إنّه أمر محزن. فما الذي يحدو بهم إلى طرقِ هذه السُبُل؟

- نحن نرحل ولكن دائما لكي نعود. نبني حياتنا وفق ما تقتضيه مصلحة العائلة، التي يشعر كلّ واحد منا بأنّه مسؤول عنها. دعني أسرد على مسمعك حكاية أبولينير، لا ليس الشاعر

الفرنسيّ، وإنّما ابن عمّي الذي يعمل في شحنِ البضائع. منذ بضع سنوات توفي والد أبولينير فجأة دون أن يتسنّى له سداد القرض الذي تدين به العائلة للجمعيّة. وكان عزاؤه أكثر من بارد، إذ لم يأتِ أحدٌ من الناس لتكريم الفقيد، وكانت جنازة مقفرةً، خاوية، بائسةً كلّ البؤس. عزم أبولينير إذاً على الهجرة إلى فرنسا لكي يجمع المال الذي لم يتسنّ لوالده أن يجمعه. فتدبّر أمر دخوله إليها خلسةً وعمل في تجارة السيّارات المستعملة. وجمع في غضون خمسة أعوام مبلغاً لا بأس به من المال. عندئذ عاد إلى دوالا وأعدّ العدّة لجنازة والده في القرية؛ طبعاً بعد أن سدّد قيمة الدين المتوجّب على العائلة.

- ولكن ألم يمت والده قبل ذلك بخمس سنوات؟

- بلى، طبعاً، ولكن كان عليه أن يغسِل عار أسرته ولو بمضيّ خمسة أعوام. هذه حكاية أبولينير. اليوم أصبح ثرياً وصاحب نفوذ ويُدير أعماله وهو مقيم في البلد. كما أنّه تزوّج أكثر من امرأة، ويتمتّع بالصحة والعافية، وأمّه مقتنعة بأنّه مدين بثروته لالتزامهِ الوفاء بكلامه.

- هذا يعني بالاختصار، أنّكم مرتاحون في بلدكم؟

- نواجه بعض المشكلات وخاصّة على الصعيد الاقتصادي، ومشكلات حكم وفساد، من بين أمور أخرى، لأننا لم نخرج بعد من حضنِ مدام لا فرانس(*) التي تعاملنا كأولادٍ معوّقين. والحقيقة أنّ أسوأ ما في هذا كلّه هو أننا نرضخ لذلك!

(*) السيّدة فرنسا.

- وهل غادرت بلدك بسبب مدام لا فرانس؟

- كلاّ، أنا أعدّ من بين المحظوظين، فبإمكاني أن اغادر البلاد وأن أعود إليها وفق مقتضيات عملي. ثمّ إنّي أحتاج خاصّة إلى جبالي، تماماً كما تحتاج أنتَ إلى سكائرك.

- وهل تمكث في بلدك بسبب الجبال؟

- الأمر يتعدّى الجبال وحدها، إنّها أرض أجدادي، والأجداد في عرفنا هم سبب جودنا الجوهري، فمن دونهم أنا لا احيا.

رفع عازل عينيه نحو السماء وحلم بإفريقيا. راح يسأل في سرّه عن السبب الذي يحدو بالمغاربة إلى فقد شعورهم بالانتماء إلى إفريقيا وإلى جهلهم بكلّ ما يتّصل بهذه القارة. قال له فلوبير:

- الحقيقة أننا في بلادنا نُحسِنُ وفادةَ الأجانب. وإذا شئتَ بإمكانك أن تبيع السجّادَ في شمال البلاد، في مروا أو في غروا. سوف يشتريها منك أقوام الآلادجي، فهم يعشقون السجّاد المغربي، وخاصّة سجّاد الصلاة. فكّر في الأمر ملياً، فإذا كنت راغباً في التخفّف من همومك، وفي مغادرة أوروبا من دون العودة إلى المغرب، فإنّ الكاميرون ترحّب بك. وما أقوله ليس كلامَ مجاملة، ولا تنسَ أننا بلد الكلمة العهد، بلد الكلمة المصونة. خذ، هذا رقم هاتف عائلتي في الـ«نْدِه». اتصل متى شئت.

- أنتَ تثقُ بي! لا تعرف شيئاً عنّي وعن حياتي ومع ذلك تدعوني إلى بلدك ومنزلك!

- أنت تعلم أنّ الأحرى بواحدنا أن ينطلق من المبدأ القائل إنّ الإنسان خيّرٌ بطبيعته، وإذا اتضح أنّه سيئ فلن تقع الأذية إلاّ على ذات نفسِه. إنّها مسألة حكمة وتعقّل.

- هل تعتقد أنني قد أتمكّن هناك من استشارة وليّ؟

- طبعاً، ولكنّ الأمر مرهونٌ بما تتوقّعه منه.

- أن أشفى.

- ولكن ممَّ؟

- من كلّ شيء. منّي، من حياتي، من إخفاقاتي، من مخاوفي، من مكامن ضعفي وقصوري. أريد أن أكون على ما يُرام، هذا ما أبتغيه، أن أكون على وئامٍ مع ذاتي.

قبل أن يغادر، أعطاه فلوبير كَرْتَه:

- للمناسبة، ما اسمك؟

- عزّ العرب.

- أهو اسم كاتب؟

- طبعاً لا.

34

كنزة

كان ميكال قد أخطر كنزة بأنّه سيتغيّب بضعة شهور. أمّا إجراءات الطلاق فقد بوشِر بإنجازها. قبيل رحيله حمل إليها ساعٍ من قبلِه رزمةً تحتوي على عقد قديم رائع ومبلغ من المال، وقد أرفقها بالعبارات الآتية: «حبيبتي، إنّي ذاهبٌ إلى مكان بعيد، متعبٌ قليلاً ممّا يجري لي، وأبحث عن مسافةٍ تعينني على الفصلِ بين حياتي المعقّدة وبين تطلّعاتي. وهذا ليس بالأمر اليسير. أحتاج إلى متنفّس، بقدر احتياجي إلى فسحةٍ من النسيان. كوني سعيدة، وانجبي لي أولاداً من هذا التركيّ، سوف أربّيهم كيلا أبتلى بشيخوخةٍ كئيبة.»

كم تودّ ذلك، لكنّ شكوكها حيال ناظم لا تزال على حالها. فما إن تلمّح بكلمة إلى المستقبل حتّى يتهرّب من الإجابة. هي تحبّه، أمّا هو فمتردّد، لا يُتقن التعبير عن مشاعره، ولا تعلم يقيناً إذا كان ذلك خجلاً أم حنكةً من قبله وحسن تدبير. مضى على علاقتهما نحو العام، وما زالا متآلفين،

حميمين، في الفراش. كانت كنزة تودّ تمتين هذه العلاقة ودفعها قُدُماً، أن تضع خططاً للمستقبل، أن تنشئ عائلةً ما إن يتم طلاقها من ميكال. تحبّ هذا البلد، وتواظب على إرسال النقود إلى والدتها، وعلى أداء وصلات راقصة في مطعم «ويل دوليف» كما تقبل أحياناً بأن ترقص في بعض حفلات الزفاف حيث أصبح الرقص الشرقي هو الموضة. تقتصدُ مما تجنيه عاقدةً العزم على عدم الانهمام بأمور عازل. فلكل منهما حياته الخاصّة، ولكل منهما مصيره، تردّد في سرّها وكأنّها بذلك تقنع نفسَها بأنّها ليست مسؤولة عنه.

ثمّ بين ليلة وضحاها اختفى ناظم. بحثت عنه كنزة في كلّ مكان، متوجّسةً من سوءٍ قد أصابه. لقد بلغها أن وزارة الداخلية استدعت عشراتٍ من الماليين والسنغاليين من المقيمين بصفة غير شرعية، واعدةً بمنحهم وثائق إقامة شرعية. فامتثل هؤلاء وحَضَروا في الموعد المحدّد، ولشدّة ما أحسن رجال الشرطة استقبالهم والتعاطي معهم عقدوا حلقات الرقص أمام المخفر. عقب ذلك قدموا لهم شراباً ساخناً وشطائر بالجبن خالية من لحم الخنزير الأمر الذي رأى فيه المهاجرون بادرةً حَسَنة. بعد وجبة الطعام هذه، أدخلوهم إلى ردهةٍ فسيحة الأرجاء وغفلوا عنهم لما يزيد على الساعة من الوقت ريثما تفعل المنوّمات التي مُزجت بالشراب فعلَها. غرق الجميع في سباتٍ عميق. جاء رجال شرطة متدرّبون جيّداً ووضعوا أصفاداً في أيديهم ثمّ عملوا على نقلهم في حافلات إلى المطار العسكري حيث كانت طائرة في انتظارهم. بعضهم تمكّن من أن يفتحَ إحدى عينيه لكنّه لبث

عاجزاً عن الكلام. الرؤية مشوّشة وهم لا يدركون حقيقة ما يجري لهم. وما إن أصبحوا في الطائرة حتّى عمل ضبّاط شرطة آخرون على تقييدهم بالمقاعد بشريط لاصق متين، وكمّ أفواههم. أقلعت الطائرة. ولم تمض سوى بضع ساعات حتّى ألفوا أنفسَهم في مطار باماكو. جاء ضبّاط الشرطة أنفسهم وحلّوا وثاقهم. ثمّ راحت الضربات واللكمات تنهمر من كلّ صوب، تطايرت المقاعد، فيما لاذ أفراد الطاقم بمقصورة الطيّار الذي لم يكن موافقاً بالطبع على ما يجري ولكنّه آثر التغاضي عنه. متواطئ وليس شريكاً. إنّها الأوامر. إنّه أمرٍ يجري تنفيذه بحذافيره، ولم يبلغه أحد من قبل تفاصيل العملية.

في باماكو أبدت السلطات انزعاجها. لِمَ لم تهبط الطائرة في داكار؟ لذا أخلي سبيل العائدين، على ما أسماهم وزير الداخلية المالي، وذهب كلّ منهم في طريقه. سلك السنغاليون طريقهم مجدداً، بعضهم باتجاه داكار، وبعضهم الآخر باتجاه شمال المغرب. لأنّهم يريدون العودة إلى أسبانيا. فليس لديهم ما يخسرونه.

كانت الصحافة الأسبانية هي التي سردت وقائع هذه القصّة، مندّدةً بالأساليب غير الإنسانية التي اعتمدتها حكومة أثنار الصغير. فردّ رئيس الوزراء بنبرته التهكّمية المعتادة: «كنّا نواجه مشكلة، ولم تعد هناك مشكلة، فأين المشكلة إذاً؟»

كانت هذه القصّة الكئيبة تؤرّق ليالي كنزة. لعلّهم أعدوا طائرةً أخرى وجهتها تركيا؟ غير أنّها بدّدت هواجسها بإقناع نفسِها إنّ عدد الأتراك في تركيا لا يكفي لملء طائرةٍ كاملة.

عرّجت على المطعم حيث أخبرها أحد النُدل أنّهم لم يروا ناظم منذ نحو الأسبوع. وأعطاها عنواناً قد يكون مقيماً فيه. استقلّت كنزة سيّارة أجرة إلى زقاقٍ معتم بين الباريّو شينو والباريّو غوتيكو. مدخل المبنى مكسوّ بالقاذورات، ورجل لاتينيّ ثمل يتسوّل بعض الدراهم. أعطته نقوداً وسألته إذا كان يعرف رجلاً تركياً، طويل القامة، أسمر البشرة، وذا شاربين كثّين أسودين.

- إيه، إل مورو، في الطبقة الأخيرة، آخر الممشى، الباب الأحمر.

طرقت الباب ونادت ناظم مراراً. وراء الباب لا صوتَ إلاّ صوت طفلٍ يتناهى إلى سمعها. طرقت الباب بقوّة.

- ناظم، أنا كنزة، افتح الباب، الأمر مهمّ.

كان الطفل يبكي، وسمعت صوت امرأة تهدئ من روعه.

قالت كنزة في سرّها إنّها حتماً أخطأت العنوان. إذ ليس من المفترض أن يكون ناظم في هذا المبنى المتهالك. اللهم إلاّ إذا كان متزوجاً ويعيش فيه مع أسرته. غير أنّها سرعان ما ندمت على حسبانها هذا. ومع ذلك كلّ شيء ممكن، كلّ شيء ممكن كان يردّد ميكال قائلاً. سرى الشكّ حيال ناظم حتّى أعماقها، وطغى على كلّ شيء، بات يتأكّلها من الداخل، ويوهمها بأمورٍ ويعذّبها. ولم يعد أمامها الآن إلاّ فرصة وحيدة وهي أن تعثر على رَجُلِها، وأن تطرح عليه السؤال صراحةً.

عصر اليوم التالي ظهر ناظم مجدّداً. بدا متعباً، مشغول البال. وشرح لكنزة أنّه اضطرّ إلى الذهاب إلى غاليسيا لإنجاز

عملٍ سخيّ الأجر، ولم يشأ أن يُطلعها على الأمر لأن ذهابه إلى هناك ينطوي على مخاطرة. وبعد هنيهات من الصمت، أمسكَ بكتفها، وخاطبها برفقٍ قائلاً:

- الحقيقة يا كنزة أنّ حياتي معقّدة، ترتّبت عليّ ديونٌ يجب أن أسدّدها لشخصٍ لئيم وشرير. لا أستطيع أن أدخل في التفاصيل، وبأية حال حتّى أنني لا املك الحقّ في التحدّث عنها. جلّ ما أطلبه منك هو أن تمنحيني ثقتَك.

كانا قد جلسا في مقهى. فطوّقها بذراعيه. كانت كنزة تقاوم دموعها، فيما حدسُها يُنبئها باستمرار: الحذر، يا كنزة، الحذر. نهض ناظم قاصداً المغاسل. ولاحظت كنزة أن محفظته وقعت من جيبه أرضاً. لمّتها، ووضعتها على الطاولة محدّقةً بها بثبات. راودتها فكرةٌ متهوّرة: إنْ فتحت هذه المحفظة ربّما عثَرتِ على شيء مهمّ. كأنّها علامة من علامات القدر. ومع ذلك لم تجرؤ على مسّها، ولكن ناظم أبطأ في العودة. قرّبت يدها بتؤدة منها وفتحتها قليلاً بإصبعها. صورة. صورة لناظم مطوّقاً بذراعيه امرأة سمراء فتيّة ذات شعر طويل، وحولهما ولدان. صورة عائليّة. الصورة المعتادة التي يضعها الآباء في محافظ نقودهم. انهمرت الدموع على وجنتيها. دموع لا تُقاوم. أخيراً ظهر ناظم مجدداً، متبسّماً، مُستعداً لقضاء نهار جميل مع حبيبته. في الأثناء كانت كنزة قد تمالكت نفسها. نهضت دون أن تنبس بحرف، غادرت المقهى، واستقلّت سيّارة أجرة ثمّ توارت، مخلّفةً ناظم وراءها، وحيداً على الرصيف.

35

ناظم

كاد السرّ أن يُهلِكَ جسدَه ويُفسِد روحه. احتفظ به كعلبةٍ مقفلة على ذكرياتٍ تتحيّن فرصة الخروج إلى العَلَن لكي تحيا مجدداً. كسورٌ من حياة سابقةٍ سُجِنَت بضعةَ شهورٍ، وربّما بضعَ سنوات. كان قد تمرّس بإغفالَها، وعدم استذكارها. فهو يعلم أنّه لا وجود للذكريات إلاّ إذا استدعيَت إلى الحاضر. كان أحياناً يرودُ جنباتها متشمّماً عطرَها، متجرّعاً العزلةَ حتّى الثمالة، فاتحاً عينيه كأنّما ليقنع نفسَه أنّ لا جدوى من الترجّح بين ماضيه وبين حياته الحاضرة. الآن لم يعد لديه ما يحرص على كتمانه. فالعار يحمله في داخلِه كشيء قديم قذرٍ، كريه الرائحة ويخجله. كان يعتقد أنّه يستطيع التخلّص منه، أن يكبته في نطاق الإثم الذي لا يُباح به. كذب من طريق الكتمان. لَزِمَ الصمت، لا أكثر. كنزة لم تطرح عليه يوماً أسئلة محدّدة حول حياته السابقة. كيف كان ليُجيبَ لو سألته كنزة إذا كان متزوجاً في تركيا؟ كان ليغمغمَ بضعَ كلماتٍ غير مسموعة قبل أن يحرف الحديث إلى موضوع آخر. أنا، متزوّج؟ طبعاً لا! كنتُ لأتزوّج من ابنة الجيران،

ولكن اتضح أنّها مخطوبة لابن عمّها. وكما كان يقول ناظم حكمت الكبير:

لقد انتزعتُ الغزالة من أيدي الصيّاد، غير أنني، في سباتها، لم أردّ لها الحياة

لقد قطفتُ ثمرة الليمون عن غصنها، غير أنّها لم تُقشَّر

لقد خالطتُ النجومَ، عشواءَ، ولكن من ذا الذي قيض له أن يحصي النجوم. . .

منذ سنتين وثلاثة أشهر لم يتسنّ له أن يرى زوجته وولَدَيه. يُرسِل لهم النقود، ويهاتفهم بين الفَينة والفَينة من هاتف عموميّ، ويختلق لهم أخباراً عنه، فيقول مثلاً إنّه يعمل في جامعة خاصّة يكتم اسمها، وإنّه يعيش في مدريد لكنّه يعطي أيضاً دروساً في الرياضيات في توليدو. يختلق، ويخطئ، ويختلط عليه أمر ما يقول، ثمّ يعتذر ويُنهي الاتصال. كان يعلم أنّ زوجته موضع ثقة، فهي تعمل في مكتب للدراسات الهندسيّة وتعلم كيف تُعنى جيّداً بالولدين، كما يعلم أنّها ستنتظره. غادر تركيا بعد أن خسر كلّ شيء في القمار وألفى نفسَه معرّضاً لتهديدات أحد دائنيه الأثرياء المنحرفين. كان يقول له: أعلم أنّك لا تملك شيئاً، لا شيء على الإطلاق ولن يسعك، مهما حاولت، سداد دَيني. قتلُك لن يعيد لي مالي، ثمّ إنّي أملك من المال ما يفوق تصوّرك، ولكن المسألة هي أنني أعشق الشرّ، أعشق رؤية شبَهي من الناس وهو يعاني عذابات الأرض، لا أستطيع أن أفسّر لكَ ما يجري في قرارة نفسي، غير أنني أتلذّذ

برؤية أحدٍ ما، وخاصّة إذا كان شخصاً محبّباً مثلك، وهو يعاني الأمرّين ويتعرّض لأقصى ما في الحياة من المهانة. عقابُك هو المنفى. سوف أرمي بك خارج البلاد. إلى الجحيم لا السجن. فالسجنُ أهون شرّاً، أليس كذلك؟ إني أحكم عليك بالمنفى؛ أبعدك عن زوجتك وولديك الذين سأراقبهم جيّداً. لن تعود إلى تركيا قبل ثلاث سنوات. رجالي منشرون في كلّ مكان، وهم أناس لا يرحمون، يعشقون تقطيع الناسَ، أشباهَهم، أشلاءً، هكذا تجري الأمور هنا، أنت مدين لي بثلاثة ملايين، لذا أحكم عليك بثلاث سنوات بعيداً عن تركيا. هل أنتَ موافق؟ ورجاءً لا تستدرّ دموعي. فعندما أبكي أزداد لؤماً. أنتَ محظوظ، فعقابُك ليس قاسياً كما ينبغي، واعتبر نفسَك محظوظاً لأنّك وقعتَ على دائن من أمثالي. تمهّل، لا تغادر الآن، فما زلتَ لا تعلم ما هي الوجهة التي اخترتها لك. سوف تذهب إلى مكان ليس من عادة الأتراك أن يذهبوا إليه. أسبانيا مثلاً، بلد جميل، أسبانيا، ومرحاب. سوف تكتشف الكثير هناك، وقد تستهويك الإقامة فيها. لا تطلب تأشيرة دخول، فلن تحصل عليها. أسلك الطريق إليها سيراً، سيراً على الأقدام، ليلَ نهار، وإذا أقعدك التعب فكِّر فيّ أنا، والمؤكّد أنني سأكون منتشياً. أمامك ثماني وأربعون ساعة لكي تختفي. ولكن خذ، هذا رقم هاتف عمر، أصدقاؤه يلقبونه «تاراس بولبا»، ليس شاعراً، لكنّه يعشقُ نَيْكَ الرجالِ أمثالِك، سلّمه دبرَك وسوف يسهّل لكَ اجتياز الحدود. ولكَ أنت القرار، فعُمَر رجل مريض ما إن يلمح مؤخرةً حتّى يسحب عضوه محاولاً غرزه فيها، إنّه فتىً غريب الأطوار ومخلص، ولم

يسبق له أن خانَ عهد صداقته بي، فتىً مجرّد من المشاعر والأحاسيس. إلاّ إذا كنت تؤثر تدبير أمرك بنفسك... ولا تحاول أن تطلع أحداً من الناس على الاتفاق الذي أبرمناه فيما بيننا، ولا تحاول، مثلاً، أن تطلب اللجوء السياسي، أنا أعلم أن الأوروبيين أناس من ذوي القلوب الرقيقة، فلا يصادفون ضالاّ أو حائراً في أمره إلاّ ويُعطى حقّ اللجوء السياسيّ، ليس من صالحك أن تحاول، فعائلتك في قبضتي. ولكن انتبه جيّداً، أنا لا أرغمك على الذهاب إلى أسبانيا، فبإمكانك أن تذهب إلى ألمانيا، ولكن الأمور في ألمانيا أيسر بكثير نظراً لوجود هذه الأعداد الكبيرة من المهاجرين الأتراك. وألمانيا لن تكون منفى فعلياً، فالمنفى هو أرض يسودها الصقيع... ومع ذلك فلتعلم جيّداً أنّ عيوني ومخبريّ كثرٌ هناك أيضاً.

كان ناظم يعلم أنّه تورّط مع رجل منحرف. ولم يبق أمامه سوى الهروب، الرحيل، مغادرة تركيا في أسرع وقت ممكن، والذهاب إلى أسبانيا للإقامة فيها ثلاث سنواتٍ كما أُمِرَ بأن يفعل. لا بدّ أنّ لدائنه رجالاً هناك. وما كان ناظم ليستخفّ بمثل هذه التهديدات، إذ ألفى نفسه فجأة في خضمّ فيلم من أفلام المافيا، مطارَداً من قبل قَتَلةٍ مأجورين، وألفى زوجته وولَديه معرّضين للخطر. كانت ديونه طائلةً، فكيفَ آلت حاله إلى هذا المصير؟ ضربٌ من التخلّي، من الجنون، من اللعنة. كان إدمان المقامرة بالنسبة إليه أشبه بإدمان الكحول بالنسبة لآخرين؛ هبوطاً متدرّجاً إلى الجحيم. زوجته لم تعلم بالأمر، وهو لم يُصارحها يوماً بالحقيقة. جلّ ما في الأمر أنّه كان يختفي

بين الفينة والفينة متذرعاً باجتماعات طارئة في الجامعة، أو بلقاء رفاق الصبا، وأنّه لن يعود إلى المنزل إلاّ في ساعةٍ متأخّرة. منفاه في أسبانيا كان قصاصاً له بالتأكيد، لكنّه رأى فيه فرصةً للتخلّص من إدمان المقامرة. قبل رحيله قال لزوجته إنّ جامعة أوفدته لبضعة شهور إلى أوروبا من دون تفاصيل أخرى. قبّل وَلَدَيْه المستغرقَين في نومهما، وحمل حقيبته مغادراً والغصّة تعصر قلبه.

هكذا استقرّ به الأمر أخيراً في أسبانيا عقبَ إقامة قصيرة في فرنسا وبعض العقبات.

36

عازل

مَن هو المقيمُ بصفةٍ غير شرعيّة؟ إنّه الأجنبيّ الذي لا يملك أوراقاً ثبوتية. وافدٌ خلسةً أتلفَ كلّ ما يدلّ على هويّته لكي يصبح من المستحيل على السلطات أن تعيده إلى بلاده، غير أنّه قد يكون أجنبياً دخلَ البلاد شرعياً وما عاد يملك رخصة عملٍ أو وثيقة إقامة وبالتالي فقد أيّ مبرّر شرعيّ لوجودِه فيها.

كان عازل من الفئة الثانية. فالمطلوب لكي يجدّد وثيقة إقامته التي انتهت صلاحيتها قبل بضعة أشهر، أن يكون لديه عمل بموجب عقد يحمل توقيع المُستَخدِم وعنوان سكن موثّق في فاتورة ماء أو كهرباء أو هاتف ثابت. وهذه جميعها غير متوفّرة له الآن. كان يعلم أنّه انتقل إلى صفة المقيم بصفةٍ غير شرعية، إلى ذاك الهامش الذي يجوبه المهرّبون وغيرهم من ذوي الأعمال الملتبسة المستعدين لاستخدامك في أي وقت من الأوقات لتنفيذ بعض أعمالهم المشبوهة. كان يُدركُ ذلك غير أنّ الأمر لا يقلقه إطلاقاً. فهو مؤمن بالمكتوب المقدَّر وأنّه مكتوب له أن يسلك هذا السبيل ولا قِبَلَ له بتغيير شيء منه. ولذلك

قطع صلاته بالجميع، حتّى كنزة. كان مستسلماً لمصيره كمن يكفّر عن خطيئةٍ مميتة ارتكبها ذات يوم. إذ لم يعد لديه من يكلّمه، مَن يُسرّ إليه بمكنون صدرِه. لم يعد لحياته معنى. كان يقضي معظم أوقاته برفقة عبّاس الذي يزوّده بساعات يد من ماركات مزيّفة لكي يبيعها، وأحياناً ببعض علب الثقاب المحشوّة بأصابع الحشيش. ويحدث له بين الفينة والفينة إذا صادف امرأةً جميلة أن يشعر بأنّه استعاد رجولةَ الزمان الماضي فيُهرَعُ إلى أقرب مقهى لكي يستمني في مرحاضه. ذات يوم باع عازل ساعة يد كارتييه مزيّفة من عابر سبيل شكره بالعربيّة. وبعد هنيهات عاد الرجلُ أدراجه وسأله إذا كان لديه متسع من الوقت لاحتساء فنجان قهوة بصحبته. إني غريب عن هذه المدينة، قالَ مفسّراً، مجرّد زائر. فهلاّ أرشدتني إلى مسجد في هذه النواحي لأداء صلاة العشاء؟ أريد أن أصلّي وإن لم أفعل فسوف أشعرُ بأنني تعِسٌ حقاً.

لم يكن عازل يعلم بوجود مسجد في تلك الناحية. أنتَ لا تصلّي إذاً؟ سأل الرجل. فأجاب عازل مغمغماً بأنّه ليس من عشّاق الصلاة. إنّه لأمر مؤسف حقاً يا أخي ألا تخاطب ربّك ولو مرّة واحدة في اليوم. ألا تعلم أنّ باستطاعتك أداء الصلوات اليومية الخمس مجتمعةً عند صلاة العِشاء وأنتَ مطمئن البال؟

أدرك عازل على الفور أنّ الرجل داعية فهو يستخدم الأساليب والمواعظ إيّاها التي سبق أن استخدمها معه الداعية الإسلامي في طنجة. راح يستمع إليه مُستَرسِلاً في كلامه من دون أن يتخيّله في مواقف عجيبة مضحكة كما كانت حاله مع

داعية طنجة. في المرّة الأولى كان لا يزال يمتلك القوّة التي تحصّنه من هذا الخطاب السياسي الهادف إلى تجنيده. أمّا اليوم فقد غلبه التعب وكان يأمل في الإفادة، بطريقةٍ أو بأخرى، مما سيقترحه عليه الداعية حتماً.

- أنت تعي جيداً يا أخي أننا هنا في بلاد أجدادنا، أولاء الذين طردتهم إيزابيلا الكاثوليكية بعد أن نصبت المحارق التي قضى فيها رجالٌ أتقياء، مسلمون، نحن ذريّتهم. لقد أمرت بهدمِ أماكن العبادة، وأرغمت مَن لم يستطع الفرار على اعتناق الكاثوليكية، وحظرت الكتابة بالعربيّة وارتداء الملابس التقليدية. حدث هذا من زمنٍ بعيد، قبل خمسمائة عام، لكنّ الحرقة ما زالت هنا، في قلوبنا، في قلب كلّ مسلم، وكلّ عربي. لقد طُرِدَ الإسلام من هذه البلاد وواجبنا يقضي بأن نعيده إليها، وبأن نفرض احترامَه مجدداً. كفانا ما شهدناه وما نشهده من المهانات، من هذه المذلّة التي يفرضها علينا الغربُ المسيحي. أنظر كيف يُعامَل إخواننا الفلسطينيون، وكيف تدعم أميركا سياسة إسرائيل، أنظر كيف يُعامَل المواطنون في بلادنا. يجب أن نفعل شيئاً، أن نتحرّك، أن ننشر كلمة الإسلام ونُسمع صوت المسلمين. ولكن قل لي، أنت متعلّم أليس كذلك؟ لستَ أميّاً كمعظم إخوانك؟

- أجل، أنا خرّيج كليّة الحقوق في الرباط.

- كنت واثقاً من ذلك. أدركتُ منذ الوهلة الأولى أنني إزاء رجل مثقّف وراشد. أودّ أن أدعوك للانضمام إلينا لأداء صلاة العشاء. ليس اليوم، طبعاً، ولكن إذا رغبت ذات يوم في لقاء

أبناء بلدك ممن ليسوا مهرّبين ولا من حثالة المجتمع، فتعالَ واشهد على ما نبنيه، على ما نعدّه لمستقبل بلدنا.

وإذ أدرك عازل أنّه يستمع إلى كذّاب، سأله:

- هل أنت مغربي؟

- بقدر ما أنت مغربي.

- إذاً لِمَ تتحدّث بلهجة شرق أوسطية؟ من يسمعك يحسبُ أنّه إزاء داعية من أولئك الدّعاة الذين يُكثرون من المواعظ الحسنة على شاشات التلفزة في الخليج.

- هذا فقط لأنني تخرّجت من جامعة تدرِّس الوهّابية في جدّة.

- وهّابي... أنت وهّابي؟

- لنلتقِ مرّة ثانية لكي أشرح لك عقيدة مرشدنا الإمام محمد عبد الوهاب الذي عاش في القرن الثامن عشر.

- أعلم ما هي ولا أحتاج إلى شرحٍ مطوّل، إنّها المذهب الذي يدعو إلى ستر المرأة، محتجبةً منَ الرأس حتّى القدمين، وتطبيق الشريعة بدل الحقوق والقوانين المدنية... ويدعو إلى قطع يد السارق، ورَجم الزانية...

- كلّ هذا من قَبيل الدعاوى المغرضة. لنلتق الأسبوع المقبل في الساعة نفسها والمقهى نفسه. هذا كَرْتي وعليه رقم هاتفي النقال. اتصل متى شئت إلاّ في مواقيت الصلاة طبعاً. ونسيتُ أن أقول لك إنّني، لمحاسن الصدف، أدعى عبد الوهاب!

لم يفاجأ عازل. ألقى نظرة متمعّنةً على الكَرْت، فقرأ مرّة واثنتين ما كتبَ فيه: أحمد عبد الوهاب؛ استيراد/ تصدير؛ برشلونة - مدريد - طنجة؛ هاتف: 3460689205. في تلك الليلة تمكّن من بيع كلّ الكميّة التي زوده بها عبّاس من ساعات اليد.

كان عازل يهمّ بمغادرة المقهى حين نشب شجار بين مُهاجِرَيْن. تدخّلت الشرطة بسرعة غير معهودة وأوقفت جميع الحاضرين. تدقيق في الهويّات! صاح أحد رجال الشرطة. أوراق ثبوتية، جواز سفر، بطاقة إقامة، بطاقة بطالة، أريد أن أرى كلّ ما تحملونه من أوراق، ومن لا يملك أوراقاً فليقف لجهة اليمين، أمّا الواثق من شرعية إقامته فليقف لجهة اليسار! وليغادر الأسبان المكان! مشكلتنا هنا مع **المورُوس**.

تردّد عازل قليلاً ثمّ انضمّ إلى من وقفوا لجهة اليسار. إنه يحمل جواز سفره ولكن جميع أوراقه الأخرى منتهية الصلاحية. لاحظ أن الشرطة أطلقت سراح مغربيين من دون تدقيق في أوراقهما. كانا مُخبرِيْن والأرجح أنّهما اللذان أبلغا الشرطة بما جرى.

اقتيد عازل إلى المخفر وفكّر في الاتصال بميكال، غير أنّه لم يتجرّأ على توريطه في هذه القضية. مكتوب له أن يكون في المقهى في تلك الساعة وأن يتمّ توقيفه. هذا أمر مؤكّد. غير أن الأمر الوحيد الذي يقلقه هو أنّه لا يُريد أن يُطرَد إلى المغرب. قد يتحمّل أي شيء إلاّ **الحشومة**، إلاّ **الحقرة**، أي شيء إلاّ هذا، حتّى السجن يتحمّله، ولكن لن يتحمّل إطلاقاً أن يتلقّى

الركلة على مؤخرته فتقذف به في ثوانٍ معدودة إلى أعالي جبل طنجة القديم. لقد رحل عنها. رحل عنها كيلا يعود إليها إلاّ كأمير، وليس كحثالةٍ لفظها الأسبان. عثرت الشرطة بحوزته على علبتي ثقاب مليئتين بالحشيش؛ الأمر الذي فاقم من وضعه.

- وضعك ليس قانونياً وتتاجر بالحشيش أيضاً!

أمضى ليلته في المخفر، نام على مدّ خشبيّ بجوار متشرّد من أميركا الجنوبية تفوح منه الروائح الكريهة. لم يغمض له جفنٌ. كان يفكّر في أمّه، يدعوها ولا تسمعه. يعلم أنها لا تستطيع سماعه. يراها جالسةً على سطيحة منزلهم؛ عيناها شاخصتان إلى البحر حالمةً باليوم الذي ستنضمّ فيه إلى ولديها، لقد نالت من مواجع الحياة وشجونها ما يكفي لكي تمضي أيّامها المتبقيّة في بلدٍ سعيدٍ محاطة بولدَيْها اللذين حقّقا نجاحاً فيه. لكلّ حلمه. حلم عازل تناثرَ كسوراً. وهمّه الآن أن يجد مخرجاً ما، أن يُقنع الشرطة بحسن نواياه. لن يكون يسيراً عليه إدعاء البراءة بعد أن عثروا في جيوبه على خمسين غراماً من الحشيش. لذا من المستحسن أن يتكلّم بصراحة. عند الصباح طلب مقابلة أحد مسؤولي المخفر، ضابط يستطيع أن يفاوضه.

- تفاوضه! تفاوضه! أين تحسب نفسك، لستَ سوى تاجر مخدّرات وبضائع مهرّبة وضيع، وتريد أن تفاوض، مَن تحسب نفسَك أيها الحقير؟

أخيراً جاء الضابطُ وكان يتكلّم العربية.

- السلام عليكم! اسمي خايمه، أتكلّم العربيّة وأعرفُ المغرب. ماذا تريد يا عز العرب؟

- من الممكن أن أعاونكم.

كفّ خايمه عن التكلّم بالعربية وراح يكلّمه بالفرنسيّة والأسبانية.

- تعاوننا؟ أتريد أن تعمل مخبراً لحسابنا؟

- بل الأحرى أن أزوّدكم بمعلومات حول بعض البؤر الإسلامية المتشدّدة.

نهض خايمه واتصل هاتفياً ثمّ سرعان ما انضم إليه ضابط بدا أنّه أعلى منه رتبة.

- وهل تحسب أن المرء يصبح مخبراً على الفور، من دون مقدّمات؟ الأمر يحتاج إلى بعض الوقت، وإلى الثقة، وإلى أدلّة واختبارات. . .

بمضي ساعة من الزمن شعر عازل خلالها أنّ الأجواء تغيّرت بعض الشيء، انضم إليهم ضابط آخر:

- ما هي الأدلّة التي قد تزوّدنا بها لكي نمحضك ثقتنا؟

أخرج عازل من جيبه كَرْت عبد الوهاب وأعطاه إيّاه.

- لقد حاول هذا الرجل إقناعي بالانضمام إلى حركةٍ من المتدينين المسلمين، أشبه بأخوية إسلامية في أسبانيا. إنّه يدعو إلى الثأر، وحدّثني طويلاً عن إيزابيلا الكاثوليكية، وعن الأندلس، وعودة الإسلام إلى أرض المسيحيين الكفّار. . .

سوف ألتقيه ثانيةً في الأسبوع المقبل. جلّ ما أطلبه هو أن تعطوني فرصة.

هكذا أضحى عازل مخبراً للشرطة الأسبانية. نجا بحياتِه ولكن باع روحه. ربّما اعتبر أنها قضيّة عادلة. غير أنّ الحقيقة هي أنّه لم يكن يُبالي بصلاح السبيل الذي سلكه أو عدم صلاحه. يأسه عوّده على الشدّة. في اليوم التالي شعر بتوعّك. تنمّل يسري في أنحاء جسمه. كأنّها حشرات ضئيلة تدبّ في أوصاله، تأكله من الداخل ولا قدرة له على مقاومتها، لا يشعر بألم وإنّما رِجله اليمنى تنفصل عن ساقه وقد حملها صفّ طويل من النمل الأسود، فيما جمهرةٌ من السرعوفيّات تودي برِجله الأخرى. كم كان يودّ أن تحمل جسمَه كلّه، أجزاءً، وتستبدله بجسمٍ آخر، لعلّه يستردّ رجولته وطعمَ الملذّات الغابرة. لم يتغيّر ملمحٌ من ملامح وجهه. ولمّا همّ بالنهوض لكي ينظر في المرآة ألفى نفسَه عاجزاً عن الحركة. شيء ما يُقعده. قوة خارجة عن إرادته هائلةٌ تسمّره سوية الأرض. حسناء مغربيّة تمد له يدها ممسكة بمرآة، مُسربلةً بغلالة زرقاء شفّافة. كانت تدعوه للانضمام إليها، تتبسّم، ترقص. لبث عازل متفرّجاً، لا يحرّك ساكناً. وكانت تلك هي المرّة الأولى التي يشعر فيها بقدر مماثل من التبدّل في مدركاته. فكّر في كافكا و«**مَسْخ الكائن**». لم يقرأ الرواية غير انّه يذكر جيّداً ذلك الدرس المذهل الذي ألقاه عليهم أستاذ الفلسفة حول هذا الموضوع. سوف أتحوّل، سوف أغدو شخصاً آخر، وهذا أمرٌ جيّد في آخر المطاف، أنتقل من شخصيّة إلى أخرى، أضيف عليها شيئاً من الخيانة،

وشيئاً من الوشاية، حتّى لو كان ذلك في سبيل قضيّة عادلة، ولكن أي قضيّة هذه؟ إنّه لمن المقزّز أن يكون المرء مخبراً للشرطة.

كان يلزمه بعض الوقت لكي يألف مهامه الجديدة. حتّى أنّه لم يشعر بوخز الضمير. رحل كيلا يعود. رحل إلى الأبد. رحل كي يموت. كان عازماً على زيارة مقبرة المدينة. إذا متّ ادفنوني هنا، في هذا البلد الذي طالما حلمتُ به. لا أريد أن أُدفن تحت تراب مقبرة مرشان، فهي مقبرةٌ أَلِفتُها، موتاها جيراننا، وزوارها أقرباؤنا. أن أموت، سيّان عندي. . .

ذات صباح استيقظ من نومه وفي نفسه توقٌ إلى صنيع صالح. قصد مركز البريد وأرسل حوالة برقية إلى أمّه. ثمّ اتصل بها هاتفياً وأخبرها أنّه حصل على عمل جديد، وأن ميكال سافر إلى أميركا حيث سيمكث فترة طويلة، وأنّه على خير ما يُرام وسوف يزورها عمّا قريب في طنجة.

في ختام هذه المخابرة بادرت أمّه إلى القولِ بنبرة عاطفيّة مؤثِرة: الحقيقة يا بُنيّ أنني لا أدري كم سيمد الله في عمري، ولذلك فإنّ همّي الأوّل والأوحد هو أن أراك متزوجاً، أن أرى أولادك لاهينَ صاخبين من حولي؛ لا أريد أن أموت قبل أن أشهد في حياتي مثل هذه اللحظات الجميلة. . . ابنة عمّك الجميلة، صباح، تنتظر عودتك، لقد رفضت الزواج مؤخراً من رجل واسع الثراء واعد، صباح تفكّر فيك، وهذا ما أكدّته لي أمّها البارحة، عُد، وتزوّج وانجب لي أحفاداً؛ فليمد الله في عمري لكي أشهد هذه الساعة، ولأمُت في حياتك.

لم يجب عازل إلاّ بالعبارات التقليدية المعتادة: ليحفظك الله في كامل عافيتك، وليكن دعاؤك حِمايَ.

حِماهُ؟ لم يكن يشعر بأنّه محميّ على الإطلاق. ولا يدري ما الذي أفضى به إلى مُعترك هذا الكمّ من النزاعات النفسيّة؟ يرى نفسَه أمام مفترق طرق، عاجزاً عن العبور. أرتال من السيّارات المسرعة في كلّ اتجاه تجعلُ منه دميةً متحرّكةً بلا رأس. كيف يتصالح مع نفسِه بعد ما عاناه ويعانيه منذ نحو الشهر؟ ما سبيله إلى الدَّعة؟ شخصٌ ما في داخلشه يحثّه على إفساد حياته.

ممسوس. كانت أمّه لتصفه بالممسوس. سحروك. طاردوك. عين الحسود، الحقد، الغيرة. هذا هو يا بُني سبب كلّ ما تعانيه. أنت غافل عن سوء النيّة المتأصّل في نفوس الناس، وفي الحياة، إذا حُبِيْتَ بما يميّزك عن سائرهم يسعون وراء أذيّتك، أنت وسيم، وذكي، وناجح - على الأقلّ نجحت في الرحيل عن البلد وفي عملك في أسبانيا -، لذلك تثير من حولك الضغائنَ المفترسة، والغيرة المريعة، نحن جميعاً تلاحقنا عين الحسود، أعلم، أنكم شباب اليوم لا تؤمنون بأمور مماثلة، لا تؤمنون باللامة، وتقيسون كلّ الأمور بالمنطق، ولا تصدّقون إلاّ ما رأت عيناكم، ولكن الحكمة تقضي بأن يرى المرءُ المستَتِر، حتّى نبيّنا، سيّدنا محمّد، أقرّ بوجود عين الحسود. والحسد قد يجلب الكثير من الويلات، أنظر مثلاً ما جرى للمسكينة حنان، إنّها فتاة جميلة، متعلّمة، ومن أسرة كريمة، وكانت على وشك الزواج من مهندس، شابٍ من أسرة عريقة،

وكانت جميع ترتيبات الزفاف قد أعدّت، وحتّى بطاقات الدعوة طبعت، ولكن هل تعلم ماذا جرى؟ لا، لم تمت، أصابها ما هو أسوأ من الموت، هجرها خطيبها وفضّل أن يتزوّج عمّتها!

أعرف جيّداً ما هي العين الشرّيرة. يا بُني، لا تُهمِل تلاوة القرآن، حماكَ الله، واعلم أنني من حيث أقيم، بعيداً منكما، لا أكف عن الدعاء لكما أنت وأختك.

37

كنزة

فور تلقيه اتصالاً من قسم الطوارئ في الصليب الأحمر، خرج ميكال من عزلته المُختارة وجاء للسهر على زوجته المريضة إثرَ محاولتها الانتحار. كان شحوبُ كنزة مثيراً للقلق، بعينيها الكابيتين ونظراتها الساهية. صدمة عاطفية. خيبة أمل قاسية. فجأة فقدت الرغبة في الحياة. ولَبِثت على صمتها لا تجيبُ عن أسئلة ميكال الكثيرة. لا بدّ من أن الصدمة جعلتها عاجزة عن الكلام، وأن أمراً خطيراً قد حدث، قال في سرّه. فتّش ميكال محتويات حقيبة يدها فعثر على كتاب موسومٍ بـ«لوحاتٌ بشريّة»، وهو مجموعة قصائد لناظم حكمت. وبين صفحاته دسّت صورة فوتوغرافية. صورة لها بجنبِ رجل وسيم الطلعة ذي شاربين كثّين، طويل القامة، بالغ السمرة، محبّب المظهر. وخلفهما تبدو بوضوح لافتة مطعم يُسمّى «كباب». قال ميكال في سرّه أن كنزة قد تستعيد قدرتها على الكلام إذا التقت مجدداً الرجل البادي في الصورة. وافقه الطبيب وحثّه على الذهاب بحثاً عنه. استغرقه العثور على عنوان المطعم

الشرقي بعض الوقت. كان أشبه بمقصفٍ للطلاب والعاملين بين مصبغة ومحلّ لبيع الهواتف النقّالة. الطاولات مكسوة بأغطية من البلاستيك، والكراسي متسخة. وراء المشرب، رجل عجوز يُغالب النعاس. عندما لمح ميكال مقبلاً بمعطفِه الباذخ، أجفل كأنّه بوغتَ بزيارة الملك شخصياً. على الجدارِ في مؤخّر المحلّ صورة لمغنّ أو ممثّل. أمعن ميكال النظر فيها واقترب من الملصق ظنّاً منه أنّ الرجلَ هو نفسه الذي ظهر في الصورة بجنب كنزة.

تبسّم العجوز ثمّ خاطب ميكال قائلاً:

- آه، أنت أيضاً من المعجبين بنجمنا الوطني! إنّه معشوق النساء. ومغنّ رائع.

- أين يقيم؟

- إنّه ممّن يملكون قصوراً أينما حلّوا. يحظى بإعجاب الناس جميعاً، ومهما تبدّلت الحكومات، يمينية أو يسارية، عسكرية أو مدنية، إسلامية أو علمانية، الجميع يحبّونه ويصفّقون له.

- أليس مقيماً في أسبانيا؟

- كلاّ، زارها في السنة المنصرمة للمشاركة في برنامج تلفزيوني. وبفضل توريا، نادلتنا الجميلة، تشرّفنا باستقباله ههنا. حتّى أنّه أتحفنا بإحدى أغانية من دون مصاحبة موسيقية نزولاً عند طلب الزبائن وكانوا نحو ثلاثين من المواطنين الأتراك الذي ألحّوا عليه كثيراً.

- من هو؟

- يُدعى ابراهيم تطليسيس، أي «صاحب الصوت العذب»! يتحدّر من بلدة أرفه، الواقعة في جنوب شرق الأناضول، على مقربة من الحدود السورية. زير نساء. عندما يمرّ بمدينة يحاول الرجال أن يخفوا زوجاتهم عنه. توريا تبكي كلّما استمعت إلى غنائه.

طلب إليه ميكال أن يمعن النظر في الصورة التي يحملها معه.

- هل تعرف هذه المرأة الشابة؟

- هي لا أعرفها، ولكني أعرف الرجل، لقد عمل هنا بضعة أشهر؛ كان شخصاً كتوماً. لا أدري أين اختفى فجأة. لم ألحظ منه يوماً ما يثير الريبة. هل أتى بسوء؟ بلى بلى، إنّه يشبه ابراهيم حقاً، ولكنه ليس هو بالطبع!

غمغم ميكال بضع كلمات تعبيراً عن امتنانه، وغادر هذا المحلّ المعتم القذر مُسرعاً. فجأة أدركَ أن كنزة عاشقة للحب. أرادت رجلاً في حياتها وحسبت أنّها وجدته في شخص ناظم.

كيف استطاعت هذه الفتاة الرصينة، المتزنة في الظاهر، التي حصلت على شهادة اختصاص في التمريض إلى جانب استمرارها في العمل، أن تقنع نفسَها بأنّ هذا الرجل الذي تكاد ألاّ تعرف عنه شيئاً مستعدّ لأن يُنشئ أسرةً معها؟ شعر ميكال مرّة أخرى بأنّه يتحمّل بعض المسؤولية فيما آلت إليه الأمور،

وخاصة هذه السقطة التي تعاني منها كنزة. كان حرياً بي، قال في سرّه، أن أرعاها باستمرار، ألاّ أغفل هنيهةً عمّا تفعل، أن أعرّفها بأناس، وحتّى برجال، كان من شأنهم أن يمنحوها السعادة. والواضح أن ناظم المغوي والكتوم هذا إنّما كان يأمل في الحصول على إقامة شرعيّة بواسطتها، وحتّى الحصول على الجنسيّة الأسبانية. لم تفكّر في هذا الاحتمال، أو الأحرى رفضت أن تصدّق بأنه احتمال وارد. قرّرت، رغم معارضة الجميع، أنه سيكون زوجها وستنجب منه أولاداً. مع أنهما لم يتطرّقا إلى مثل هذا الاحتمال سوى مرّة واحدة، وأبدى ناظم خلالها تردّداً متفادياً أي إجابة حاسمة. أمّا كنزة فكانت تطرّقت إلى الأمر في أحاديثها مع أمّها التي طالما حثّتها على الزواج. واسبشرت خيراً بقصّتها مع ناظم لاقتناعها بأن كنزة وجدت أخيراً الزوج الذي يليق بها. والحقيقة أن ما أقدمت عليه كنزة في خضمّ كل هذا لا يتعدّى التخطيط في قرارة نفسِها لما يُلبّي جميع تطلعاتها: أن تتزوج، أن تكون كسواها من الفتيات، وأن تنجب في سنّ مبكرة قبل أن تعود إلى البلد مرفوعة الرأس إرضاءً لأمّها. شاءت الصدف أن يظهر ناظم في غمرة هذا المخطّط فاختارته كنزة لأداء الشخصيّة الرئيسيّة في قصّتها. ولم يكن شيء من هذا كلّه في بالِ ناظم. حتّى انهار كلّ شيء في نظر كنزة. وجاءت السقطة قاسية جداً.

كان لا بدّ من العمل على إنقاذها، وإعادتها إلى أرض الواقع، وإقناعها بالخضوع لعلاج نفسيّ. يجب أن تنسى هذا

الرجل، وأن تتقبّل ربّما احتمال عودتها النهائية إلى المغرب. أدرك ميكال فجأة ذلك الجانب المخيف المُلابس لعزلة الهجرة، أشبه بالسقوط في هاوية، أشبه بالسير في نفق ظلماتٍ يشوّه أوجه الواقع. كنزة أوقعت نفسَها في خضمّ دوّامة طاحنة. عازل من جهته، ضلّ السبيل وانتهى الأمر. كان المنفى هو الكاشف الفعلي لتعقيدات الشقاء. تذكّر ميكال كم أعانته فترة العلاج النفسي الطويلة في التغلّب على هذا الجانب من جوانب حياته، ويمكن القول حتّى إنّها أنقذته. ولكن كنزة، شأن عازل، لم تكن مهيّأة في وضعها الحالي لأن تستلقي على أريكة المعالج وأن تتحدّث عن نفسِها. هناك عائق الثقافة والتقاليد، وعائق المال أيضاً. ففي نظر هؤلاء وحدهم المجانين يقصدون المعالج النفسيّ.

أدرك ميكال فجأةً كم أصبحت عودة عازل وكنزة إلى المغرب مسألةً ملحّة. فعودتهما هي الشيء الوحيد الذي قد يتيح لهما السيطرة مجدداً على نفسيهما والشفاء مما يعانيان منه. عاود الاتصال بخوان، موظّف الأمن العام، الذي كان ساعده في السابق في إنجاز معاملات عازل القانونية. لكن اتصاله به هذه المرّة يرمي إلى مساعدته في القبض على عازل وطرده إلى المغرب. أمّا بشأن كنزة فسوف يعمل على إقناعها، مهما استغرقه ذلك من وقت وجهد، بأن تبني لها حياةً جديدة في مسقط رأسها. بعد عمليات بحث وتحرّ، أخطر خوان ميكال بأنّ محظيّه بات محظيّ طرف آخر؛ فهو يعمل حالياً في مدريد كمخبر لشرطة مكافحة الإرهاب. وليس على ميكال بعد اليوم أن

يخشى عليه من أي سوء. وعلى الرغم من أنّه ما عاد يكنّ له أي عاطفةٍ، فإنّه لم يتلقّ الصدمة بسهولة. علاقتهما إذاً كانت إخفاقاً على الأوجه كافّة. غير أنّه الآن يُدرك الحقيقة التي طالما غفل عنها: وهو أنّ القَدَر يغلُبُ ولا يُغلَب.

38

عازل

كان باستطاعة عازل أن يضع خاتمةً مختلفةً لقصّته، غير أنّ حنينه إلى البلاد حفرَ في أعماقه جرحاً غائراً. كان يشعر بالخزي، وكان صافيَ الذهن. كم أخجل لأنني اخفقت في كلّ شيء، كم أخجل لأنني أمسكت باليد التي امتدّت لي من سريرٍ كانت ملاءاته الحريريّة تبرقُ في عينيّ كبريق الخطيئة، أردت أن أقنع نفسي بأنّني أملك من الفحولة ما يكفي لإشباع رغبات النساء والرجال جميعاً، فأي ادّعاء باطل، وأي جنون، كم أنني نادم اليوم لأنني تبعتُ ميكال، هذا الرجل الطيّب الكريم، لم أعرف يوماً أن أرتقي إلى مستواه، في البداية كنت أقول في سرّي أنّها تجربة كسواها، حتّى أنني استذكرتُ تلك المداعبات مع مهدي، ابن عمّي الذي كان يهوى أن تُداعَبَ إليَتاه، ولكن مع الوقت أدركتُ أنني لا أستطيع أن أستمرّ في الكذب زمناً طويلاً، كذبتُ، كنتُ أداعبُ عضوي في العتم قبل أن أضاجع ميكال، وكنت أفعل أموراً كثيرة من دون استمتاع، من دون بهجة، وكان يحدث لي أن أضحك من نفسي، وخاصّةً عندما

أجدني فوقه، ألكزه بقوّة من الخلف، وكان الأمر يستهويه، فاستغلّه، كنت أسعى وراء المال وكان يعطيني الكثير، عددتُ نفسي مومساً، جيغولو منزلياً، وحظيتُ بكل ما اشتهيتُ، بعد ذلك كنت أشعر بضيقٍ من نفسي، أشعر بأنني مذنب، مستغلّ، غير صادق، فأستفزّه لأثير حنقَه، لكي يفك ارتباطه بي، كنت أبذل جهداً في إغضابه، وأنال مبتغاي وعندها كانت كارمن العجوز تتدخّل وتنعتني بأقذع الصفات، لم تترك شتيمة إلاّ وكالتها لي، تُدرِكُ حيلتي، فتصيح بي، وخاصة في غيابه، تنعتني بالمورو ابن الشارع، وذات يوم نعتتني بابن الغانية، راح الدم يغلي في عروقي وعاجلتها بصفعتين لن تنسى مذاقهما أبداً، كيف تجرؤ على التطاول على أمّي، كيف تجيز لنفسها أن تشتمها، أمّي المسكينة التي طالما ضحّت لأجل ولديها، التي خاطرت حتّى بمزاولة التهريب في سبيل ذلك، تنعتها بالغانية، ما كنتُ لأتوانى عن خنقها بيديّ هاتين، كارمن اللعينة تلك، بعد ذلك أدركتُ أنّه لا مفرّ من الرحيل، غادرتُ ولكن بأسلوبٍ دنيء، سرقت، مزّقت شراشف الحرير، وبِلتُ على خفّي ميكال المشغولين شُغلَ اليد، وحطّمتُ مزهريّة كريستال، أطلقت العنان لسورة غضبي، أردت أن آتي بمومس، مومس حقيقية، سوقية، ممكيَجة بإسراف، ومعطّرة بإسراف، لكي أضاجعها على سرير ميكال، لكني لم أستطع، غادرتُ مُطرقاً، مُطأطئاً، لأن العجوز غلبتني، أردت أن أصيح بأعلى صوتي أن أفضح جميع هؤلاء الأوروبيين الموسِرين الذين يجرون مساوماتهم الوضيعة في

الأحياء الفقيرة من طنجة ومراكش والصويرة، وأذكر الـ«كروفات»، إنه الغلام المراهق اليافع بعدُ الذي يدفع له المثليّ الأوروبي شروى سندويش لقاء خدماته، أجل، يُضاجِع أو يُضاجَع ولا يدفع للغلمان أجراً منصفاً. كنت أكافحُ كالموتور، سعياً وراء الرزق، لكي أدلّل أمّي التي ذاقت الأمرّين لتوفير العيش الكريم لنا، كم عملت طبّاخة في منازل الأغنياء في المناسبات والأفراح، تغادر المنزل في ساعة مبكرة ولا تعود إليه إلاّ في ساعة متأخرة من الليل وفي جعبتها بعض النقود والطعام، فضلات الوليمة، تضعها في أكياس من البلاستيك، قطع لحم ممزوجة بقليل من المَرَق؛ وتسارع إلى تسخين الخليط قائلة هيّا كلوا، أمكما هي التي طبخت، كلوا حتّى الشبع، بانتظار أيام أفضل، وتخاطبني، أنا، قائلة، عندما تكبر ستصبح طبيباً أو مهندساً، وسوف تسفّرني، أولاً إلى مكّة، ثمّ إلى القاهرة، كم أودّ أن أزور بلد فريد الأطرش وأم كلثوم، سوف تشتري لي أثواب الحرير والحليّ، وسأحيا حياة جديدة، حياة ملكة، ملكة متواضعة، بلا تاج، بلا ملك، أنت أميري، وسوف تبقى أميري، لذا اجتهد في المدرسة، واحصل على علامات ممتازة، كن ولداً بارّاً، وسوف تنال بركة دعائي إلى أبد الآبدين. نظراً لما آلت إليه حالي يصعب القول إنّي حقّقت أحلامها. فصورة المومس هذه لصيقة بجلدي. جميع رفاق مقهى الحافّة يعلمون أنني رحلتُ برفقة النصرانيّ بدافع المصلحة البحتة، وأن عضوي لطالما اشتهى فروج النساء، وأنني لستُ،

بحسب قولهم، ما أبدو عليه في الظاهر، وأنني، في سبيل الخروج من المغرب، مستعدّ لأن أفعل أي شيء، حتّى أن بعضهم كان يحسدني ويتمنّى أن يلتقي أحداً يصحبه معه إلى الخارج ولو في حقيبة من حقائبه، بعضهم يسعى وراء النساء، وإذا عزّ وجودهنّ، يسعى وراء الرجال، هذا ليس بخافٍ على أحد، الناس يتندّرون بهذا الأمر على المقاهي، طار صيتنا في النواحي، صيتٌ سيئ، حتّى أن بعض بوابي الفنادق والجالسين على الشرفات كانوا يحرصون على تنبيه الرفاق إذا لمحوا من يظنون أنّه فريسة سهلة المنال، وفي الأغلب تكون الفريسة امرأة في سنّ متقدّمة بعض الشيء، والأفضل أن تكون ثرية، بمفردها أو برفقة صديقة، وفي الأغلب أرملة أو مطلقة، وأحياناً، على الرغم من ندرة هذه الحالات، تكون فتية بعدُ، متحرّرة، مُقبلة على مغامرة الحبّ الكبير، حالمة بالشرق والحريم والمفاهيم السائرة الجميلة، في البداية يكون كلّ شيء جميلاً، كل شيء رائعاً، والجنسُ على أحسن ما يُرام، ويبدأ رسم خطط المستقبل، فالمرأة تعمي بصيرتها اللذةُ التي يوفّرها لها الشاب، وهي مستعدّة لبذل كل شيء في سبيله، فلا تعود راغبة في مغادرة المغرب إلاّ برفقة عشيقها المغربي، وإذا عادت إلى مسقط رأسها هولندا أو إحدى المدن الأميركية، بذلت المستحيل لكي يلحق بها، ولا تكتشف الخدعة إلاّ بعد فوات الأوان، وتتعاقب خيبات الأمل والكراهية والانهيارات العصبيّة والنفور من كلّ ما يمتّ للعرب بصلة. كلّ هذا بات من

الماضي، ولا معنى له اليوم، فقدتُ القدرة على الانتصاب، عوقِبتُ، عاقبتُ نفسي حين اقتنعتُ بأنني ما عدتُ أستحق الخوضَ في علاقات جنسيّة، هذا ما جرى، خصاء ذاتي، وهذا ما يعذّبني، أنتحي زاوية وأبكي، حتّى أنني لا أمسح دموعي، أبكي بلدي وما لم يعرف أو يقدر أن يمنحنا إيّاه، أبكي جميع الشبان المتسكّعين في الشوارع بحثاً عن يدٍ ممدودة، أبكي عائلتي التي سيخيب أملها، والتي ستحتاج إلى مَن يُعزّيها، ولكن تُرى مَن سيعزّيني أنا؟ من سيمسك بيديّ ويضعني مجدداً على مسار حياتي؟ رَمَقي، حياتي، أنفاسي متوقّفة، معلّقة، ولا أحد يُبالي، أتطلّع إلى العابرين وأحسدهم، أتخيّل حياتهم، ضحكهم الذي من القلب، خططهم للمستقبل، تنفّسهم الصعداء، وضعهم الحجر على الحجر مشيّدين منازل متماسكة تماسك الحجر، أتخيّل رغباتهم التي ينشدون تحقيقها على آخرها. أنا هنا، وأحاول أن أكون مفيداً، أن أكون شخصاً آخر، رجلاً بحق، لا كذاباً، لا سارقاً ولا متظاهراً، ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ أحتاج إلى المساعدة، لعلّ فترة نقاهة ونومٍ متواصلٍ تسعفني، ولكن ليس من حقّي أنّ أتغيّب، أن ألعبَ دورَ النعامة، فقط أمنيتي هي أن أتمكّن من نسيان فترة رحيلي عن المغرب، فقط أن أكفّ عن التفكير فيها، لعلّ هذا هو المطلوب، فهذه الذكرى ليست انعكاساً لأي فعل... عبثاً أحاول، لا أجد شيئاً، منسيةً، ممحوةً تلك اللحظة التي كنت أرحل وأكتبُ فيها لبلادي...

كان عازل يودّ أن يمحو من ذاكرته إلى الأبد صورة رحيله

وأن يعود إلى المغرب بوصفه بطلاً. ألا يُسهم شخصياً في مكافحة الإرهاب الذي يهدّد أوروبا؟ بات يحلم بالظهور على شاشة التلفزيون حيث سيُقدّم إلى المشاهدين بوصفه المسلم الصالح الذي بفضله أحبِطَت عملية إرهابية كانت معدّة للتنفيذ. كلّ هذا كان يجعل من مشكلات عازل الجنسيّة مشكلات ثانوية. لم يعد مهجوساً بعضوه، وكفّ عن التحديق في النساء، وتبدّدت أحلامه الإيروتيكية. أصبح رجلاً مختلفاً، مقداماً، دقيق الملاحظة، حاذقاً. يتنقّل ببراعة ويُسر مشهودين بين الأوساط المتشدّدة الهادفة إلى إحراق الغرب وبين أجهزة مكافحة الإرهاب. ويعلم يقيناً أن مثل هذا التوازن لن يدوم طويلاً. ويخشى، بين ليلة وضحاها، من سقطة ثانية كانت تعدّه لها حياته الفوضوية في مدريد. لكي يوفّروا له الغطاء المطلوب، تدبروا له وظيفة بدوام جزئي في القسم القانوني لأحد البنوك الكبرى. والمفترض ألاّ يعلم أحد بحقيقة نشاطه فيما تبقّى من الأوقات. للمرّة الأولى كان عازل يشعر بأنّه يؤدي عملاً مفيداً، وأنّ ثمةَ من يُثمّن الجهد الذي يبذله ويقدّره. يحرص على أناقة مظهره، وعدم الإسراف في الشراب. غير أنّه لم يستطع الامتناع عن تعاطي الكيف، فيُسرفُ في تدخينه أحياناً حتّى العياء، وينتابه على الأثر صداع حاد يشلّ حركته ويعالجه بمزيج من الأسبيرين والباراستامول والكوديين.

ثمّ انقطع الاتصال بعازل بضعة أيام. الأمر الذي أقلق العميل الذي يتولّى صلة الوصل بينه وبين الشرطة، وقرّر أن يزوره في شقّته. زعمت حارسة المبنى أنّها شاهدت عازل ليلة

أمس بصحبة رجلين اثنين من «المورروس» كما ادّعت. قرع الشرطيّ جرس الباب مراراً، ولم يفتح أحد. فطلب المساندة لاقتحام الشقّة.

كان عازل ممداً على الأرضية، مذبوحاً، ورأسه غارقاً في نقحة دماء. ذبحه الإخوان كخروف العيد.

39

كنزة

أنْ تنتظر. كنزة أمضت عمرَها وهيَ تنتظر. وخَبِرَتْ خفايا السأم، فالانتظار غوصٌ في بحر السأم، كَمِثْلِ أن يَشيْخَ المرءُ، أنْ يحدّقَ فلا يلوح لناظِرَيْه أفقٌ؛ كَمِثْلِ أن يُناصَبَ الزمانُ خصومةً، وأنْ يُخلف الوعدُ. لو أنّها أدرَكَت، في الأقلّ، ما تنتظره. جاوَزَت راضيةً فتراتٍ بالغة الصعوبة من حياتها. وبين الفينة والفينة كانت أمّها تُسمعها كلاماً لاذعاً: بالله عليكِ أخبريني كيف تدبّر الفتيات الأخريات أمورهنّ، كيف يجدنَ العريسَ ذا الحسبِ والنَسَب، المقتدر مالياً، الوسيمَ، المحترم؟ أنتِ فتاة جميلة، وحصّلتِ من العلم ما أتاح لك أن تعملي في عيادة طبيب، أنت من عائلة كريمة مستورة، لسنا أغنياء ولكننا لسنا فقراء أيضاً، إذاً أخبريني ماذا تنتظرين؟ أنتظر كلّ يوم أنْ تلتقي الرجلَ الذي يُسعدكِ، أصلّي وأطلب من الله أن يرأفَ بي وبسنّي وأن يستجيب لدعائي.

كانت كنزة تضيق ذرعاً بتلميحات أمّها. تقول في سرّها إنّها مسألة نصيب، والحظّ لم يحالفها. إنّها لا تملك مهارة رفيقاتها

المتزوّجات في التغاضي عن خيانات أزواجهنّ المتكرّرة، غير أنّهنّ يمتلكن، في الأقلّ، بيوتهنّ الزوجيّة.

تجرّأت كنزة ذات يوم على المشاركة في برنامج إذاعيّ حول الزواج بثّه راديو طنجة. كانت المذيعة قد جمعت أربع نساء عازبات تتراوح أعمارهنّ بين الخامسة والعشرين والخامسة والثلاثين. واستهلّت الصحافية تعليقها بالقولِ إنّ قلق المرأة يبدأ جدياً عند بلوغها الخامسة والعشرين. كانت كنزة قد بلغت الثلاثين وفقدت عذريّتها منذ زمن طويل. أرادت أن تؤيّد الفكرة القائلة إنّ المرأة بوسعها أن تكون عزباء وسعيدة، متحرّرة وعزيزة النفس، محترمة ومحبوبة. وأرادت أن تقول إنّها لا تنتظر عريساً بل الحبّ. كانت لديها فكرة جميلة عن الحبّ، عن العلاقة بين الرجال والنساء وخاصّة في بلد جميل كبلدها، وتعلم أنّ فكرتها هذه ليست سوى وهم غير أنّها لم تتخلّ يوما عمّا تصبو إليه: أن تجد الحبّ، الحبّ الحقيقي، الحبّ الكبير، الصادق، المُقلِق، ولو مرّة، ولو مرّة واحدة، أن تحيا تلك اللحظات الفريدة التي وحدها الأفلام والروايات التي شاهدتها أو قرأتها تبرع في وصفها. تذكر من هذه على نحوٍ خاص «رباعية الاسكندريّة» التي أهداها أستاذ الفلسفة نسخةً منها قبل رحيله. كما تذكر «ذهب مع الريح»، و«غادة الكاميليا». هكذا ابتكرت لنفسِها فكرةً واضحةً عمّا قد يمنحها ذروةَ السعادة. وهكذا أيقنت أيضاً أنّها لن تجد هذا الحبّ في المغرب، ليس لأنّ الرجال المغاربة عاجزون عنه، بل لأنّ الآراء السائدة والحياة اليومية تؤديان في آخر المطاف إلى وأدِ كلّ حبّ حقيقي.

تعرّفت على واقع المغرب في الحمّام. المكان المثالي الذي تتجه إليه أنظار الباحثين الاجتماعيين والمحللين النفسيين والمؤرخين والروائيين وحتّى الشعراء. فيه تستحمّ النساء وتكثر أحاديثهنّ. إنّه أريكة المحلّل النفسيّ الأضخم في العالم، على غرار سيّارات الأجرة، مكان عموميّ حيث للجميع الحقّ في الكلام، وفي الإسرارِ، وفي الشكوى. منذ قرون من الزمن والحمّام هو مسرح دموعهنّ ووعاء أسرارهنّ التي يتغاضى المجتمع عنها أو يأنف من الاستماع إليها. في كنفِ ذلك المكان شبه المعتم تجرّأت خديجة، الخيّاطة، على سرد قصّتها مع زوجها الذي اكتشفت ذات يوم أنّه يتحرّش بالفتاة اليافعة التي كانت تتعلّم الصنعة على يدها، طفلة في الثالثة عشرة، موهوبة ومحبّبة؛ كان الزوج يندسّ في فراشها ويضاجعها من الخلفِ كيلا يفضّ بكارتها؛ فعمدت خديجة، عقاباً له على فعلته المشينة، إلى حرمانه من حقن الأنسولين ليوم كامل حتّى كاد أن يفقد عقله. وفي هذا الحمّام أيضاً سمعت قصّة سعديّة الممسوسة ومنزلها المسكون بالجنّ: فكلّما أوقدت مصباحاً أطفأته يدٌ خفية. ومنذ ذلك الحين وسعديّة تطوف على أولياء البلاد ولا تتحدّث إلاّ بلسان الجنّ. وفي الحمّام أيضاً تعلّمت كنزة الوصفة العجيبة التي تعيد للرجل فحولته، فقد سمعت ثلاث نساء على الأقل يتحدّثن عن التغيّر المذهل الذي لاحظنه في أداء أزواجهنّ بعد تناولهم الجرعة السحريّة. وهناك أخيراً سُرِدت على مسمعها حكاية النساء الإفريقيات الحوامل اللواتي قرّرن أن يعبرن الحدود خلسةً لاعتقادهنّ بأن الشرطة الأسبانية

سوف تشفق لحالهنّ وتسمح لهنّ بأن يضعنَ مواليدهن على الأرض الأسبانية. . .

هناك أتقنت معرفتها بالمغرب كما يتعلّم المرء أن يتقن لغةً شبه أجنبيّة. فالصمتُ مثلاً قابلٌ للتفسير. في المغرب لا تصمت المرأة لأنّ ليس لديها ما تقوله، بل، على العكس، لأنّ قلّة قليلة من الناس قد تسمع وتفهم ما تقوله. ولذلك أصبحت كنزة تصغي لصمت النساء. أمّا اللغة المباشرة الفجّة التي تستخدمها النساء عادةً في أحاديثهنّ الخاصّة فكانت هي اكتشافها الآخر الذي صَدَمها. في أحاديث النساء يُسمّى العضو التناسلي باسمه وغالباً ما يُصاحبُ اللفظُ بإيماءات إباحية وبذيئة، فلا مجال للحشمة في تخاطبهنّ وكأنّ ما يتبادلنه هو نفحة من الحرية الحقيقية العارية. ولو أتيح لهنّ أن يقطنّ الحمّام طيلة حياتهنّ لما أحجمن. عندئذ يغدو الحمّام موطن النساء اللواتي يستدعين الرجالَ لكي يتلذّذنَ بهم كما يحلو لهنّ قبل أن يطلقنهم مجدداً إلى حياتهم المطمئنة بكلّ ما تنطوي عليه من جبنٍ، ومن تسوياتٍ كبيرة وصغيرة، وحياة اجتماعية تغلّب المظاهرَ لكي تحجبَ المظاهر حقيقة ما يعتمل فيها. تخيّلوا حمّاماً متراميَ الأرجاء يكون هو حاضرة النساء، بغلالات بخارِها، وعتمتها التي تستدعي البوحَ وتعتقُ الكلام، بكلّ أروقتها السريّة، وسراديبها، وحاناتها، وبوّاباتها الأرضيّة، وردهاتها السريّة لجنسٍ متحرّر أخيراً، بلا عوائق، بلا أحكام قيمة، بلا احتشام. وكم تكون محبّبة تلك الثورة التي تجعل النساء قيّمات على تنظيم مختلف للعلاقات الاجتماعية بعامة، والعلاقات بين الرجال

والنساء بخاصة. إلى أين يا امرأة؟ يصيح الرجل سائلاً. إلى الحمّام، سأستحمّ، وأنتف، وأتعطّر لأجلِك وحدك، لكي أكون لكَ الليلة وتفعل بي ما تشاء! الحمّام، مرّة أخرى! يُردّد الأزواج التعساء شكواهم غير مُدركين حقيقة ما يجري! أجل، لا تعرفون ولن تعرفوا شيئاً ممّا يجري في هذا المكان الذي تعشق النساء ارتياده لبضع ساعات، وحدهنّ، بمنأى عن إزعاج الأزواج أو الأولاد. ملعون هذا المكان المحرّم على الرجال! يقول الأزواج. فنحن إذا قصدنا الحمّام لا نلبث فيه ساعاتٍ، بل نستحمّ على عجلٍ، ثمّ نذهب إلى أعمالنا.

هكذا تلقّنت كنزة دروس الحياة في حمّام مرشان. غير أنّ هذا لم يحل دون أن تمضي بقيةَ أوقاتها وهي تنتظر وتنتظر وتنتظر. ثمّ أتاها الملاك جبريل، ميكال، الرجل الذي أرسلته السماء والذي سيخلّف وراءه مزيجاً من الدَعةِ والاضطراب. دون عمدٍ سوف يلحقُ الأذيّةَ بحياة عائلة، أذيّة لن يحمّله أحد تبعتها. على الضدّ من أخيها، كانت تشعر بالامتنان حيال ميكال. ولا تحمّله مسؤولية هذيانها الاستيهاميّ. فحُرقتها هي كانت كامنة، منذ زمن بعيد، في داخلها، قبل مجيء ميكال، حُرقة الانتظار، حُرقة السأم، حُرقة هذا المستقبل الذي تصدّعت مرآته.

استلقت على الكنبةِ مُسترخيةً. كان الراديو يبثّ موسيقى خفيفة. كما في المنام سمعت: «مات الملك، عاش الملك!» تبعتها صيحةٌ ثمّ تصفيق، ثمّ العبارة الآتية: «الحسن الثاني في

ذمّة الله، تبارك ابنه!» راحت الصور تترى في مخيّلتها: نساء ورجال مجلببون بالأبيض يخوّضون في مجرى نهرٍ، يجتازونه ويذهبون للصلاةِ في بريةٍ يغشاها النور. لم يكن أحدٌ منهم يبكي. أولادٌ يتراكضون في الأرجاءِ بكلّ اتجاه هاتفينَ: «عاش الملك!»

غير أنّ ذلك لم يكن حلماً. عندما نهضت شعرت للمرّة الأولى بدعةٍ غامرة. ودّت لو تصيح هاتفةً: «عاش الملك!» ثمّ سارت باتجاه حجرة الاستحمام وأبصرت في المرآة وجهاً مشرقاً، هو وجهها. كانت سعيدة، ولم تسعَ لفهم سبب سعادتها المفاجئة. وضعت رأسها تحت المياه الباردة، ثمّ رفعته مستقيمةً في وقفتها، لم تشأ أن تجفّف شعرها، فهي تعشقُ أن تسيل قطرات الماء، متمهّلةً، على كتفيها وصدرها. كانت وحدها، ولم تكن تحتاج إلى وجود أحد معها. فيما بعد، خلال الأمسية، شاهدت على التلفزيون إعادة بثّ لمراسم دفن الملك متبوعةً بمشاهدِ مبايعة لشابٍ باديَ التأثّر وعليه الآن أن يحمل شعلة سلالةٍ مالكةٍ يرقى مُلكها إلى عدّة قرون من الزمن.

في تلك اللحظة قالت في سرّها إنّ الوقت قد حان للرجوعِ إلى المغرب.

40

أنْ تعود

منذُ أيّامٍ يتجمهرون، وتوقهم أن يرحلوا بعيداً، بعيداً جداً، أن يُبحروا. يفدون سيراً على الأقدام، من الحقول، من القفار، من الغابات، من الأرض التي لم ترحّب بهم. يسيرونَ ليلاً نهاراً بعزيمةٍ لم يدركوا من قبل أنّها عزيمتهم، فلا يشعر واحدهم حتّى بالتعب، ولا بالحاجة إلى الأكل والشراب. رياح العودة تحملهم فينقادون لها من دون سؤال، من دونِ أن يعلموا ما الذي ينتابهم. يؤمنون أنّ القَدَر ماثلٌ ههنا، وهو الذي يسوقهم إلى أرض الجدود، إلى أرض الجذور، القَدَر الذي فاجأهم كوازعٍ، كأمرٍ لا يُردّ، كزمان خارج الزمان، كالصعودِ إلى قمّة جبلٍ، وعداً مغرياً، حلماً متوهّجاً، مجتازاً المراحلَ متعدياً الأفق. يسلكون الطريقَ مرفوعي الرأس، تهديهم رياح الحريّة التي تشملهم بهبوب حارّ. يشعرون بأنّ الوقت حان، بأنّ الساعة أزفت. موسم لهم، هم وحدهم، لأجل جميع من تعذّبوا، لأجل جميع مَن لم يبلغوا المكانةَ التي يستحقّون. خلّفوا كلّ شيء وراءهم، بلا ندم، ونسوا جميعاً ما هي الأسباب التي

دفعتهم إلى الهجرة. يسلكون طريقَ الميناء، وهناك يخاطبهم صوتٌ أليفٌ طالباً منهم أن يستقلّوا سفينةً تُدعى توتيا، سفينة متواضعة غرس على متنها القبطانُ شجرةً، مزهرةً طيّبةَ الروائح، شجرة برتقال أو ليمون حامِض.

القبطان رجلٌ من زمن آخر، ذو لحية مشذّبةٍ وسالفين. هزيل الجسم، أشبه بغندور. مساعدته فتاة حسناء بعينيها الرماديتين اللوزيتّين، وبشرتها الكامدة وشعرها الداكن الطويل الذي يتطاير مع النسائم. البعض يؤكّد إنّها كونتيسّة، والبعض يزعم أنّها مانوكان برازيليّة، فيما البعض الآخر يعتقد أنّها زوجة القبطان، أليس القبطان مَن يرمقها بنظرات وَلَه؟ إنّها هنا لكي تبسط ذراعيها مرحّبةً بالركاب الوافدين. لديها وشمٌ على الجبين والذقن. تضع يدها اليمنى على كتف القبطان الذي يسمّيها توتيا السامية. وعندما يُشير إليها القبطان بعلامةٍ تنشد بصوتٍ عذبٍ أغنيةً عربية أندلسيّة. أغنيةٌ تعبّر عن حنين موجع، فيتهدّج صوتها لشدّة الانفعال. تغمض توتيا عينيها وتغنّي من القلب. وسواء على متن السفينة أو في الميناء يقف الناسُ مستمعينَ بصمت.

يتوافدون جماعاتٍ متفرّقة، وفي نظراتهم زهوٌ. فما ينجزونه ليس واجباً، بل حاجة. نال التعب من بعضهم. لا شيء مستعصياً، مجرّد داء مفاصل. بسبب برد المنفى، برد مؤذ، ينتابك في عزّ الصيف عندما يكون الجوّ حاراً، تنهض فلا تحسّ بساقك اليمنى، هكذا، ولا أحد يعلم السبب، قال لي

الطبيب، كاذباً، إنّ السبب هو الشيخوخة، الدماغ يأمر لكنّ البدن لا ينصاع، كيف تجرّأ على مخاطبتي على هذا النحو أنا الذي يجوب السُبُلَ منذ زمن طويل، غير أنني أدرك الآن أنّه يجهل هذه العلّة التي نعاني منها جميعاً بصمت، ولعلّه من الأفضل، في آخر الأمر، ألاّ يعلم. أشعر بأنني أفضل حالاً في الوقت الحاضر، لا أدري من أنا، غير أنني على خير ما يُرام، على الرغم من رأي الطبيب. فقدتُ اسمي وقيل لي إنّه لم يعد لي وجه، إنّ لؤم الناس قد يفوق التصوّر أحياناً، أوجاع داء المفاصل اختفت هي أيضاً، في هذه السفينة ما يبدو لي أليفاً ومُستهجناً في آن معاً، لعلّها ليست سفينة، لعلّها مجسّم سفينة لا أكثر، خدعة بصريّة، انعكاس صورة على صفحة المياه. إنّها المرّة الأولى التي أستقلّ فيها سفينةً من دون ان أعلم وجهتها، وفي قرارة نفسي أرى الأمر مُستحبّاً، سوف تحملني الأمواج إلى يوم القيامة، اليوم الذي يستردّ واهب الروح أمانته، أمّا أنا فإنّي مستعدّ، مستعدّ منذ زمن بعيد، منذ أن علّمتني أمّي أنّ الرحيل الأخير ليس شيئاً يُذكَر وأنّ مرض البشر ولؤمهم هما وحدهما مدعاةَ الخشية. سوف يهبطُ جناحٌ ويضمّك، ويحملك إلى سماوات أخرى، هذا هو الموتُ يا بنيّ حلم يقظةٍ لا متّسعَ للألم فيه.

يمشي ميكال متكئاً على عكّاز. لم يفقد شيئاً من أناقة مظهره المعهودة لكنّ سيماء المرض على وجهه الذي يبدو ممتقعاً، يسير وحيداً، صامتاً. هو أيضاً لبّى النداء. مَن بلّغه؟ مَن أخطره بوجود هذه الرحلة؟ رتّبَ كلّ أموره قبل أن يغادر

المنزل. ولم يُخطر أحداً بما خطّط له بعناية. وفي رسالة موجّهة إلى كارمن وغابريال عبّر بصراحةٍ عمّا يتوقّعه:

في غضون أيام، وربّما أسابيع، سوف أرحل عن هذه الدنيا. إنّي هنا لا أرثي لحالي، فأنا أعترف بأنني عشتُ سعيداً، بأنني عشتُ المواقف الصعبة كلحظاتِ غبطةٍ لا توصف، أنا اليوم لست نادماً على شيء، أرحل قريرَ العين، ليسَ لديّ همّ، وأسألكم أمراً وحيداً، ألاّ يعلم أحدٌ بالمرض الذي يتأكّلني وسوف يودي بي. أتكلُ على حسّكم بالمسؤولية، على حبّكم، على صداقتكم لكي تسهروا على رحيلي الذي أريده جميلاً وبمثل أناقة الحياة التي عشتها. كتمان، خَفَرٌ، نُبلٌ، وشهامة، هذا ما أتمنّاه. أمقت الصخبَ والاستعجال. وفي اليوم الذي سأشعر فيه بأنّ أجلي يدنو سوف أدخل المستشفى بذريعة التهاب رئوي وسأموت على سريري في المستشفى. عندئذ سوف يبلغكم الأمر وسوف تأتون لنقلِ جثماني حتّى في ساعةٍ متأخرة من الليل. وعلى الأخصّ لن تدعوني مسجّى في المشرحة، ليس لأني أخاف البردَ بل لأنه مكان قذر يرتاده من لا أحبّذ عشرتهم، سوف تحملونني فوراً إلى بيتي، إلى بيتي القديم، وسوف تطلبون إلى جاري لحسين أن يغسلني، إنّه رجل متديّن وعلى قدر كبيرٍ من الاستقامة. ومن ثمّ اشتروا زهوراً، كلّ الزهور التي قد تجدونها في سوق فاس، وضعوها في كلّ مكان، وأحرقوا أعواد صندل وإياكم أن تأتوا لي بكاهن، ولا تنسوا أنني قد أصبحت مسلماً. وأخيراً ادعوا جميع أصدقائي وقدموا لهم الشراب والطعام.

لقد اشتريت قبري، إنّه في مقبرة المجاهدين، على بعد مائة قبرٍ من المدخل، تحت شجرة وارفة مطلّة على المدينة، ومن موقعه يستطيع المرء أن يرى الجبل والبحر وطنجة القديمة. أعشق المقابر الإسلامية، فهي ليست مُفخّمة كمقابر الديانات الأخرى المنسّقة. المقابر الإسلامية بسيطة، متواضعة، رحبة الأرجاء، تنوّرها الحياةُ بضياءٍ رائع. لستُ تقياً كما تعلمون غير أنني أحترم الأديان. وما إن أوارى في الثرى - لا أريد تابوتاً، أريد كفناً وحسب - سوف تتلون صلواتٍ اخترتموها لأنكم تحبّونها، ربّما قصائد أو تراويح صوفية. فقط بعد ذلك سوف نودّع بعضنا بعضاً.

أمّا بشأن الإرث فسوف يطلعكم الأستاذ المحامي غارسيا على تفاصيلها. أمرٌ أخير: إنّي أعهد إلى غابريال بمهمّة السهر على تعليم حليم وحليمة، وَلَديّ. هو يعلم ما الذي أتوقّعه منه، وليس عليه إلاّ أن ينفّذ ما اتفقنا عليه سابقاً. أمّا كنزة فليحرص على أن تنال حصّتها من الميراث.

يصعد ميكال إلى متن السفينة من دون أن يستعين بأحد، يُلقي التحية على القبطان وينحني لاثماً يَدَ توتيا ويذهب ليتمدّد على كرسي طويل في ظلّ الشجرة. وهناك يسمع صوتاً هامساً: أنت في عالمٍ حيث الشهوات الخامدة تحمل آثارَ حبّ عظيم ما زال يبرقُ فيّ العتم بجوار الزهور التي طالما أحببتَ، زهور تحمل الحياة الزاخرة بالذكريات المتدفّقة من كلّ ناحية وصوب.

تصل كنزة بمفردها، مُتألّقةً. مجلببةً بالأبيض، مُسبلة الشعر، لا تكلّم أحداً، غير أنّها تبدو سعيدة، مُرتاحة. لقد فعل الزمن فعله. وخلّف الربيع وراءه بعضاً من غبار طلعه. لقد هُزّت حياة كنزة بعنف فسقطت عنها ذكريات. ذكريات مفرحة وأخرى مكدّرة. لم تقوَ على فرزها وتصنيفها. غير أنّ أمامها متّسعاً من الوقت لكي تعيد ترتيب هذا كلّه. ما عادت تقلق، تشعر بارتياح، بخفّة شبيهة بتلك الخفّة التي شعرت بها يوم طمثها الأول، كانت تعدو في الشوارع مقلّدةً تحليق السنونوة. كان ينتابها في ذاك الصباحُ إحساسٌ مماثل. إحساس لذيذ. أن تغيّر جلدها، وتنأى بنفسِها قليلاً عن العالم ومآسيه. أن تتخطّى هذا الألم الهائل ولا تختنق من العارِ في نومها. بصفاء سريرة تصعد كنزة إلى متن السفينة، ويصحبها أحد البحّارة إلى مقصورةٍ جميلة. من هنا، يقول، سوف تشاهدين البحر، وهذه الدلافين التي تواكبنا، إنّها ذكية جداً وتتبادل الأحاديث فيما بينها ويستطيع المرء أن يفهمَ ما تقول، سوف تأتي لتلقي عليك التحية، ولا تفزعي إذا أرغمتها أسماك القرش على الفرار أحياناً لكي تحلّ محلها لبعض الوقت. خُذي قسطاً من الراحة، يوجد هنا ترمس شاي وبعض البسكويت. سرعان ما تغرق كنزة في سباتٍ عميق، قريرة العين، سعيدة لعودتها إلى المنزل. تنحني توتيا عليها وتلمس برفقٍ وجهها البارد. تقبّلها على جبينها وتسحب الغطاء قليلاً ليدثّر كتفيها.

سميّة، سميّة الحسناء، التي كانت تصدّق كلّ ما يقوله الرجال لها، والتي كانت تمنحهم جسدها من دون تردّد، سميّة،

الضالّة والمهتدية، تصل إلى متن السفينة محتجبةً من قمّة رأسها حتّى أخمص قدميها. لا أحد يجرؤ على التحدّث إليها. ترتدي الحَيك الأبيض الذي ترتديه عادة فلاّحات الريف ويستر جسدها الذي فقد في غضون اعوامٍ قليلة كلّ فتنته وسحره. ضحية نفسها، لبَّت النداء وها هي بدورها على متن السفينة. لم تغدُ سميّة أختاً مسلمةً، وإذا كانت لا تنزع الحجاب عن وجهها فلأنّها تريد أن تخفيه، فخدّها الأيمن يحمل ندبة عميقة؛ وكذلك فمها لأنها فقدت بعض أسنانها. لقد تعرّضت لحادث، تقول إذا ما سُئلَت، أجل حادث سيرٍ مريع على الطريق بين مدريد وتوليدو، كان يقودُ بسرعة جنونية وهو سكران، فاصطدمت بنا شاحنة ولا أذكر شيئاً آخر، فيما بعد عندما صحوتُ نظرتُ إلى نفسي في المرآة وصحتُ بأعلى صوتي. تشوّه وجهي. أعطتني شركة التأمين مبلغاً من المال وقال لي الطبيب هيّا عودي إلى ديارك، هناك سفينة تنتظرك في طريفة، وسوف ترين أنّك لن تكوني وحيدةً على متنها، إنّها سفينة سحريّة، على متنها سوف تتراءى لك الحياة جميلة وتسطع الشمس باستمرار لأجلك، هيّا، يا ذات الجمال المنهوك. . . سلكتُ الطريق إلى هنا مرتدية حَيْك جدّتي، كان كفنها، لكنّها ماتت في مكّة وورثته عنها، إنّه منسوج من قطن مصر، ناعم ومتين، لم يلتفت إليّ أحد، إنّه كفن أختفي فيه، رداء مثالي لاجتياز المسافة من دون أن يتحرّش بي أحد، من دون أن تطرح علي الشرطة سؤالاً واحداً، ترحّمتُ على جدّتي لأنّها حَسناً فعلت إذ اختارت أن تموت في مكّة، قيل لي إنها ماتت اختناقاً أثناء تدافعٍ عند رمي الجمرات. غالباً ما

يشهد الحجّ أحداثاً مماثلةً، يفقد الناس السيطرة على أنفسهم، فيتدافعون ويدوسون بأقدامهم العجائز والضعفاء. ولكن ما يُقال أيضاً هو أن من يموت هناك يكون قد ضمن الجنّة! أنا لا أريد أن أموت، ما زلتُ في عزّ صبايَ، وأودّ أن أنشئ أسرةً، أن أرزق أولاداً، وأن أسرد على مسامعهم الحكايات. . .

عندما يصل فلوبير غارقاً في عَرَقِه، لا أحد يوليه انتباهاً. لقد قطع المسافةَ عدواً ظنّاً منه أنّه لن يلحق بالسفينة قبل أن تبحر. طويل القامة مشيقها، بارِق العينين، لا يهدأ في مكان ويتحدّث بصوتٍ عالٍ. يوم بلغني أن سفينة العودة تنتظر في طريفة، خلّفتُ ورائي كلّ شيء، وسلكتُ الطريقَ إليها. منذ أسبوع تقريباً وأنا أسير على قدميّ. وكان عليّ أن أعدو أحياناً، فقدت بضعة كيلوغرامات من وزني، ولكن لا بأس، أشعر بأنني على خير ما يُرام. إلى أين وجهتنا إذاً؟ لِمَ لا يجيبني أحد؟ يُجيلُ نَظَرَه من حوله بحثاً عن وجوه مألوفة. الكلّ مستغرقٌ في عالمه الخاص. ولا خيار له إلاّ أن يحذو حذوهم. غير أنّ فكرةً تخطر في بال فلوبير: ماذا لو كانت هذه السفينة من نسج الخيال، ماذا لو كانت رواية عائمةً، رواية على هيئة قنينة رُميَت في البحر من قبلِ هذا العدد الهائل من الأمّهات المحزونات اللواتي أنهكهنّ الانتظار؟ وإذا كان افتراضي هذا صائباً، فإني أدرك أخيراً لِمَ أطلق عليّ أبوايَ اسم فلوبير. ليس أمامي إذاً إلاّ أن أدخلَ الرواية. ولكن كيف يغدو المرء شخصيّة روائية؟ كيف يتسلّل بين الصفحات ويُقيمُ قرير العين وسط أجمل فصول قصّة عن

الحبّ والحرب؟ لم يبق لي مكان في رواية «مدام بوفاري»، لم يكن فيها مكان شاغر، وبأية حال ليس في القصّة زنجيّ واحد. . . تُرى أين أجد مكاناً، مخبأً؟ دائماً يبقى خيار «ذهب مع الريح»، ولكن مَن ذا يودّ فعلاً أن يكون فيها؟ فقط لو أهتدي إليها، هذه الرواية التي قد أكون شخصيّة من شخصيّاتها، فعندئذ لن أعود مضطراً إلى العمل، سوف يتولاّني الروائي برعايته ويمنحني دوراً ويُسكنني قصّةً، ويجعلني أحيا وأحبّ وأصرخ، ويجعلني أموت في النهاية لأنّه لن يعرف كيف يختم قصّته. غير أنني لا أريد أن أموت، حتّى كشخصيّة روائية على الورق، لا أريد أن أُحْرَقَ أو أُتلَفَ، دائماً تحدث مثل هذه الأمور، الروايات التي لا تجد قراء لها تُرسَل إلى مصنع للورق حيث تُسحق وتستحيل عجينة تُصنع منها مواد التغليف والتعبئة. تخيّلي نفسك، يا شخصيّتي الروائية، مُضاعفةً إلى آلاف النسخ التي تُرمى، في آخر الأمر، في آلةٍ طاحنة، فتسحق مرّةً رأسي، ومرّة خصيتيّ، ومرة أخرى رجليّ، أي بالاختصار، تحيلني في غضون دقائق إلى ملايين من الكرات الصغيرة، وكلّ هذا من أجل مواد التغليف والتعبئة! فأي مصير هذا أن ينتهي بك الأمر ورقَ رسائل، أو ملصق سينما، أو حتّى ورقاً صحياً. لا، الأمر لا يستحق العناء، فالأحرى أن تجد رواية مطوّلةً قيد التأليف، وأن تندسّ بين شخصيّاتها الرئيسيّة، كأن تكون مثلاً حارس متحف، كأن تتفرّج على غراميات البطلة وعشيقها، كأن تكون دبلوماسياً مضطهداً من قبل زوجته التي تخونه مع مدير التشريفات. . . وماذا لو طلبتُ إلى تلك الإنكليزيّة التي ألّفت

كتاباً يقرأه الجميع اليوم، ويحكي عن شخصيّة سحريّة، فالمؤكّد أن كتاباً كهذا لن يجد طريقه إلى التلف! وهو يلائمني، ولكن المشكلة تكمن في أن الرواية قد كُتِبَت وانتهى الأمر، فما السبيل إلى صوغها مرّةً أخرى بحيث أظهر فيها؟ أليس الأحرى أن أبدأ بقراءتها؟ لا بدّ أن يكون لدى أحد ركّاب هذه السفينة يملك نسخةً منها، لقد بيعَت ملايين النسخ منها، لذا، أنا واثقٌ من أن الجرذان تملك في جحرها نسخةً منها تحسّباً لليالي الشتاء القاسية، هذا أمر مؤكّد فالجرذان تجمع في الصيف مؤونتها من الروايات تحسّباً لليالي الشتاء الطويلة. الفرق الوحيد بينها وبيننا هو أنّ الجرذان لا تقرأ، تقرض الورق المطبوع وتلتهمه لأنّ الحبر غنيّ بالفيتامينات. هذا ما أكّده لي ذات يوم، قريبي إميل زولا، الذي يعمل كأمين مكتبة في دوالا. عندما أفكّر في الأمر ملياً، أدرك أنّ أفضل ما قد يحدث لي هو أن أغدو شخصيّة روائية. الأقرباء والآخرون في «نْدِه» لن يصدّقوني، سيعتقدون بأنني فقدت صوابي بسبب المنفى، لأن حياة المنفى مريعة.
أراهم يتندّرون ويضحكون. مَن فلوبير؟ آه، بلى! لقد هَرَب! لم يعد من هذا العالم! وجد لنفسِه وظيفةً خيالية في رواية، باتَ يتسكّع في الكتب، ينام على صفحاتٍ تفتحها برفق أصابع نساء معطّرات لكي تقرأها. تخيّل أنّه ينام نهاراً في حقيبة يد امرأة رائعة الجمال، يتبعها حيثما تذهب، حتّى حين تستحمّ، تقرأه، وهو يرمقها متلصّصاً، يستمتع فيما نحن ننتظره هنا لكي نعرف كيف سنتصرّف حيال الإرث. . . الحقير فلوبير، لقد اهتدى إلى هذه الطريقة كيلا يواجه الواقع، الواقع الحقيقي، ذاك الملتصق

بجلودنا ويوجعنا. أمّا هو فيلبث مطمئناً، قرير العين، موضوعاً على رفّ في مكتبة، ينتظر يداً تمتدّ إليه، تفتحه، تقلّب صفحاته، ثمّ تقرّر أن تعيده إلى مكانه، لأنها رواية خالية من الجنس، خالية من الشبق، رواية سياسيّة لا تعني الكثيرين، أو في الأقلّ هذا ما يُقال.

يجد فلوبير بدوره مطرحاً ضيّقاً تحت شجرة الليمون الحامض، ويغفو كطفل، تهدهده النسائم العطرة التي تنبعث من الشجرة. بمضيّ هنيهات لا أكثر، تحمله رائحةِ أزهار الليمون إلى سطيحةٍ في فاس القديمة حيث نساءٍ يفردنَ على شرشف أبيض كبير أزهار الحمضيات المعطرة وأزهار الياسمين لكي تجفّ قبل أن تعالج بالبخار لاستخراج رحيقها الذي تُصنع منه أفضل العطور.

القبطان جالس على كنبة كبيرة من الخيزران. يدخّن غليونه ويقرأ في صحيفة قديمة أخبار الإنزال على شاطئ النورماندي. توتيا تلوّح بمروحةٍ إشبيليّة، تبعد عنه الذباب وترطّب الجوّ من حوله. وبين الفينة الفينة، ترشّه بماء الورد مستخدمةً مرشّةً صغيرة من فضّة. لا يرفع عينيه عن الصحيفة إلاّ ليعدّ الواصلين. سوف تبحر السفينة عندما يكتمل عدد ركابها الخمسة والعشرين، ثلاثة منهم لم يصلوا بعد. وصل فجأة رجلٌ سمين ساذج يزعم أن اسمه السيّد بانشا. بعد تشاور مع توتيا، سأله القبطان: أين دون كيشوت، سيّدك؟ سيصل عمّا قريب، عمّا قريب، أيها القبطان، لقد أخّرته شرطة الحدود لأن أوراقه لم تكن سليمة، والحقيقة أنّ لا أوراق ثبوتية لديه! إلى ذلك عمدت الجمارك إلى

مصادرة سيفه الذي يضنّ به كثيراً، لذا فإنّ الأمور كما ترى ليست بسيطة... ولكن لا تقلق، أنا واثقٌ من أنّه قادر على معالجة الأمور.

تظهر علامات الدهشة على وجه القبطان. سيّدك يسافر إذاً كما كان يسافر الناس في القرن السادس عشر، لا جواز سفر، ولا تصريح، أين يظنّ نفسَه؟ وأنت كيف استطعت أن تعبر الحدود؟ قلت لهم إنني آت لأبلغك بأنّ سيّدي موقوف لديهم.

استيقظ فلوبير من نومه السطحيّ عندما سمع بانشا مقترباً:

- أدعى فلوبير، وأنا في خدمتك!

- أرجوك لا تزعج نفسك بسببي، يجيب السيّد بانشا معتذراً، فقط قل لي ما هي الوثيقة التي استخدمتها لكي تتمكّن من الصعود إلى متن السفينة.

- بأي وثيقة؟ أنا أدعى فلوبير، وهذا يكفي. لا حاجة إلى الأوراق الثبوتية هنا. نحن ضيوف القدر. فما حاجتنا إلى الأوراق إذاً؟ هيّا، اذهب واحضر سيّدك وقل له إنّ فلوبير ينتظر قدومَه بثبات وتيقّظ، وتوقّد ذهن، وصفاءِ سريرة، والأهم من ذلك كلّه هو أنّه مستعدّ لخوض مغامرة البحار!

يلزم القبطان الصمت، ويواصل تدخين غليونه، مُراقباً الأفقَ بين الفينة والفينة عبر منظاره القديم. طلب فلوبير إلى توتيا أن تعيره مروحتها. فلم تُجب. ولمّا ظهر دون كيشوت، أو في الأقلّ من يزعم أنّه يُدعى دون كيشوت، نهض القبطان منتصباً في وضعية التأهّب:

- أهلاً بك، مونسانيور! كنّا ننتظر قدومك لكي نبحر. رغباتك أوامر.

- شكراً، أيّها النبيل! ومع ذلك يبدو لي أن العدد لم يكتمل بعدُ، هناك شخص، أو لعلّ الأحرى أن أقول هناك شخصيّة روائية لم تصل بعد. لقد صمّمت هذه السفينة خصيصاً لهذه المهمّة، وهي تتسع لخمسةٍ وعشرين محلاً بالضبط، ولن تبحر قبل أن يكتمل عدد الركاب.

ألقى القبطان نظرة على لوائحه وأيّد ما قاله دون كيشوت.

- لننتظر ركّاب اللحظة الأخيرة.

بمضيّ ساعات، وفيما الشمسُ تنحدرُ وئيداً عند أفق الغروب، لمح الركّاب رجلين مُقبِلَيْن في ملابس عسكريّة، حاملين على أكفهما صندوقاً هو أشبه بتابوت. يضعان التابوت على أرضيّة الرصيف ويغادران من دون أن يلتفتا إلى الوراء. وما هي إلاّ هنيهات حتّى يتقدّم رجل، أو الأحرى شجرة، وتحيط بالصندوق من كلّ جانب. من ثقبٍ في اللحاء يتراءى وجه، فيما تخرج ذراعان من الجذع. وفي اللحظة التي يهم فيها الرجل - الشجرة، أو الشجرة التي يقطنها رجل، بالصعود إلى متن السفينة، يظهر شرطيان من الحرس المدني فجأة ويعترضان طريقه.

- قف مكانك! أين تحسب نفسَك؟ في حديقة حيوان أو سيرك؟ هيّا، ابرز أوراقك الثبوتية!

تهتز الشجرة، تتساقط أوراقٌ من أغصانها، أوراق ما زالت خضراء، بطاقات هوية من جميع البلدان، بطاقات من كلّ لون، جوازات سفر، وثائق إداريّة، وبضع صفحات من كتاب مكتوب بلغة مجهولة. تخرج فجأة من هذه الأوراق آلاف من المقاطع اللفظيّة، تتطاير باتجاه أعين الشرطيين وحتى تعميهما. ثمّ تتشكّل الحروف في يافطةٍ كتب عليها: «**الحريّة هي مهنتنا**». ومن دون استئذان الشرطيين تصعد الشجرة إلى متن السفينة منتحيةً ركناً بجانب دون كيشوت الذي سأله القبطان بصوت خفيض عمّن تكون هذه الشخصيّة الروائية.

- أيّتهما؟ شخصية الشجرة أم شخصيّة التابوت؟

- لا شخصيّة القاطن الشجرة. أمّا التابوت فسوف يحمله رجالي إلى المتن. يجب أن نسلّمه إلى السلطات فور وصولنا، ولكنني أجهل كلّ شيء عن الزمان وكذلك المكان، فلا أضمن شيئاً. إذاً أخبرني من يختبئ وراء هذا الزيّ التنكّري.

- إنّه يسمّي نفسَه موحا، ولكن مع رجلٍ مثله لا شيء مؤكّداً على الإطلاق. إنّه المهاجر الغُفْل! إنه الرجل الذي كنته أنا، والذي كانه والدك، والذي سيكونه ابنك، الرجل الذي كان أيضاً، منذ زمن بعيد، النبي محمّد، نحن مدعوون جميعاً إلى الرحيل عن ديارنا، نحن جميعاً نسمع نداء البحر، نداء الأعماق، أصوات البلاد البعيدة التي تتردّد في أعماقنا، والحاجة إلى مغادرة وطننا الأم، لأنّه غالباً ما يكون مفتقراً للثروة، أو غير محبّ، أو غير سخيّ لكي يبقينا بجواره. فلنرحل إذاً، لنمخر عباب البحار حتّى انطفاء أضأل قبسٍ من نورٍ تنطوي عليه روحُ

كائن، سواء كان من هنا أو أي مكان آخر، وسواء كان إنساناً صالحاً أو ضالاً ممسوساً بطاقة الشرّ، سوف نتبع هذا النور الأخير، مهما بَهُتَ وخبا، ومهما كان شحيحاً، فلعلّ منه ينبلج جمال العالم، ذاك الذي سيضع حدّاً نهائياً لوجع العالم.

طنجة - باريس

أيلول 2004- تشرين الثاني 2005

الطاهر بنجلون

أن ترحل

من طنجة، المدينة المفتوحة الواقعة على الحافة بين المحيط الأطلسي والبحر المتوسط. مدينة السحر وعجيب الحكايات، المدينة المغربية التي قيل وكُتب عنها الكثير، عن حياة في الظاهر، وأخرى في الباطن.

منطلقاً من طنجة، يكتب الطاهر بنجلون في هذه الرواية، تمزّق المغاربة بين حبّهم للمغرب ورغبتهم في مغادرته. فالشباب المغاربة، كما الأفارقة الذين يأتون إلى طنجة، وبسبب إصرارهم المتهور على الوصول إلى الضفّة الأخرى – أسبانيا – يقعون فريسة المهرّبين والغرق في البحر، أو يضطرون لفعل ما فعله عازل الذي أصبح خليل ميكال كارهاً، وما فعلته كنزة التي تزوجت ميكال، في سبيل حلم الحصول على جواز سفر أو حتى فيزا.

بين طنجة وأسبانيا يصوّر الطاهر بنجلّون كم أن حلم "أن ترحل" بأي وسيلة هو حلم بائس.

علي مولا

ISBN: 978-9953-68-233-X
9 789953 682334

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب: 113/5158
www.ccaedition.com
markaz@wanadoo.net.ma